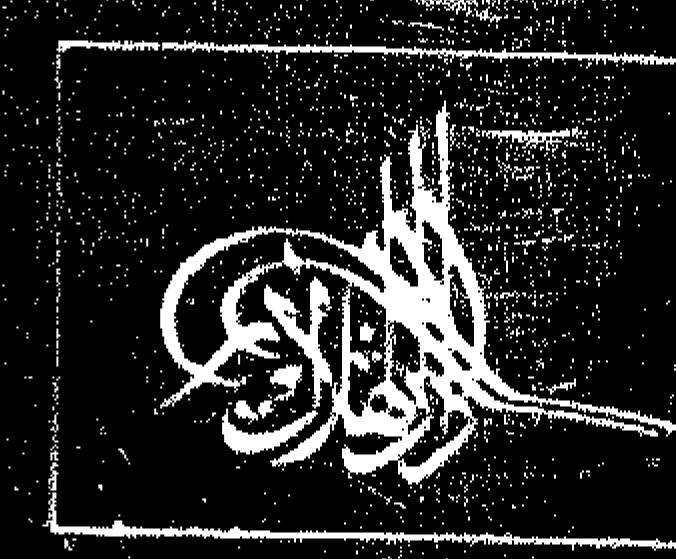


كتاب الهلال

اعترافات الروائى چورچ سيمنون.. و:

هذه المرأة لى

إعداد:

د. الطاهر مكى



كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب . تليفون . ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

العدد ٤٦٧ - ربيع الثانى ١٤١٠ - نوفمبر ١٩٨٩ KITAB AL-HILAL

اسعار البيع للعدد الممتاز فئة ٢٠٠ قرشا للقارىء فى مصر :

لبنان ٧٠٠ ليرة ، الأردن ٦٠٠ فلس ، الكويت ٥٠٠ فلس ، العراق ٢٥٠٠ فلس ، السعودية ٧ ريال ، الدوحة ٨ ريال ، البحرين ١٢٠٠ فلس ، دبى ٨ درهم ، ابو ظبى ٨ درهم ، مسقط ٨٠٠ بيزه ، غزة والضفة ١٫٢٥ دولار ، لندن ١٥٠ بنس .

الغلاف تصميم الفنان
محمد أبو طالب

اعترافات الروائى
چورچ سيمنون
و..

هذه المرأة لى

إعداد
د. طاهر مكى

دار الهلال

قبل أن تقرأ ..

آثرت دار الهلال وهى تدفع برواية « هذه المرأة لى » للكاتب العالمى جورج سيمنون إلى القارىء العربى ، أن تسبقها دراسة تعرف به ، حياته وأعماله ومكانته ، لأن حياته ، فى جانبها الأدبى على الأقل ، نموذج يحتذى لمن يكتبون الرواية فى عالمنا العربى ، الشادون منهم على أول الطريق ، وحتى من بلغوا مرحلة النضج والتمكن ، فسوف يجدون فيها التجربة الواسعة العميقة بالحياة والناس ، من خلال القراءة والرحلة والممارسة ، وأن رواياته هى المجتمع منقولا على الورق ، والناس يتحركون على الصفحات وفى خيال القارىء ، بدل الشارع والبيت والعمل ..

وسيجدون فيها أيضا إراد الانتاج والتنظيم فى العمل كأوضح مايكون ، ولست أعرف بين أدبائنا وكتابنا من سلك هذا الطريق القاسى والمثمر غير اثنين : عباس العقاد فى مجال الفكر ، ونجيب محفوظ فى مجال الابداع ، وإن كانت حركتهما المادية خارج حدود مصر محدودة ، أو معدومة ، واستعاضا عنها بالرحلة قارئين ، ومع ذلك لست أشك فى أن اعتزال العالم الخارجى ، والاستقرار فى مصر كلية ، وجه انتاجهما توجيها ما ، وكان ممكنا أن يسلك طريقا ، أو حتى طرقا أخرى ، لو كان لهما من الرحلة ماكان لسيمنون ، ولو أن الامر فى جانب العقاد كان أقل ضررا ، لأنه مفكر ، والفكر عالمى ، والتعامل معه يمكن أن يتم بالمواجهة عبر الصحيفة والكتاب ..

وربما كان الروائى المصرى الذى سيه شىء من سيمنون هو إحسان عبد القدوس ، ومن هنا جاء إبداعه متنوعا ، لايقف به عند جانب واحد من الحياة ، ولا عند طبقة بعينها ، وتجاوز به مصر إلى العالم العربى ، فالأفريقى فالأوربى ، وهو فى كل هذا يعبر عن أشياء رآها ، وتعامل معها ، أو على الأقل شهدها واقعا يتحرك على مسرح الحياة ، وليست من صنع الخيال الخالص ، أو التصور المحض ..

سوف نجد أنفسنا إزاء كاتب مضطرب الحياة منذ الطفولة وأن هذه الحياة أثمرت عواطف هوجاء فى مرحلة الشباب ، وتوترا عنيفا فى سن النضج ، وقلقا مستمرا فى سنى الشيخوخة ، انتهى به إلى استسلام صوفى ، وزهد لامبالى . وفى كل هذه المراحل شغل العالم الأدبى والصحفى ، وكانت الشهرة تلهث وراءه وهو يهرب منها .

اختلطت الكتابة عند سيمنون باللحم والدم . فهو لايستطيع الابتعاد عنها حتى لو أراد ، وهى ليست عنده مهنة يلجأ اليها راغبا وبحساب ، وغاية مايرجوه من ورائها شيئا يدفعه الى الشهرة ، أو عملا يدرّ عليه بعض المال ، ومن هنا ألقيت الضوء على طريقته فى الاعداد والكتابة ، لتعين أولئك الراغبين فى كتابة الرواية أيا كان نوعها ، وأن يختاروا منها ما يناسب مواهبهم وظروفهم ، لأن الفوضى ، والهواية وحدها ، لاتنتج أدبا عظيما ، ولاتبقى على الابداع متواصلا ، والرواية الجيدة الوحيدة قد تحدث فرقعة لبعض الوقت ، ولكن سرعان ماتذهب الرياح بصداها وبكل ما لها من أثر .

يصفون سيمنون بأنه رجل غامض فى حركته ، وأنه لا أخلاقى فى حياته ، فهل جاء ميله الى الرواية البوليسية من طبيعة غامضة فى أعماقه ، وكان تحلله وليد فلسفة مستقرة فى عقله ، أم أن كثرة ماكتب من أعمال روائية تدور حول الجريمة والعنف والجنس ،

أضفى عليه هذا الطابع ، ولون حياته بماسنراه فيما بعد ؟ يصعب على المرء أن يرجح احتمالا على آخر ، ولكن استطيع أن اقرر مطمئنا أن هناك علاقة جدلية بين مزاجه وهوايته ، مال إلى الغموض والتجاوز والتفرد ، وأغرم بها ، ووجدت هذه المجال مواتيا فى الرواية البوليسية لتعبر عن نفسها ، وفى الرواية التحليلية لتبرر مواقفها ، فمضت بهما ، ومعهما ، حتى النهاية .

ومن هنا كانت نظرتنا على الفن الروائى بعامة ، والبوليسى بخاصة ، ليكون القارىء واعيا بما يقرأ فيما بعد ، بناء واتجاها وفنا .

أدب جديد لمجتمع جديد

انبعثت الرواية بدءا من الملحمة ، وكانت هذه قد أدت دورها ، وأوشكت شمسها على المغيب ، ولعل الرواية فى خطاها الأولى كانت مجرد ملحمة منثورة ، إذ الأصل فى هذه أن تكتب شعرا . ومن هنا استهدفت أشكال الرواية فى طفولتها دفع خيال القارىء فى عالم الأحداث الغريبة والمفاجئة ، ومداهمته بالمغامرات المدهشة ، وتجسيم المستحيل ، وتغذية الخيال . ومع التطور والتقدم أخذت تقترب من عالم الواقع ، إلى أن جعلت منه مرآة على طريق ممتد ، ترسم بالدقة ماهو موجود ، مع نقصه وتفاهته ايضا ، وجاء ازدهارها على أطلال القصائد الملحمية ، وتطور المسرح ، فهى من ملامح العصر الحديث ، وبخاصة القرون الثلاثة الأخيرة منه ، حيث احتلت المكان الأول أهمية ونموا وتطورا واتساعا ، فأخذت تهتم بدخائل النفس ، والصراعات الاجتماعية والسياسية ، وتجرب دون توقف تقنيات جديدة ، حكيا وأسلوبا وبناء ، وأصبحت منذ مطلع القرن التاسع عشر بخاصة شكلا من التعبير الأدبى أكثر

أهمية ، وأشد تعقيدا ، بين مختلف أشكال الأدب وأنواعه فى الاعصر الحديثة ، وتحولت من مجرد حكاية للوعظ أو التهذيب ، دون طموحات أبعد ، الى درس الروح الانسانى ، والعلاقات البشرية ، والفكر الفلسفى ، والاستطلاع ، ومع أنها لم تتخل تماما على العنصر الخيالى ، وهو أمر ليس ممكنا ولا مطلوبا ، إلا أنها استطاعت أن تضيق دائرته ، وأن تقترب على نحو أقوى من الواقع والحقيقة .

كان الروائى فى البدء مؤلفا غير ذى أهمية فى جمهورية الأدب ، فأصبح كاتبا مرموقا ومحترما ، يتمتع بجمهور كبير ، ويمارس تأثيرا قويا على القراء ، وبدأ يزعم لنفسه أنه قادر على التحليل الدقيق والعميق للأحاسيس والعواطف والأخلاق والعادات ، ولم يعد بطل الرواية خيالا صيغ من دخان وأوهام ، وإنما كائن حى له شعور وأحاسيس ، ولم تعد الرواية نفسها نسيجا معقدا من الأحداث يجىء هوى أو صدفة ، وانما مجموعة من الأحداث المنطقية ينشأ بعضها عن بعض ، ولم يقف الروائى عند الاحداث وحدها ، وإنما صور المواقع التى كانت مسرحا لها ، وأبرز الانسجام العجيب بين الطبيعة والانسان ، والتأثير الخفى للبيئة التى يعيش فيها ، والعادات التى كانت سائدة والأخلاق التى توجه حركة الحياة ، ومؤرخو الأدب الفرنسى يرون فيما كتبه بلزاك المجتمع الفرنسى كله بين عامى ١٨٣٠ و ١٨٥٠ ، يتحرك أمامنا ويسير : الطبقات الشعبية ، والبرجوازية ، والعمال والتجار ، والباعة المتجولين ، والممثلين والقضاة ، وأصحاب رءوس الأموال ، وكانوا أغنى الطبقات كلها ، والانتهازيين والمثقفين المنافقين ، وآخرين تزخر بهم الحياة .

والنقاد المعاصرون المعجبون بالروائى الذى نعرض له ، وننشر

روايته في هذا الكتاب : جورج سيمنون يطلقون عليه اسم : بلزاك القرن العشرين .

وشيء شبيه بهذا نجده عند نجيب محفوظ ، فنرى فى قصصه ورواياته صورة مصر من ثورة ١٩١٩ حتى أيامنا هذه ، بكل طبقاتها واتجاهاتها ، وفضائلها ومباذلها ، وأمجادها وإخفاقاتها ، ونضال أبنائها ، وساعات ضعفها ، وطغيان حكامها ، ونفاق رجال الدين فيها ، إلى آخر ماتمور به أعماقها من خير وشر .

والرواية بهذا المعنى صورة من التاريخ ، تسجل الأخلاق والعادات وحركة الحياة ، واذا تجاوزنا عن بطولات شخوصها ، وعن الصيغة الشعرية فى تعبيرها ، وأخذنا الجانب الواقعى فى الاعتبار ، وأنه تصوير الحياة فنيا بأمانة ، أدركنا أنها غدت نوعا من التأليف الأدبى الرزين ، ذى القيمة العظيمة على حين كانت الرواية البدائية خيالية ، مليئة بالمغامرات والحب ، مما يلائم الشعوب فى طفولتها فقط ، وهو لون ظل سائدا حتى القرن السابع عشر ، ووجدت فيه إقبالا وشهرة ، ولكنها مع القرن الثامن عشر بدأت تأخذ شكلا جديدا ، ظلت ترتديه حتى نهاية القرن التالى له ، ومع ذلك فبين الأعداد الهائلة من الروايات التى نشرت فيهما ، شرقا وغربا لم يقاوم الفناء ، ويفرض نفسه على ذاكرة الزمن ، غير عدد محدود .

● ● ●

وقد اختلف النقاد حول المكان الذى نشأت فيه الرواية ، ثم شرقت وغربت من بعد ، وحاولوا أن يبحثوا عن جذورها فى المزاج الانسانى ذاته ، ذلك أن المرء خلق بطريقة يحب معها أن يخرج من نفسه ، وأن يهجرها كى يرتبط بأشياء أخرى ، وبخاصة فى اللحظات التى يطحنه فيها واقع الحياة ، ولديه امكاناته ، والخيال

أعظمها ، وأكثرها إلحاحا ، وأطوعها استجابة ، فلجأ إليه ، ليفتح له آفاق اللانهائية ، حتى يسعد بالسياحة فيها ، ونهما إلى التصور ، وإلى ماهو رائع ، يمضى يلتقط الجمال فى حقول الخيال ، وعطور خفية ومجهولة تبعث فيه النشوة ، والشرق بطبيعته موطن الأحلام ، وهكذا يمكن القول إن الروايات الأولى ولدت فى المشرق ، ولم تكن خيالا خالصا ، ولا منتزعة من الاساطير ، وشهرزاد الغلبانة فى ألف ليلة وليلة كان عليها أن تسلى سلطانا طاغية ، وسيف مصلت على رأسها ، فتربط الحكايات الطويلة والمتعددة بخيط رفيع ، ولكنه متواصل وخلال ذلك تداعب فكر الطاغية وتهدهده ، تنسيه أولا ، ثم تدفع بالراحة فى شرايينه ، تغزوه ببطء ، حتى تستسلم روحه لنوم لذيذ .

أما الغرب فعلى النقيض .

الانسان أكثر جدية واهتماما بقدره ، ويعتقد أنه صانعه ، ويشغل الوهم فى حياته مساحة أقل ، ويتطلب فى الخيال أن يكون له صلة بالواقع ، ومن هنا جاءت الرواية عنده إما لوحة مثالية للمجتمع كما يتمناه ، أو صورة دقيقة له كما يراه ، وما يعتمل وراءه من صراعات اجتماعية واقتصادية ، وإن شئت القول : أن تجىء الرواية فنا مستقلا ، أو واقعية خالصة ، ملتزمة أو بريئة من الألتزام .

لقد استغنى الاغريق بما اخترعوا من ديانات وصنعوا من آلهة ، وصاغوا من ابطال ، عن خيال يرسمون به الواقع ، وكان الرومان شعبا يعمل ولا يحلم ، وبتأثير أغريقى حاول أن يصنع لنفسه تاريخا أسطوريا ، أما الشرق فكان مهد الحكاية والرواية والخيال البعيد .

يرد النقاد إقبال القراء فى عصرنا الحديث على الرواية إقبالا شديدا ، حيث تلاشت الفروق بين الانواع الأدبية أو كادت ، إلى اطارها السهل الذى يوائم كل الموضوعات ، ومختلف ألوان التأليف ، وشتى الاساليب ، فمادتها تسع الفرد والمجتمع والطبيعة ، مرورا بكل الأحاسيس من أبسطها الى أعمقها ، ومن أشدها سخرية الى اعظمها نبلا ، ونحن فيها ، ومعها ، نخرج من أنفسنا ونعيش فى غيرنا ، ونهرب من قيودنا ونقرأ تاريخ شخصيات صنعها الخيال لكى نعرف أنفسنا على نحو أفضل ، ونتعلم كيف نعيش ، ولنكون كما نحن ، وليس أجمل من أن ترتد الى الماضى ، وتتبين كيف أمضيت طفولتك فى زمن ضاع الى الابد ، وأن تمد خيالك الى الغد ، وترسم بطريقة مناسبة ما تأمل أن يكون عليه مستقبلك .

تتسع الرواية لكل الاساليب ، فليس ثمة أسلوب يمكن أن نطلق عليه الأسلوب الروائى ، فهى تتسع لاسلوب الملحمة والاسلوب الغنائى والخطابى والتاريخى ، وأى منها ممكن تبعا للموضوع والمؤلف ، وفيها النثر المنمق الذى تكتب به الرسائل ، واللغة العادية البسيطة التى تستخدم فى الحديث ، والألفاظ القارصة التى تستعمل فى الهجاء ، وفيها أيضا الصور الجريئة ، والألوان الصارخة ، والفقرات الواسعة ، والجمل الطويلة ، وهى تحاول كثيرا أن يكون الشعر بلا وزن ولا قافية .

وتهتم الرواية الحديثة بكل أنواع المشكلات ، أخلاقية أو اجتماعية ، كما هو الحال عند الكاتب الايطالى المعاصر فاسكو براتولينى أو نجيب محفوظ ، وباكتشاف عوالم داخلية جديدة على نحو ماتجد عند كافكا وبروست ، وقد تنخل المشاعر بطريقة رائعة لتلتقط الألوان والظلال ، كما فى روايات فرجينيا وولف ، وهنرى

جيمس ، والطيب صالح ، وغادة السمان ، أو بأن تصبح وعاء لمحتوى ثقافي رفيع كما نجدها عند هيكسلي ، أو أن تبرز ماهو عبثي كقوة بدائية وحيدة كما هو الحال عند لورنس ، أو ترى في الحب الانساني شيئا روحيا يحملنا نحو الله ، كما هو عند مصطفى صادق الرافعي ، أو شارل مورجان ، أو مجرد دفع شهواني وحيواني كما هو عند هنري ميللر واحسان عبد القدوس ، مع تفاوت في التعبير ، صراحة زائدة عند الأول ، والمام وايحاء فحسب عند الثاني ، تبعا لضواغط البيئة التي يتحرك فيها كل واحد منهما .

ولما كانت الرواية غير محددة الاطار ، ولا ثابتة القواعد ، فقد عرف الادب منها أنواعا مختلفة ، وبداهة لن نعرض منها هنا إلا الرواية البوليسية وما يتصل بها فهي التي تعنينا .

يمكن القول إن اقدم أنواع الرواية هي رواية المغامرات ، وهي نسيج من أعمال تنطوي على كثير من المفاجآت والمباغتة ، والأحداث التي تشتمل على الأعاجيب ، وتهدف إلى أن تشبع مافينا من ذوق يميل إلى غير ما اعتدناه والى ايقاظ المخيلة والتأثير فيها ، وتغلب منها الحبكة الجيدة ، وتشابك الوقائع ، والاهتمام بالحدث ، وتتطلب نموا خياليا ملحوظا ، وقيمتها الأدبية متواضعة غالبا .

وقد تطورت رواية المغامرات إلى رواية الفرسان ، فالى الرواية الدعوية ، وهذه الى رواية الصعلكة ، ثم رواية الرعب ، ووجدت هذه اقبالا شديدا في نهاية القرن الماضي ومطلع هذا القرن ، وهي أنجليزية في أصولها القريبة ، وأسهم في خلقها بقوة الكاتب الانجليزي هوراس ولبول (١٧١٧ ـ ١٧٩٧) حين نشر روايته « حصن أوترانت » ، وفيها توجد الأبواب المحاصرة ، والممرات الخفية ، والمداخل السرية ، واستغل الروائيون المحدثون تقنياته على أوسع نطاق ، وأخذت طريقها إلى الذيوع والانتشار ، وعلى

تقنية هذه الرواية قامت الرواية البوليسية ، وحديثنا عنها تفصيلا فى الفقرة التالية .

الرواية البوليسية

تعود الرواية البوليسية الى اصول بعيدة جدا ، تضرب فى أعماق الآداب المشرقية بعامة ، والأدب العربى بخاصة ، وسبق أن عرضت لهذه الأصول فى مقال بمجلة « الهلال » ولكن النقاد المحدثين يعودون بها فى عصرنا الحديث الى القصاص الامريكى إدجار ألن بو (١٨٠٩ ـ ١٨٤٩) ، ولو أن ماكتبه فى هذا المجال كان قصصا قصيرة وليس روايات .

وقد انتقلت الى اوربا على يد الكاتب الفرنسى إميل جابوريو (١٨٣٢ ـ ١٨٧٣) ، حين نشر روايته « القضية الحمراء » عام ١٨٦٦ ، فلاقت نجاحا واسعا ، أغراه بمواصلة الكتابة فى هذا اللون من الروايات ..

غير أن الرواية البوليسية ازدهرت فى بريطانيا ، ولاقت هوى فى نفوس الانجليز ، وأرسى قواعدها نخبة من كبار الكتاب ، أمثال أرثر كونان دويل (١٨٥٩ ـ ١٩٣٠) ، وكان هو الذى أبدع شخصية المخبر شارلوك هولمز الشهيرة ، ودفع بها الى الوجود لأول مرة فى روايته « غرفة المطالعة ذات اللون القرمزى » ونشرها عام ١٨٨٧ م ، وجاءت بعده دورثى سايوز (١٨٩٣ ـ ١٩٥٧) ، وكان مخبرها السرى هو اللورد بيتر ومزى ، ثم أجاثا كريستى ومخبرها بوادو ، وأبدع الكاتب ايان فلمنج (١٩٠٨ ـ ١٩٦٤) سلسلة روايات جيمس بوند ، ووجدت فيها السينما غايتها ، فحولت كثيرا منها إلى أفلام لاقت نجاحا كبيرا

يتسع تصنيف الرواية البوليسية لألوان كثيرة متنوعة ، وقد اختلطت الى حد كبير بالجنس والسادية ، ونقلها الكاتبان الانجليزيان جيلبين شلسترون (١٨٧٤) ، والمعاصر جراهام جرين إلى عالم الميتافيزيقا ، رمزا لحالة الانسانية التى تحاول دون توقف أن تحل مشكلة أسرارها ، وأضفى سيمنون الذى نعرض له بالدراسة هنا ، أهمية أكبر على العنصر النفسى ، وبلغ فى ذلك حدا كبيرا من الاجادة والاتقان ويغلب الآن عند بيتر شينى ، وهيتشكوك ، وإيدى كونستانتين ، استخدام الفكاهة ، فى الرواية المكتوبة وفى السينما عند إخراجها فيلما ، لاضفاء مسحة من الانسانية على عقدتها ، والخروج على بعض التقاليد المعتادة ، لكسر الرتابة والجمود ، فى بناء العمل الفنى ، وفى حركة الحياة اليومية على السواء .

والرواية البوليسية ذات طابع فكرى ، وتعنى بحل مشكلة تبلغ حدا للغز أحيانا ، وتخضع لمبدأ مقرر عالميا ، وهى أن المجرم يجب أن يقبض عليه وأن يحاكم وأن ينال جزاءه ، ولو أن الاعجاب بعبقرية المجرم ينتهى بالقارىء أحيانا الى التعاطف معه .

وبنية القصة البوليسية مقننة ، وتتيح للقارىء الواعى المتمرس أن يشترك فى التحقيق ، وأن يتوصل الى الجانى ، وأن يكشف عن وسائل تنفيذ الجريمة قبل أن يكشف عنها المؤلف فى الفصل الأخير من الرواية ، وأوجز الكاتب الانجليزى أوستن فريمان (١٨٦٢ ـ ١٩٤٣) ، وكان طبيبا فى غانا ثم تفرغ لكتابة الروايات البوليسية بعد ان أصبح كسيحا ، هذه البنية فى المراحل التالية :

- الاعلان عن وقوع الجريمة ، أو طرح المشكلة .
- تقديم البيانات الضرورية اللازمة للكشف عن الجريمة .
- إجراء التحقيق والوصول إلى الحل .

● مناقشة عناصر الحل ، وتوضيح كيفية وقوع الجريمة .

تعمل الرواية البوليسية ، قبل أى شىء ، على إرضاء ذكاء القارىء ، وأن تصبح لعبة عقلية ، تتيح له متعة تجريدية ، وغايتها أن تبرهن على أن تظهر ، وأن تبتعد قليلا من الفن الروائى الخالص ، وأن تقترب كثيرا من الرياضيات ، وأن تشرك القارىء مع المؤلف فى هذه المعركة الذهنية ، فهى أشبه بلعبة شطرنج ، أو حل الكلمات المتقاطعة ، القارىء لها ليس متلقيا مستمتعا فحسب ، كما هو الحال فى الرواية العادية ، فهى لعبة بين طرفين : المؤلف والقارىء ، ولكنها مع ذلك تنضح بانسانية تعانى ، وتتلوذ بالرعب والقسوة والجنس .

ما الذى يبحث عنه القارىء حين تجرى عينه على صفحات رواية بوليسية ؟ يتوقع أن يجد جريمة ما ، وأن هناك غموضا يلفها : المجرم والدوافع والوسائل التى استخدمها فى تنفيذ جريمته ، وأغلب هذه الجرائم أن تكون قتلا ، وأهم شىء فى الرواية اللغز الذى يضعه الكاتب أمام القارىء ، وكل شىء فيها يخدم واقع أن القارىء فى امكانه أن يتنبأ بالمخطىء ، وفى الوقت نفسه سوف يكون الحل الأخير مفاجئا ، لأنها تهتم فى العمق بالمزج بين الغامض والواضح ، والمستحيل والممكن ، والخارق والطبيعى ، وبهذا تعرض الكفاح الخالد بين عنصرى الفوضى والنظام .

فى نطاق الرواية البوليسية نجد لونين مختلفين تقنيا ، وهما : رواية الرعب ورواية العنف ، وهذه الأخيرة يسميها الفرنسيون الرواية السوداء ، وهى تركز على العنف من المجرم والمخبر على السواء .. وأما الأولى فترمى الى تصوير الهلع الذى يسيطر على الضحية وهو إنسان برىء ، والتمييز بينها وبين القصة البوليسية

العادية دقيق جدا ، لأن هذه محورها أسئلة : من ؟ ولماذا ؟ ومتى ؟ على حين تركز قصة الرعب على الطريقة التى تم بها ارتكاب الجريمة .

وترتبط الرواية البوليسية الآن ارتباطا وثيقا بنوعين أدبيين تفرعا عنها ، وهما : رواية التجسس ورواية الخيال العلمى ، والأولى أقرب الى رواية المغامرات ، وفيها يختلط الامر بين الجواسيس ومن يقاومونهم ، ويكثر عددهم ، ويحول ذلك دون الفصل المطمئن بين الطيبين والأشرار منهم ، وقد يبلغ الحال (فى الرواية طبعا) أنهم لايعرفون هم أنفسهم من هم حلفاؤهم ، ومن هم خصومهم ، ولا من يخدمون على التأكيد ، ويأخذ ذلك كله طابعا خياليا ، ذو كوابيس قاتمة ، تقترب بها من عالم كافكا الروائى ، وتتأرجح مع ذلك بين الفكاهة والعبث النهائى ، والمثل الواضح لهذا اللون رواية « رجلنا فى هافانا » للروائى العالمى جراهام جرين .

ولاتزال رواية الخيال العلمى تواصل نجاحها العلمى ، لان المرء المتوسط الثقافة ، عندما يسرح خياله عبر الانجازات التقنية المعاصرة ، مهيأ لان يصدق كل مايقص عليه ، وهذا النوع من الروايات يسرقه عادة من واقعه المؤلم ، ويمكن أن نفرق فيه بين لونين : الروايات غير الصادقة علميا ، وتلك التى تحاول ما أمكنها أن تنضبط مع الحقائق العلمية التى بلغها عصرنا ، وهى المقبولة فنيا وعلميا ، لأنها تقدم فى العمق بعضا من الحقائق العلمية وتعمل على اشاعتها .

ويمكن أن نعد من روايات الخيال العلمى تلك التى يحلم أصحابها بالمدن الفاضلة ، التى يسود فيها الأمن والعدل والنظام ، وكل شىء فيها موظف لخدمة الانسان ، وهى رسالة موجهة الى رجل عصرنا أكثر منها رواية خيالية علمية ، وربما كان أشهرها

رواية جورج أوريل التى تحمل عنوان « ١٩٨٤ »و « عالم سعيد » لألدوس هيكسلى .

يجد القارىء فى الرواية البوليسية بأنواعها المختلفة ، وسيلة مناسبة للتسلية النظيفة المريحة ، ورخيصة الثمن ايضا ، يهرب اليها من هموم الحياة وأعبائها ورتابتها ، وبخاصة أولئك الذين يعملون ساعات طويلة فى مهن لايحبونها ، ولا يجدون فيها انفسهم .

وهى أكثر الكتب رواجا وترجمة فى العالم فمادام هناك إناس يسافرون ، وقطارات تتحرك ، وطائرات تقلع ، ومحاط ومطارات ينتظر فيها المسافرون ، ووقت يمر دون قدرة على الحركة ، يظل الناس دائما فى حاجة ملحة الى هذه القراءة الخفيفة والجذابة معا .. وفى إحصائية أخيرة لليونسكو عن الكتب الأكثر ترجمة الى لغات العالم المختلفة ، نجد مؤلفات الروائية البوليسية أجاثا كريستى تجىء الثالثة فى الترتيب ، بعد أعمال لينين وتولستوى مباشرة .

والحق أن النقاد يولونها ـ ظلما ـ أهمية أقل ، ولكن من المؤكد أن علماء الاجتماع سوف يولونها فى المستقبل أهمية أكبر ، حين يحاولون التعرف الى رجل القرن العشرين .

● ● ●

ازدهرت القصة البوليسية فى اللغة الانجليزية بدءا ، لأنها توافق المزاج الانجلوساكسونى من جانب ، إذ هو قادر على إخفاء عواطفه ، وكتم مشاعره ، وقد يرسم على شفتيه ابتسامة أخاذة ، وتجرى على لسانه العبارات المعسولة ، على حين يضمر فى أعماقة الأذى ، وينوى الشر والغدر ، ولأنها ـ من جانب آخر ـ جاءت لتعبر عن رغبة الطبقتين العليا والوسطى فى المجتمع

البريطانى فى قيام نظام اجتماعى هرمى ثابت ، وقوة شرطة فعالة وحازمة لحراسته ، إلى جانب العوامل الاجتماعية الأخرى التى مهدت التربة للرواية بعامة .

ولكن ذلك لايعنى أن الأدب الفرنسى قد تخلف عن اللحاق بهذا النوع الأدبى الجديد ، والفرنسيون حريصون دائما على مكانتهم الثقافية فى اوربا بخاصة والعالم بأجمعه . وقد ألمحنا فى البدء الى ان الكاتب الذى جاء بالرواية البوليسية من امريكا الى اوربا ، ونقل تقنية ادجار آلن بو مبدعها الأول فى عصرنا الحديث كان فرنسيا ، وهو إميل جابوريو ، ونضيف إلى ذلك أن الشاعر الفرنسى الشهير بودلير هو الذى ترجم اعمال بو إلى اللغة الفرنسية فى اسلوب أدبى رائع ، جعل فيها أصلا ثانيا ، وجذب اليها كافة من يقرأون بالفرنسية .

وبعد إميل جابوريو جاء جاستون لوجو (١٨٦٨ ـ ١٩٢٧) ، وبيير فيرى (١٩٠٠ ـ ١٩٦٠) ، وكان فى الأصل وراقا ثم تحول إلى روائى ، وبرز فى بلجيكا باللغة الفرنسية ، إ . سيتمان (١٩٠٧ ـ ١٩٧٠) ، وآخرون كثيرون ، وذاعت فى فرنسا بين الحربين العالميتين على نحو واسع ثلاث سلاسل ، اختصت بالرواية البوليسية : القناع ، وتأسست عام ١٩٢٧ ، ونشرت حتى عام ١٩٧٥ أكثر من ١٣٥٠ رواية ، تطبع من كل واحدة ، فى المرة الواحدة ، ٢٥ ألفا ، والنهر الاسود ، ثم السلسلة السوداء ، وهذه الأخيرة أوسع الثلاث انتشارا ، وتصدر عن دار جاليمار الشهيرة وكان يشرف عليها الكاتب والصحفى ، داشيل آميت (١٨٩٤ ـ ١٩٦٣) ، وسميت بالسوداء ، نسبة الى غلافها ، وإلماحا الى محتواها .

وقد أوجز الناقد مارسيل دوهاميل على غلاف رواية « القياصرة

يموتون أيضا » غاية هذه السلسلة ، وخصائص أدبها ، ومنهجها فى النشر ، يقول :

« على المبتدىء أن يأخذ حذره ، فأنت لاتستطيع أن تستسلم لروايات السلسلة السوداء ، دون أى خطر ، فمن يبحث فيها عن اسرار شرلوك هولمز لن يجد دائما مايسره ، ومثله المتفائل دائما . وفى هذا اللون من الروايات مسموح بالمواقف غير الأخلاقية ، بعامة ، لغاية وحيدة : أن نضعها فى مواجهة مع الاخلاق السائدة ، وهنا نجد الأبواب مفتوحة على مصاريعها والشىء نفسه يمكن أن يقال عن الفضائل الكبرى أيضا ، وحتى الاشياء البسيطة والتى لايمكن أن تنسب الى الفضائل أو الرذائل ، وايقاع الرواية نادرا مايوافق دين الدولة ، وفيها سوف نجد رجال شرطة أكثر فسادا من العصابات التى يلاحقونها ، والمخبر اللطيف قد لايكتشف الغموض ، وأحيانا لايوجد غموض أصلا ، وفى بعض الحالات لا يكون هناك سر ما يتطلب كشفا .

« إذن ماذا ؟

« يبقى الحدث والتعاسة والعنف ، والقسوة والمذابح ، كما هو فى الأفلام الجيدة ، والمواقف الحماسية مترجم إلى واقع ، وعشاق التأمل الباطنى عليهم أن يبدأوه عكسا ، والعواطف المنفلتة ، والاحقاد العنيفة ، والمشاعر التى يعتبرها المجتمع شذوذا سوف تجدها هنا شائعة تماما ، وتعبر عن نفسها أحيانا فى لغة لاترضى عنها الأكاديمية ، ووراء الدوافع دائما ، وردية أو سوداء ، توجد الفكاهة بأجلى معانيها .

« باختصار ، غايتنا بسيطة : ألا نجعلك تنام ، ومن يبحث عن الاثارة الجادة فإنى أنصحه أن يقرأ هذه الروايات ، حتى لو وجه الىّ بعد ذلك أقذع ألوان السباب والشتائم ، فقد اختار بالصدفة

أسهل طريقة لكى يقضى ليلته سهران يقظا .

ظلت الرواية الفرنسية غير قادرة على مزاحمة الرواية الانجليزية ، امريكية أو كتبها بريطانيون ، وبقيت تتحرك مثل غيرها ، في نطاق الجريمة والعنف والسادية والجنس ، إلى أن جاء بلجيكى لغته الفرنسية ، فتقدم بها الى الأمام خطوات هائلة ، ووضعها في مصاف أرقى ما أبدعه الأدب الانجليزى ، وخرج بها من الاطار المتعارف عليه ، وأضاف اليها التحليل النفسى ، مستفيدا الى ابعد حد مما كتب فرويد ويونج وأدلر وآخرون ، وفاق الجميع غزارة انتاج ، ووفرة قراء ، وكثرة ترجمات ، فبهر الدنيا وشغل الناس .

كان ذلك الكاتب هو جورج سيمنون ، صاحب الرواية المنشورة رفق هذه الدراسة بشرا ، وقبلها سوف نعرض له انسانا او كاتبا مبدعا ، وكيف يراه الآخرون ! ..

سيمنون إنسانا

أشهب الخيال ، له وجه طفل معاقب ، وعينان صغيرتان جدا ، ومستديرتان ، ولاتستقران على حال ،

نفى نفسه فى حياته العائلية ؛ وهو يفضلها على التردد على أوساط لم يسع اليها ولم تفكر فيه .

يحب ان يتسكع ، وان يضرب فى الشوارع على غير هدى ، ولابأس أن ينصب آلته الكاتبة فى أى مقهى ثم يأخذ فى الكتابة .

وقد أغضب الناس جميعا ، فى أى مكان أقام فيه ، الطبقة العليا والدنيا على السواء ، ببوهميته ، وإسرافه فى النساء والشراب ، وخصوبة كتابته ، ويبدو دائما منهك الأعصاب يطل من عينيه حزن نبيل .

ويشعر بالسعادة فى أى مكان من العالم، لأنه قادر على التجاوب مع كل الناس بلا صعوبة ـ ولايحمل لأى انسان فى العالم احتقارا أو كراهية ، لأنه يرى الناس سواسية ، فى فضائلهم ورذائلهم ، يتفاوتون فيما يأخذون من جرعاتها ، وفى النهاية كلهم شركاء ، لا أحد مجرد تماما من هذه او تلك .

وهو لايقرأ السير التى تكتب عنه فى دوائر المعارف المختلفة ، لأنها دائما تضفى عليه صفة العبقرى ، وهو لايرى نفسه كذلك ، ولأن الجانب الأكبر منها في لغات لايعرفها فيما يقول . ولم يعتبر نفسه روائيا عظيما أبدا ، ولكنه رجل يكتب روايات كثيرة ، وعادة لايقرأ مايكتب غير مرة واحدة ، ليصحح ماهو ضرورى ، ومن النادر أن يقرأ النقد الذى يكتب حوله أو عن رواياته .

وهو عازف عن الشهرة ، لايعتقد فيها ، ولايسعى اليها ، وإن جاءته تحبو ، ولاتعنيه الامجاد الرسمية فى شىء ، وحين سعى الكاتب الفرنسى فرانسوا مورياك أن يحصل له على الجنسية الفرنسية ، الى جانب جنسيته البلجيكية ، حتى يستطيع دخول الأكاديمية الفرنسية لأنها شرط فى عضويتها ، شكره على المحاولة ، وأدار لها ظهره .

إنه فيكتور هيجو ، أو هكذا يلقبونه ، يكتب تحت شجرة أرز ، ويتدفق كالنهر العظيم حاملا كل شىء ، الصدف ، والدر ويكون متجددا نظيفا مرة ، وراكدا آسنا مرة أخرى ، ويجمع بين اللطف والجهامة ، ورقة الشعر وعامية التعبير ، وهو أنانى واجتماعى ، وفردى ومشارك ، وكل هذه الخصال مجتمعة تصنع كاتبا عظيما ، ووراءها :

● أصول متواضعة :

رأى سيمنون الحياة لأول مرة فى مدينة لييج ، فى الشمال

الشرقى من بلجيكا ، وهى مدينة قديمة ، متوسطة السكان عددا ، تقع على مقربة من هولندا وألمانيا وتمر بها نهيرات عديدة ، وتضم عددا من المنشآت الكبرى ، جامعة ومتحفا وأوبرا ، وبعض الأديرة الاثرية ، وعددا من القصور القديمة ، وموانى تقوم على الانهار التى تخترقها ، أو تجرى قريبا منها ، وهى من مراكز صناعة الحديد والمعادن والزجاج والكيماويات .

كان ينتمى أبا وأما إلى بسطاء الناس وفقرائهم ، وظل طول حياته ، حتى بعد أن تدفق المال بين يديه وفيرا ، لايجد السعادة إلا فى لقائهم والجلوس إليهم دوما ، ويردد دائما : لقد جئت من أصول فقيرة .. أكثر من فقيرة !

ولد الابن فجر يوم ١٣ فبراير ١٩٠٣ ، ولكن أمه كانت تتشاءم ، كعادة الأوروبيين ، من هذا الرقم فقدمته يوما ، وقيدته فى سجلات البلدية على أنه من مواليد يوم ١٢ ، وهكذا عمد مجيئه إلى الحياة بعملية تزوير .

كان الأب يعمل فى سوق الدواجن ، والأم بلا مهنة ، والصبى يتردد على المدرسة الابتدائية ، ثم توقف عن التعليم بانتهاء المرحلة الابتدائية وقيام الحرب العالمية الأولى ، وقد جاءت معها بالمجاعة لكل الناس ، وكانت على الفقراء ، أشد قسوة ، وأصبحت مسئولية الأم أن تحسن توزيع القليل من الخبز والبطاطس اللذين تحصل عليهما بالبطاقة على ايام الاسبوع ، وذات يوم فاجأ الابن أباه متخفيا ، يأكل بيضة واحدة وحده ، فى غفلة من أبنائه ، فاهتزت ثقته فيه ، بعد أن كان يحبه كثيرا ، وفقد كل احترام له .

وفى تلك الفترة من حياته مراهقا ، وبلا عمل ثابت ، ولا حياة مريحة ، ولا دراسة محددة ، بدأ جورج وكان هذا اسمه ، يعمل اشياء كثيرة باليومية ، ألحقته أمه بمخبز ، لأنها رأت فى المنام أنه

سوف يصبح حلوانيا شهيرا ، وبقى فيه ثمانية ايام ثم فارقه ، والتحق صبيا فى مكتبة ولكنه لم يحترم مواعيد العمل فطرده صاحبها ، وهكذا ينتقل بين حرف عديدة ، وخلال ذلك كله عبث كثيرا بالفتيات ، وأسرف فى الجنس ، وكان الشىء الوحيد الممتع المتوفر له بلا مقابل ، والى جواره شىء آخر بثمن ، ولكنه ثمن رخيص للغاية ، وحتى يمكن الحصول عليه اقتراضا ، أو استعارة ، وهو القراءة ، فأقبل عليها بنهم لايقل عن ولعه بالنساء .

فى الثالثة عشرة من عمره ، وفى أتون الحرب العالمية الأولى اكتشف الروائيين الروس العظام : جوجول ودوستويفسكى وتشيخوف ، وسوف تلعب دورا كبيرا فى توجيهه ، وتظهر آثارها واضحة فى رواياته من بعد ، وكان آخر الثلاثة أعظمهم تأثيرا فيه ، ربما لأنه يعرض فى رواياته للجانب الاجرامى فى حياة البشر فى حياد وموضوعية .

ومن بين أدباء الفرنسية كان معجبا الى حد بعيد بمارسيل بروست ربما لأنه بلغ بالرواية النفسية أبعد أعماقها ، وبعد مرحلة الروايات جاء علم النفس ، وازدهر كثيرا بعد الحرب وأثناءها فأخذ يقرأ بنهم مؤلفات كبار علمائه : فرويد ، ويونج ، وأدلر ، ولم يقف بثقافته عند العلوم الانسانية وحدها ، وانما تجاوزها الى العلوم الطبية ، من سموم وتشريح وغيرها .

ولم يكن له منهج معين فى القراءة ، وانما يلتهم كل ماتقع عليه يداه ، ولو أنه كان أميل بعد الروايات الجيدة إلى قراءة المذكرات والاعترافات وكان دوستويفسكى فى رسائله أقرب الى قلبه منه فى رواياته .

وفى تلك الفترة من حياته عمل صحفيا فى جريدة جازيت دى لييج ، يتردد على اقسام الشرطة ، ويتابع إخبار الحوادث ، وذات

ليلة من عام ١٩٢٢ أخذ القطار إلى باريس ، ولم يكن معه شيء من الفن أو المال أو الشهرة ، ونزل فى حى مونبرناس ، وسكن غرفة فى أحد السطوح ، تلك التى يعرفها جيدا جمهور الفنانين والطلاب والغرباء الذين يفدون على العاصمة الشهيرة ، وهى عادة منخفضة السطح ، فإذا تحرك ليلا ، قبل أن يشعل النور اصطدمت به رأسه .. وكان سعيدا بهذه الحياة ، فقد كان يعيش بين قوم حياتهم التواضع شخصا يسير على قدمين .

وخلال الثلاثينيات عمل صحفيا من مستوى جديد وجيد ، قابل تروتسكى فى منفاه ، وأجرى معه حديثا لصحيفة بارى سوار ، وكتب فى مجلة « فوالا » مجموعة من الاستطلاعات الصحفية الجادة حول أفريقيا حين كانت كلها تقريبا مستعمرة أوربية ، وهى سلسلة كانت تعلوها دائما جملة شهيرة اتخذ منها شعارا : « نعم ، إن أفريقيا تتحدث الينا ، وتقول لنا : طظ ، وحسنا فعلت » .

ومع الصحافة والابداع والشهرة تدفق عليه المال من كل جانب ، فانتقل بعد ثلاث سنوات فقط ، أى فى عام ١٩٢٥ الى ميدان فوزج الشهير ، وبدأ يعيش حياة برجوازية مترفة ، فأقام فى شقته بارا ، يتوارد عليه أصحابه من كل باريس ، ويظلون يشربون ويتناقشون فى الأدب حتى الرابعة صباحا ، ثم ينامون ، ويظلون حتى منتصف النهار ، والوحيد الذى كان يستيقظ فى وقته المحدد ، ويجلس امام ماكينة الكتابة ليكتب كان هو : سيمنون .

● رحالة لا يكل :

كان دائما مولعا بالرحلة ، ولم تكد الحياة تبتسم له حتى اشترى زورقا ، ودشنه فى حفل عظيم تولاه خورى كنيسة نوتردام أكبر وأشهر كنائس باريس ، وعلى ظهره ، وظهور قوارب أخرى بعده ،

عبر كل قنوات فرنسا ، وشمال اوربا ، وفوقها كتب أوائل رواياته الكبرى ، وهو يتأمل الطبيعة ويلاحظ حياة الناس ، وبعدها اتجه الى البحر الابيض ، وبدأ الرحلات الطويلة ، فى افريقيا السوداء ، والكونغو من بينها بخاصة ، وأمريكا الجنوبية ، وتاهيتى ، واستراليا .

كان فى رحلاته عبر القنوات يبحث عن الوجه الحقيقى للمدينة او القرية بجانب الماء لا بجوار الطرق ، وفى رحلاته البعيدة لايبحث عن المغامرة أو الاشياء الغريبة ، وانما يبحث عن الانسان ، الانسان الفطرى ، او كما يقول هو : « كنت ابحث عن نفسى » .. وقد رحل على امتداد كل فصول العام ، وعاش فى باريس ، وفلوريدا ، والأريزونا ، وأنقرة ، وعاش بين سكان القطب الشمالى ، وهنود البرازيل ، وزنوج خط الاستواء . ونادرا ماكان يمضى فى المكان الواحد أكثر من عام .

وبلغ به حب الرحلة حد الهوس ، وقد يبلغ به الحال أن يأخذ فى الساعة العاشرة مساء ، أو حتى بعدها ، سيارة أجرة مع زوجته ، ويذهبان الى مطار بورجيه ، ويأخذان الطائرة الى اى مكان فى العالم يقع فى خاطره .

● زوجتان وعشيقة :

لعبت المرأة انسانة وأنثى دورا مؤثرا فى حياة سيمنون ، فهو يحبها ويقدرها وظل مشدودا اليها حتى بعد ان تقدمت به السن ، وكان يرى أن اتصاله بها ، حتى لو كانت مجهولة ولو لوقت قصير ، يمنحه سعادة بلا حدود ، وعندما كان شابا ظل على الدوام يردد قول الشاعر الانجليزى بايرون : ليت للنساء جميعا فم واحد ، إذن لقبلته واسترحت .

وقد أسرف فى مغامراته شابا دون أن يفكر فى الغد ، ورأى فى

هذه الحياة العاطفية المتنقلة المتقلبة بهجة عظيمة ، وهو يشعر بدونها أنه سجين المجتمع ، ولم يكن يعنيه من أى طبقة هذه المرأة التى يشتهيها ويلاحقها ، ويعيش معها حين تستجيب له أياما أو ساعات . فقد يغازل طباخة عند اسرة أو مربية أطفال ، أو ساقية فى حَان ، أو راقصة فى ملهى ، أو موظفة فى مؤسسة ، او طالبة فى الجامعة ، او سيدة مجتمع ، ويتعامل معهن جميعا فى رزانة ووقار واحترام ، وفى اى مكان ، فى بيته أو مكتبه او فى فندق لايهم ، كما لا يعنيه ان تكون اوربية او زنجية ، شريفة أو مومسا ، وهو يكره هذه الكلمة الأخيرة ، ويؤثر عليها كلمة « محترفة » ، والمهم فى كل الأحوال أن تكون جميلة .

وقد عرف مئات النساء غير زوجاته ، وكلمة الحب عنده بمعناها العاطفى الدقيق أقل الألفاظ ورودا فى روايته وله فى ذلك فلسفة محددة يصدر عنها ويرى من خلالها أن لحظة الاندماج بين الرجل والمرأة تمثل الحياة بجانبيها ، أخذا وعطاء ، وأنه معها يرتشف سر الكون فى عنفه وفورانه ، وأن التعمق فى فهم الانسانية والاحساس بها يمر من خلالها .

ورغم هذا تزوج مبكرا ، فى سن فتية .

● ● ●

تعرف اليها وهو فى السابعة عشرة من عمره عام ١٩١٩ ، التقى بها فى حانة صغيرة ، يتردد عليها الفنانون المبتدئون ، هو يعمل صحفيا ، وهى رسامة ، فتاة من لييج نفسها ، شقراء مبتسمة ، تقص شعرها على طريقة الرجال ، وبعد عامين من معرفتها ، او خطبتها اذا شئت ، تزوجها وسوف تصحبه فى رحلته الى باريس .

صحبت تيجى زوجها فى كل رحلاته العريضة والواسعة ، عبر العالم كله ، وبدأت تشتهر رسامة بدورها ، ثم اكتشفت أنه يخونها

مع امرأة شبقة ، وأحست متأخرة ، في عام ١٩٣٩ ، أنه كان يحب أن تعطيه ابنا ، وأنها ضنت عليه بهذا ، وهكذا جاء ابنهما الوحيد مارك بين الفوضى العاطفية التى تسود حياة والديه قبيل الحرب العالمية الثانية .

كانت تيجى تغفر لزوجها صلاته بنساء مغمورات لا أهمية لهن ، ولكنه خلال الحرب العالمية الثانية ارتبط بالراقصة الزنجية العالمية جوزفين بيكر ، وكانت دنيا عريضة من الشهرة والمجد والنفوذ ، فلم تصبر على هذه الصلة ، وبدأ الخلاف بينهما يتسع ويقوى ، وبعد الحرب قرر سيمنون أن يذهب الى الولايات المتحدة عام ١٩٤٥ ، ولم تذهب تيجى معه ، وانما حملت ابنها ورحلت الى مدينة فندى فى فرنسا ، وفى الولايات المتحدة نسيها تماما ، وتمزقت العلاقات بينهما كلية ، وأخذ سيمنون طريقه الى امرأة أخرى ، وطلق تيجى رسميا عام ١٩٥٠ ، وقد امتدت بها الحياة طويلا ، ونشرت ذكرياتهما معا فى كتاب مصور ، تركت الصور وحدها تتحدث عن علاقتهما ، وزارها سيمنون فى بيتها عام ١٩٨٢ واستعاد معها ذكريات الايام الأجمل فى حياتهما ، وبعد ذلك بسنوات ثلاث رحلت عن الحياة .

● ● ●

فى نيويورك التقى سيمنون بزوجته الثانية ، وكانت فتاة كندية ، تتكلم الفرنسية ، لأنها أصلا من فرنسا وهاجرت أسرتها الى كندا ، واسمها دنيس كيميه ، وقد تزوجها رسميا عام ١٩٥٠ ، وعندما عاد الى فرنسا جاءت معه ، وسوف تكون حياتهما موزعة بين باريس والرحلة وسويسرا ولييج فى أحايين قليلة ورغم انه رزق منها بأطفاله الثلاثة الأخرين مارى جو ، وجون ، وبيير ، فقد ظلت حياتهما ، واستمرت خمسة عشر عاما متوترة على الدوام ، ومع

ذلك كان الزوج يراها طيبة فى أغلبها ، متسمة بالجفاف فى أقلها ، على حين رأته الزوجة ذئبا وحيدا ، لايقبل من اى انسان آخر ان يقتحم عليه حياته .

كان من عادته أن يعتزل حين يعانى ساعة الكتابة ، ولم تكن هى تقدر هذا ولا تؤمن به ، ولم تستطع أن تفهم تكوينه ، وفى هذا تشبه أمه كما يقول ، ولا مايتطلبه الابداع من توتر ، يجيء فيه الخلق عظيما بقدر ما يكون التوتر عنيفا ، وانما كانتا ، أمه من قبل ودنيس من بعد ، تريانه كنارا فى قفص ينتج بيضا ، فلا تلك اعتبرته ابنها ، ولا هذه عاملته زوجا عشيقا كما يود .

لم تر دنيس فى زوجها غير روائى مرهون عندها ، ليزودها بما تحب من مال ، ولم تر فيه أبدا الحرفى الشريف الذى بدأ من الصفر ، والعامل المجد الظاميء الى الحب ، والفقير المكافح الذى أحب الانسانية كلها ، حتى ولو كان الآخرون لا يحبونه أو لايحبونها ، أحب كل ماهو حى فيها ، حتى الاشجار والعصافير .. وكان داخله يفيض بأحلام كثيرة تمتد وتتسع حتى تبلغ حب الناس الذين تحت ، ويرى ذلك ضرورة ، ويقدمه على الخروج فى مظهر فخيم ، وسيارة ضخمة أنيقة ، وقضاء فصل الصيف فى الكوت دازير أو سان تروبيه ، من أمكنة الريفيرا الشهيرة ، لأنه ينتمى أصلا الى هذه الطبقة الفقيرة .

أرادت أن تحتكره ماديا ، وأن تحدد دوره روائيا ، وكانت تشعر معه بأنها جريحة دائما ، وكان خلافهما أحيانا على أشياء صغيرة جدا ، لم تكن تسمح له بأن يحقق حلمه الوحيد فى التسكع عبر الشوارع او العالم ، وكان يرى تحقيق ذاته فى هذا التسكع ، وأنه الاكثر سموا فى كل ما أورثتنا الانسانية .

لقد تزوجها وهو لايعرف لماذا ، فقد كانت برجوازية صارخة

شأن معظم النساء ولم يكن هو ينتمى الى اليمين آو اليسار ، ولا الى آى حزب سياسى ، وليس اشتراكيا ، لأن الاشتراكيين ثوريون فيما يقول ، ومع ذلك فمشاعره وآحاسيسه كلها مع رجل الشارع البسيط ، ويتعاطف معه بلا حدود ، وهو مالم تستطع دنيس أن تفهمه ؛ كما لم تفهم الزواج على انه حب واندماج وعطاء بلا حدود ، ولكنها فهمته حربا متواصلة بين زوجة تريد ان تكون لها الكلمة ، وزوج فنان لايستطيع ان يخضع حياته لاى قوانين .

واصبحت حياته مع دنيس لاتطاق ، ولم تعد تتحمل مغامراته العاطفية داخل البيت وخارجه ، وبلغت حد الاتصال بخادمتها الخاصة ، وضاقت آحواله معها ، وكان عليه آن يختار ، واختار الطلاق ، وسوف يبلغ الخلاف بينهما غايته حدة واسفافا ، حتى وصل المحاكم ، فى ظروف سوف نعرض لها بعد قليل ، وقد أصدرت عن حياتهما معا كتابها « طائر للصيد » قصت فيه تاريخ حياتها بجواره ، وكشفت كل اسراره ومغامراته ، ازاحت الستر عن عاداته اليومية الصغيرة والكبيرة والشاذة ، وما كان يتسم به من ولع وزهو وغرور ، وانتهى هو الى قناعة آمن بها ، وطبقها وهى أن الزواج برسومه وطقوسه المعهودة نظام فاشل ، وآنه يقتل العبقرية والحرية والبهجة .

● ● ●

ولكن سيمنون لايمكن آن يبقى دون امرآة فكانت الثالثة تيريزا .

وهى ايطالية كانت تعمل خادما خاصة لزوجته دنيس ، والصلة العاطفية بينهما بدآت على التآكيد قبل آن يطلق زوجته ، ودخلت فى حياته فى ١٤ ديسمبر ١٩٦١ ، وله من العمر ثمانية وخمسون عاما ، ويكبرها بخمسة وعشرين ، ولم يشآ آن تكون علاقته بها

ذات صبغة رسمية ، فلم يعقد عليها في كنيسة ، ولم يسجل زواجها فى بلدية ، وانما اتفقا على أن يعيشا معا ، على نحو ماكانت عليه سيمنون بوليفار من جان بول سارتر ، ووجد معها من السعادة والحب مالم يجده عند زوجته السابقتين ، ويتحدث عنها دائما ، وفى كل ماكتب ، بحنان غامر ، لقد هيأت له الآمان والثقة والسلام ، وجعلت من بيته المرفآ الهادىء الذى يطمئن اليه ، وفيه يكتب ويحلم ، ويتعاقد على نشر ابداعه ، وعرفت كيف تجعله يقنع بها وحدها ، وآن يعطيها حقوق الزوجة كاملة ، وإن لم يوقعا وثيقة ، ولا باركهما قسيس .

وفى إخلاص وذكاء وكفاءة قامت تيريزا بدور العشيقة وحارسة المعبد ، واتفق معها آنه اذا آصيب فى قواه العقلية ، آو بمرض معضل لا آمل فى الشفاء منه ، آن تريحه من الحياة بحقنة ، وآن تحرق جثمانه ، ثم تسحقه ، وتذروه على حشائش حديقته الصغيرة ، ليختلط مع رماد ابنته مارى جو .

● آخيرا فى لوزان :

وتعب من كثرة ما رآى فى العالم وحركته ، وبعد آن ملك القصور والفيللات ، وغرق فى السعادة انسحب الى بيته فى لوزان آخيرا ، وآغلق ابواب بيته عليه ، ولا آحد يعرف لماذا ، وبخاصة آن المتاعب الصحية والنفسية التى ادى اليها انتحار ابنته كانت قد انتهت ولم تفعل به لحظتها مافعل بنفسه آخيرا ، وربما كان ذلك بسبب عملية جراحية فى رآسه آجراها فى ديسمبر عام ١٩٨٤ . وبعضها آثر آن يعتقل نفسه بارادته فى بيته الوردى فى لوزان .

ومنذ هذه اللحظة اختار هذا الأديب العبقرى الذى تخصص فى الآدب آن يعيش حياة متواضعة ، فى عالمه الخاص ، وتخلى عن حياة الترف والبهرجة ، وآثر ان يعيش حياة بسيطة للغاية ، عادية

بلا صخب ، الى جوار رفيقته تيريزا ، داخل بيت صغير ، تحوطه حديقة اكبر منه قليلا ، وتضم شجرة أرز لبنانية الاصل ، عمرها قرنان ونصف من الزمان ، وفوق هذه الشجرة العملاقة ، ذات الطابع الاثرى التاريخى ، تغرد مئات العصافير مبتهجة ، فى سرور بالغ على التأكيد ، لان رب البيت يقدم لها شهريا ما وزنه ثلاث مائة كيلو جرام من الحبوب .

وداخل البيت عادى ، وليس على جدرانه اية لوحة فنية ، رغم ان صاحبه يملك عددا منها لكبار الفنانين ، ولكنه نقلها مع التحف الأخرى التى يملكها الى المخزن ، فى الطابق الأعلى ، لانه يراها زائدة ، وليس فى حاجة اليها ، فقد شبع منها تأملا وتمثلا ، ويكفى أن يفتح عينيه لكى يراها ويستوعبها ، حتى لو لم تكن هناك على الجدران ، ولا يوجد فى بيته كتاب واحد له ، أو يتصل بشخصه ، فكل كتبه ، ومعها مؤلفاته ، مخطوطة أو مطبوعة ، أو مترجمة ، نقلها الى جامعة لييج فى مسقط رأسه .

وفى هذا البيت الصغير اشتغل اكثر من ذى قبل ، وابدع كتابه الضخم ، المتعدد الاجزاء ، والأكثر أهمية فى تفسير حياته ومجتمعه وعصره ، من كل ماكتب .

● الحب المحرم :

رزق سيمنون بابن واحد من زوجته الاولى ، وابنين وبنت من زوجته الثانية ، وحملت البنت اسم مارى ، ثم أضافت الى اسمها كلمة « جو » لقبا ، وهو الحرف الأول من اسم ابيها « جورج » تيمنا وحبا ، فأصبحت تدعى مارى جو ..

وقد أمضت الفتاة أعواما قلقة ، رغم رقتها وجمالها وذكائها ، ورفاهية الحياة التى تعيشها ، وبعد انتحارها هبت العواصف قوية حول أسرتها ومست اخلاق أمها وشرف ابيها على السواء .

كانت مارى جو الأبنة الوحيدة لابيها ، فدللها الى اقصى حد ممكن ، وحقق لها كل رغباتها وما تحلم به : أرادت أن تكون رسامة فأرسلها الى أستاذ رسم ، وأحبت أن تتعلم الرقص الكلاسى فجاء لها بأستاذ متخصص فيه ، وأقام لها صالة ألعاب خاصة بها ، ورغبت فى أن تتعلم الرقص الحديث الصاخب فكان لها ما أرادت ، وقبل كل شىء أرادت أن تكتب فكتبت ، ونشر لها جانبا من رسائلها اليه .

وأثمرت هذه الرعاية ، فكانت مارى كاتبة مسرحية ، ومخرجة ، وموسيقية ، وشاعره ، ومؤلفة أغانى .

كانت تقيم وحدها فى شقة فى ممر الليدو ، المتفرع من شارع الشانزيه ، وكلاهما ـ الشارع والممر من أشهر معالم باريس ، ففى مدخل الممر يقع ملهى الليدو المشهور عالميا ، والممر نفسه مزدحم دائما بجماهير من الطبقة البرجوازية ، فرنسية أو قادمة من بقية أنحاء العالم ، ففيه أرقى البارات والمطاعم ، وأغلى المتاجر وأكثرها أناقة ، وهو غارق دائما فى الاعلانات الكهربية العاشية ، للمنشآت السياحية وأماكن اللهو الليلية ، ورغم أن الممر معد للمتعة والبهجة ، ومهبط الخليون من تبعات الحياة ، فالناس فيه يتدافعون ، وقد ارتسم علي وجوهم قلق غريب ، يحار المرء فى مصدره وتفسير دوافعه .. فهم عجلون دائما ، كما لو كان يسرعون وراء الحياة ليرتشفوها حتى الثمالة ، مخالفة أن تفلت من بين أيديهم قبل أن ينالوا منها مايريدون .

فى ٢٠ مايو ١٩٧٨ تلقى جورج سيمنون مكالمة هاتفية من ابنه المقيم فى باريس مؤداها أن اخته مارى جو قد انتحرت فى شقتها : اشترت مسدسا ورصاصا ، وتناولت قبل ان تصعد الى بيتها شيئا من « الكرواسان » فى أحد بارات الممر ، وعندما وصلت الى شقتها أغلقت الباب عليها ، وأطلقت الرصاص على نفسها ،

ولها من العمر خمسة وعشرون عاما .

يقول سيمنون معلقا على هذا فى الجزء الأخير من « أماليه »

« أغلب الذين يقررون ان ينتحروا قتلا بالسلاح النارى يطلقون الرصاص على أنفسهم فى الصدغ أو الفم ، ومعلوماتهم جيدة عن مكان القلب بالدقة ، وهم فى مثل هذه الحالة لايحتاجون لغير رصاصة واحدة ، ومن بين هذه الطرق الثلاث يختار واحدة يموت بها ، تاركا وراءه رسالة فى أغلب الأحوال .

وفى اليوم نفسه تلقى الاب جثمان ابنته الوحيدة فى صندوق ، وعجلا أحرقه وسحق رماده ، ونثره فى تربة الحديقة ، حيث الشمس مشرقة ، والعصافير مغردة ، وذلك عملا بوصيتها ، وفيما بعد ، كتب الأب فى ذكرياته :

« نحن نراك من باب الشرفة ، ونستطيع ان نتحدث اليك ، ونعرف أنك تحررت ، وأنك أخيرا بلا تعاسات ، ولن تتعرضى لخوف أن تجدى نفسك فى مكان مغلق كما تقولين » .

وتوقع كثيرون ان تثير عملية الاحراق هذه موجة من الاحتجاج والغضب ، ولكن سيمنون كان يدرك واعيا ان مكانته كاتبا سوف تعصمه من النقد اللاذع ، وتحول دون ان يمسه امتهان او أذى .

وقد خلفت مارى وراءها أكواما من الوثائق المؤثرة :

مئات من الصور ومن الكراسات امتلأت صفحاتها بخواطرها وتأملاتها ، وكثيرا من الكتب قرأتها وعلقت عليها فى هوامشها ، وكثيرا من الشرائط المسجلة بصوتها نفسه ، تقص مأساتها فى صراعها اليائس ، صراع ضد من ؟ لم يقل عنه احد شيئا ، وفقدت التقدم ضد عدوها الداخلى ، واسمته « مدام تعاسة » وبانتحارها هربت الى ماتسميه الصفاء الخالد .

وخلال ايام اخذ سيمنون يقرأ الكراسات والرسائل ، ويستمع

الى الشرائط حيث تتحدث مارى ، أو تغنى رفقة عودها ، ويمضى في ذكرياتها وذكرياته معها ساعات وساعات ، ثم ينهى جلسته موشوشا :

« كانت جميلة » !

وكان نثر رمادها فى حديقة بيته فى لوزان وراء قراره النهائى والقاطع ألا يتركه ابدا ، ومنذ تلك اللحظة ظل فيه ولم يغادره ابدا ، وقرر أن تكون نهايته كنهايتها حين يجىء اليوم الموعود ، وأن ينثر رماد جثمانه فى الحديقة أيضا ، ليختلط برماد جثمان ابنته ، وبتربة الحديقة ، فقد كان آخر جملة لابنته ، فى آخر شريط لها جملة تقول : لن أذهب بعيدا .

من قتل ابنته ، ودفع بها الى هذه النهاية التعسة الأليمة ؟

ربما كانت معرفة هذا السر مفتاح مأساة الاب نفسها ، فقد تفجرت قضية هذه الفتاة الجميلة المثقفة بعد قليل ، وجعلت منها الصحافة الأوربية مادة تحتل منها أحيانا الصفحات الأولى ، وبخاصة الصحف التى تعيش على الاثارة .. لقد ألمح الأب يوما الى أن زوجته دنيس كانت على علاقة شاذة مع ابنتهما ، ولكنه لم يخجل فى الوقت نفسه أن يشير أيضا فى عبارات غامضة إلى أنه كان لها معه نفس الموقف . وقد رفض أن يرد على أسئلة الصحفيين الذين طالبوه مزيدا من التفاصيل واكتفى بأن يقول : إن ابنته كانت قلقة ، وانها كانت تطلب حبا محرما .

ولا أود أن أفيض فى تفصيلات هذه القضية الشائكة ، ولها سوابق عند الشاعرين الانجليزيين اللورد بايرون ووردزورث ، كلاهما مع أخته ، وسأكتفى بفقرة من مقال بول جراى ، الناقد الأدبى لمجلة « تايم » الامريكية ، فى ١٨ يونيه ١٩٨٤ ، فقد وضع القضية فى حجمها الطبيعى ، دون تجوز أو مبالغة أو أطناب أو

قصور ، يقول :

« ربما ماكان ينبغى أن يكون لمثل هذا الرجل ابنة ، إن سيمنون يومىء إلى أن زوجته دنيس كانت تمارس بعض الأفعال الجنسية مع ابنتهما مارى جو ، حين كانت هذه فى السابعة عشرة من عمرها ، وعندما نشر هذا الكتاب الذى تضمن هذه الألماحة فى فرنسا رفعت دنيس دعوى قضائية ناجحة لحذف فقرتين وردتا فى هذا الكتاب وتتناولان هذا الاتهام بوضوح ، ومهما تكن حقائق هذه القضية المتشابكة والمؤسفة ، فإن سيمنون نفسه يستعرض بفخر مشاعر مارى جو الجنسية نحوه ، وراقصها على انغام « قاعة تينسى » للرقص ، حيث استقر به المقام ورفاقه ، وكتب لها رسائل عاطفية حارة حين كانت فى الثانية عشرة من عمرها يقول فى إحداها :

« عمت مساء ، عمت مساء ياحبى الرقيق واللذيذ » !

ثم يضيف الى رسالته الملحوظة التالية :

« أرجو أن تشاركى امك الرائعة كل ماقلته لك هنا ، حيث هو موجه اليها ايضا ، وأعرف انك لاتغارين منها » .

وكانت مارى جو تضع عصابة زواج حول شعرها ، كان الاب قد اشتراها لها حين كانت فى الثامنة ، وهى التى اكتشفت علاقة سيمنون ابيها بتيريز الخادمة الايطالية لامها . وعندما انتحرت مارى جو اوصت ان يبعثر رمادها فى الحديقة حيث تطل الحجرة التى كان أبوها وتيريزا يلتقيان فيها . وكتب سيمنون :

« أما وأنك هنا ، وقد عدت إلى بيتك الحقيقى ، فإن الكون كله تغير فى عينى ، واحس أننى منذ الآن فصاعدا لن تستبد بى الافكار السوداء الحزينة عنك . لقد التأم شملنا أخيرا وإلى الابد » .

ولما كان سيمنون والدا يحس بالشكل ، فإنه كان فى أمس الحاجة الى عزاء قد يجده ، غير أنه حين مضى يناجى مارى جو وكيف أن انتحارها أصبح وجبة صحفية ، (نشرت صحيفة فرانس سوار عنها مقالة فى الصفحة الأولى فى يوم الجمعة بعنوان كبير) ، يسيطر على المرء احساس بأنه يستعرض فيما يكتب إحدى مدائحه لنفسه ولشهرته .. إن مؤلفه « ذكريات حميمة » لايحكى قصة مشاعر حساسة رقيقة لرجل نحو أبنائه ، كما يحاول سيمنون أن يجادل فى شراسة دون يأس ، وانما هو كتاب تاريخ زمنى لحب الذات ، وهو شهادة رائعة ، ومقززة ، لذات ، أو نفس عنيدة .

● هوايات مختلفة :

وفى خطر مواز للكتابة عمل سيمنون فى كل الاشياء المادية : حدادا وبناءً وبحارا ، وحصل على شهادة قبطان مرفأين ، وجرب أن يكون فلاحا ، وأن يملك مزرعة فيها ١٥٠ بقرة ، و ٥٠٠ بطة ، ويعرف كيف يحلب الابقار ، ويحصد القمح ويحرثه ويتعهد الخيل والأمهار ، والديوك البيضاء ، واقتنى فى حديقة بيته نمرا وذئبا جاء بهما من آسيا الصغرى وأعطاه طبيب بيطرى شهادة كاذبة ، مقابل مبلغ من المال ، بأنهما كلبان من فصيلة ذئبية ، وعندما وصل إلى مرسيليا قدم الشهادة للفحص ، وعرف الموظف بأنه ظل يعمل فى « سيرك » عشرين عاما ، وأنه يعرف هذا النوع من الكلاب جيدا ، ولم يصدقه الموظف ، ولم يكذبه أيضا ، وتركهما يمران .

وكان مصابا بمرض السير نائما ، ويمكن أن تجده ليلا فى الشارع ، على بعد مائتى أو ثلاث مائة متر قرب بيته ، ولهذا السبب يمر بأزمتين أو ثلاث أسبوعيا ، وقد نصح الطبيب زوجته بأن تضع المكاتب إلى جوار النوافذ فى غرفة نومه ، ومع الزمن تخلص من

هذا المرض ولم يعد يخرج إلا مرة واحدة فى الشهر ، وأصبح ذلك من النادر جدا ، ولكن تيريزا رفيقة حياته هى التى بدأت تعانى من مرض السير وهى نائمة .

ومن عادته حين يكتب أن تكون إلى جوار الآلة الكاتبة زجاجة من النبيذ الفرنسى الفاخر ، ويستهلك منه زجاجة يوميا ، ويرى ذلك ضرورة ، ولكنه لايسكر أبدا ، ولا شأن لهذا بإبداعه ، فحين كتب روايات المفتش مجريه ، والروايات الأخرى ، فى اول حياته ، لم يكن قد تعود شرب النبيذ بعد ، وهو يشرب القهوة قليلا ، والشاى كثيرا ، يشرب منه لترا كاملا خلال فترة مابعد الظهر ، وتقول عنه زوجته الثانية دنيس إنه يكتب والويسكى إلى جانبه ، ولكنه نفى هذا القول ، وأنها لم تره أبدا يكتب ، ولكن من الحق أيضا أنه يشرب من خمس الى ست زجاجات من الشمبانيا فى الأسبوع ، فإذا انتهى من كتابة الرواية توقف .

ومن هواياته المفضلة كثيرا المشى ، حتى لو كان فوق ظهر زورق أو سفينة ، ولا تقتصر نزهاته اليومية ماشيا على مرة أو مرتين فى اليوم ، وكل رواية من رواياته يبدأها بعد نزهة طويلة يقوم بها وحيدا ، لان ذلك ، فيما يرى ، يهيئه داخليا للابداع ، وخلال المشى يتمثل الشخصيات التى سوف يضمنها روايته ، وكذلك انطباعاته عن الآخرين .

● النهاية :

فى سبتمبر من هذا العام مات سيمنون فى صمت وهدوء ، وفى منزله فى لوزان ، وفى عام ١٩٧٨ كتب بمناسبة عيد ميلاده الخامس والسبعين : لا أحد يستطيع أن يتنبأ بموتى ، ولا حتى أسرتى ، وسوف أموت فى هدوء ، وسوف أختار فقط لون المرمدة التى سوف يحرق فيها جثمانى : أن يكون برتقاليا ، لأننى أحب هذا

اللون كثيرا ، ووصيتى دقيقة ، وربما لهذا السبب سوف تغضب الكثيرين ، لقد اردت أن أحمى بعض الورثة،من البعض الآخر ، كما أردت حماية أعمالى » .

سيمنون مبدعا

تركنا وراءنا سيمنون الانسان ، وقد وقفنا عند جوانب كثيرة من حياته الشخصية ، وفيها الصالح والطالح ، والمستقيم والمنحرف ، وماهو مباح ، ومالا ترتضيه الشرائع ولا الاخلاق . ولكن منذ متى كان كبار المبدعين مستقيمين فى أخلاقهم على النحو الذى يرضى الجميع .

ذلك أن من خصائص العبقرية التفرد ، ولا يفصلها عن الجنون إلا خيط رفيع ، وحياة سيمنون مبدعا تقدم مادة وفيرة للنقاد ، وتفتح مجال البحث والحوار واسعا ، أمام أولئك الذين حاولوا منذ أواخر القرن الماضى وفى مطلع هذا القرن أن يبحثوا عما وراء الابداع العظيم من دوافع ، فليس كل العباقرة ، ولا كل الموهبين ، مبدعين .

رد المحدثون من علماء النفس البواعث الفنية الى نزعة التعبير عما فى النفس ، فالانسان مفطور بطبعه إلى التعبير عن أفكاره ، والتخفف من كبتها بين جوانحه ، فإذا جاء تعبيره عنها جميلا ، فى صورة أو لوحة أو قصيدة أو رواية أو قصة ، فهو الفن ، ثم اختلفوا فى تحديد هذه النزعة ، فردها العالم النمساوى فرويد الى الغريزة الجنسية ، وقال إنها العامل الفعال وراء الابداع وتنوعه ورقيه ، واستدل على رأيه بما بين الغريزة الجنسية والنبوغ من علاقة وثيقة فى مجالات الفن المختلفة .

ورأى أدلر الألمانى أنها غريزة حب الظهور والسيطرة ، فهى التى تحرك النشاط الانسانى بعامة ، والفنى بخاصة ، على حين يرى يونج السويسرى أن العقل الباطن بما ينطوى عليه من عقد نفسية ، يمارس تأثيرا قويا على النزعة الفنية وتوجيهها ، وأوضح هذه العقد ، الرفعة والضعة ، فالأولى تدفع المرء الى الزهو والاعتداد ، واشاعة قدره بين الناس ، والأخرى تحمله على التعويض والتكامل ، وكلاهما يتخذ من الفن مركبا ؛ وفريق يرى أن غريزة حب الحياة والخلود وراء ابداع الفنان ، فهو يريد أن يرتفع عن النسيان ، وأن يظل اسمه مترددا على الدوام فى سمع الزمان .

ربما كانت نظرية فرويد أقرب النظريات جميعها إلى تفسير نشأة الابداع فى جملته ، ولايضيرها أن الشواهد عليها فى الأدب العربى قليلة ، لأن معرفتنا بهذا الجانب من حياة الشعراء معدومة ، إذ تنقصنا المذكرات الحقيقية والرسائل العاطفية والاعترافات الصادقة ، ولكن الدراسات الواعية للأدباء المحدثين فى العالم الغربى ، وكل شىء هناك بوسع الناقد والباحث معرفته ، وطوع إمكاناته ، تقف فى جانب النظرية ، وترجح دورها الأهم ، ولانعدم بعض الشواهد فى الأدب العربى تدعم هذا الاتجاه ، دون أن يعنى هذا أنها الوحيدة وراء كل ابداع ، فقد تتعاون معها غرائز أخرى ، معروفة أو مجهولة لاتناقضها فى التأثير والاتجاه .

وجد علماء النفس المحدثون ، بعد تتبع دقيق لحياة جمهرة من كبار المبدعين على امتداد تاريخ الانسانية أن كثرة منهم كانت تعانى صراعا عقليا وداخليا مريرا ، نشأ عن قوة شهواتهم الغريزية ، وانحرافها الى مسارب شاذة غير مألوفة ، أو عن مقاومتهم ظروفا غير عادية ومؤلمة ، أو معاناتهم من فقد هذه الغريزة ، فقد كان الفنان الايطالى ميكائيل أنجلو شاذا جنسيا ،

شغوفا بالذكور ونحرف مثله عن أبى نواس ، والكاتب الفرنسى المعاصر أندريه جيد ، وحوكم بسببها الروائى الانجليزى أوسكار وايلد وقضى عامين فى السجن ، وكذلك كان الشاعر عبد الحميد الديب . وعلى النقيض منهم كان امرؤ القيس ، ونعرف من الروايات المتناثرة أنه كان مفركا ، مطعونا فى رجولته فجاء شعره الغزلى حادا وغير محتشم ، وابداعه قمة وروعة تعويضا عن هذا الكبت . وكان اللورد بايرون الشاعر الانجليزى الشهير ، والمناضل عن الحرية شاذ السلوك منذ كان طفلا ، وحين نشرت مذكراته بعد سنوات من وفاته تبين أنه كان على علاقة عاطفية محرمة مع أخته .

وقد لحظ النقد الانجليزى ـ مثلا ـ أن أفضل قصائد الشاعر ووردزورث كتبها فى فترة قصيرة بالنسبة إلى حياته ، وكانت بدورها قصيرة ، وأن نتاجه الأخير كان متوسطا ، وعندما ألف الناقد هربرت ريد كتابه عن الشاعر رد ازدهاره واحتضاره الى صلته مع أنيت فالون ، وهى صلة نشرت عنها بعض الوثائق أخيرا ، ثم جاء الناقد بيتسون وكتب عن الشاعر دراسة أخرى أزاح فيها الستار عن حقائق بالغة الأهمية ، وأثبت أن أنيت لم يكن لها الدور البالغ الأهمية الذى نسبه إليها هربرت ، وإنما السر الحقيقى يكمن فى أن ووردزورث كان يعشق أخته دوروثى ، وهو ما يفسر لنا بخاصة قصيدته « العشيقة » ، ولماذا غاضت ينابيع الالهام بعد زواجه .

وكان شعراء الرومانسية يبحثون عن الانحراف والتمرد إذا جاءوا الى الحياة عفاة منه ، فهم يدمنون المخدرات ، ويعاشرون الساقطات ، ويبحثون عن الانحطاط المادى فى ألوانه المتعددة ، ويخرجون على قواعد السلوك المألوفة ، وأظن أن بعضا على الأقل

- من المبدعين العرب ليسوا على مسافة بعيدة من هذه الاتجاهات ..

ومن نافلة القول الاشارة الى أن عظمة الفنانين ، وخلود أبداعهم ، لايعود إلى الصراع الداخلى والغرائز المكبوتة فحسب ، وإنما تعزى أولا إلى استعدادهم الفنى والفطرى ، وإلى مواهبهم ، ومهاراتهم التى اكتسبوها مع الزمن بالممارسة والدربة والثقافة ، ومن ليست لديه الملكة الفنية ، ولم يأخذ بالوسائل المعينة على الاجادة ، لايبدع فنا جيدا ولو فاض داخله بكل العقد والغرائز .

كان سيمنون فى حياته كل ماتحدث عنه علماء النفس ، ونجد فيها الشاهد على كل الاتجاهات ، وبقى أن نشير إلى أن ثلاثتهم الكبار : فرويد ، وأدلر ، ويونج ، كانوا بين من قرأ لهم ، وظل إعجابه بهم على الدوام قويا .

● إنتاج سيمنون :

ظل سيمنون يكتبه على امتداد ثلاثة ارباع قرن تقريبا ، فقد كتب أولى رواياته « عند جسر الأعمدة » وهو فى السابعة عشرة من عمره تقريبا ، وهى رواية ليست مرعبة ، ولكنها محبطة ، وفيها يصف عائلة فى مدينة أنفرس البلجيكية ، الوالد صيدلى ، ودخل فى مغامرة مع سيدة وجدها ليلا ، ولم تجد الرواية تشجيعا من أحد ، ومع ذلك واصل الكتابة ، إلى جوار عمله محررا بصحيفة جازيت دى لييج اليومية ، مندوبا فى أقسام الشرطة ، يتابع أخبار الحوادث والجرائم .

وخلال إحدى رحلاته مع زوجته تيجى ، عبر القنوات فى شمال اوربا ، فى مدينة إيمس ، وجد أعمالا فى الجسر المقام على القناة ، وحال ذلك دون مواصلته الرحلة ، فوضع زورقه فى الحوض الجاف ، وواصل عادته فى الكتابة ، وعندما أزعجه ضجيج

العمال ، وأربك مخيلته ، ابتعد عنهم ، واستأجر زورقا قديما نصف جانح ومليء بالوحل والفيران والماء الآسن ، وأقام فيه ثلاث كبائن صغيرة : واحدة لآلته الكاتبة حيث يكتب والثانية لمتعلقاتهما الشخصية ، والثالثة لزجاجات النبيذ الخاصة به ، وفي هذا القارب ولدت شخصية المفتش مجريه ، واستغرقت كتابة الفصل الأول يوما كاملا ، وبعد خمسة ايام كانت الرواية كاملة ، ثم كتب روايتين أخريين وحملهما إلى ناشر ، فأخذ هامته ، وقرأها كلها ، وبعد يومين قال له :

ـ اسمع ياصغيرى سيمنون ، هذه ليست روايات بوليسية فى الحقيقة ، لأن القارىء يستطيع بعد ثلاثين صفحة أن يعرف المجرم ، ولا توجد فيها قصص حب ، ونهايتها دائما سيئة ، وإذا وافقتك على نشرها فأنت باختصار تحملنا إلى كارثة .

ـ حسنا أرجع لى مخطوطاتها .

ـ لا ، اكتب روايات أخرى من هذا النوع ، وسنرى .

وبدأ يكتب من جديد ، وخلال شهرين فحسب كتب ثمانى عشرة رواية ، وجاء النجاح مباشرة وفوريا ، وأخذت رواياته مبكرا طريقها إلى عديد من اللغات الأوروبية ، وبدأت تتدفق عليها حقوق النشر من كل جانب ، وغيرت حياته كلية ، من صحفى بائس إلى برجوازى صغير .

وظل يكتب بامضاء مستعار من عام ١٩٢٤ إلى ١٩٣٢ ، ويوقع رواياته بأسماء مختلفة كريستياك برول ، وجيوم جيت ، وجورج كرمان وأسماء أخرى .

وقد كتب أكثر من ٤٠٠ رواية ، وجزأن من الاستطلاعات الصحفية : بحثا عن الرجل البدائى وفى سبيل اكتشاف فرنسا ، ثم أماليه ، وبلغ مانشر منها عشرون جزءا .

وهو من أكثر الكتاب قراءة وترجمة فى العالم ، وطبقا لاحصاء اليونسكو فإن رواياته مترجمة لأكثر من مائة لغة ، من بينها كل اللغات المستخدمة فى الاتحاد السوفييتى ، وترجمت له دار الهلال إلى اللغة العربية أكثر من رواية ، وقرأ رواياته ، وطبقا لاحصاد اليونسكو أيضا ، أكثر من ٤٠٠ مليون قارىء .

● طريقة عمله :

يستيقظ فى السادسة صباحا ، يتناول فنجان القهوة وبعدها بنصف ساعة يكون جالسا إلى مكتبه ، ويظل أمامه يعمل حتى السادسة والنصف مساء ، ويتخلل هذا تناول الغداء . وفترة راحة نصف ساعة ، ويكتب مالا يقل عن ثمانين صفحة يوميا .

ولم يكن يتوقف عن الكتابة أبدا ، حتى وهو على ظهر قارب أوزورق أو سفينة ، يتحرك فوق قناة أو نهر أو يعبر المحيط ، ويبعث ماينتهى من كتابته إلى ناشريه بالبريد .

كان الناشرون يبخسونه حقه مؤلفا . فيما يرى ، فحاول أن يعوض هذا بالكتابة السريعة ، حتى أنه كتب رواية من عشرة آلاف سطر فى ثلاثة ايام ، وكان يبدع فى الشهر الواحد خمس روايات ، وبهذا استطاع أن يتغلب على مشكلة الدفع القليل ، وأن يرفع من دخله ، وبذلك استطاع وهو فى الرابعة والعشرين من عمره ، أن يملك زورقا بخاريا وسيارة ماركة كريزلر ، وعندما جاءه ناشر عجل ، وعرض عليه مبلغا مضاعفا على أن يكتب له رواية فى ثلاث ليال واربعة أيام ، حجز نفسه فى شرفة تطل على « المولان روج » فى باريس ، وانتهى منها فى الموعد المحدد بلا صعوبة .

وكان يكتب فى كل مكان فى الحجرات الصغيرة حيث تتسرب الحشرات الى أعماق آلة الكتابة ، وفى الغابات الاستوائية حيث يغطى نفسه مضطرا بقماش رقيق ليحمى نفسه من الذباب ..

وخلال الكتابة ينضح عرقا ، وحوله أستار تحجبه عن الاخرين ، أستار مادية فهو وحده فى مكتبه ، ومعنوية فهو لايفكر فى غير الكتابة ، والكتابة عنده ليست متعة مبهجة ، وإنما هى معاناة قاسية ومؤلمة .

وتقول عنه رفيقته تيريزا أنه يفقد فى كل فصل يكتبه مابين ستمائة إلى ثمانى مائة جرام ، ورغم رواياته العديدة وكثرة ما ألف ، لم يكن يكتب فى يسر وسهولة كما يظن ، وقبل ان يبدأ رواية جديدة ينتابه فجأة هول ورعب ، وبعد ساعتين من العمل ينتابه الغثيان والقىء ومع ذلك فهو يبدأ الكتابة دائما فى الساعة المعتادة ، ويخيل إليه أنه لو توقف عن الكتابة وسط العمل فأن شخوصه تتبخر ، وإبداعه يتوقف .

ويسبق كتابة الرواية بنزهة وحيدا ، وقد تكرر هذه عدة مرات ، وخلال سيرة يفكر فى الفصول والشخوص ، ولا تجىء هذه مرتبة ، لأنه لايرسم لرواياته تصميما مبدئيا على الاطلاق .

وقبل أن يشرع فى كتابة الرواية يعد مظروفا أصفر كبيرا ، يضع فيه اسماء شخوص الرواية وأعمارهم ، وعاداتهم المضحكة والمستهجنة ، وصفات زوجاتهم أو عشيقاتهم ، وحالتهم الصحية وغيرها ثم يضعهم فى مواقف تضطرهم الى أن يذهبوا الى مابعد انفسهم ، وبعد ذلك يتبعهم ، ليعرف ماذا يفعلون ، ويمضى معهم يوما وراء يوم ، ولايعرف أبدا كيف ستنتهى الرواية .

وعندما صعد نجاحه ، وتوالى فوزه ، وارتفع عائده ، قرر أن يخصص عدة ساعات فى يوم معين ، يمضيه فى عدد من المكتبات ، يوقع بخطه واسمه على كتبه لمن يرغب من قرائه والمعجبين به .

● التوقف :

فى ١٩ سبتمبر ١٩٧٢ ، وكان قد بلغ السبعين من عمره ، قرر التوقف عن الكتابة تماما .

كان قد أمضى ٧٠ عاما فى حياة نشطة ومضطربة ، وكل ساعة بلا حركة خلالها كانت تبدو له ضائعة ، واعتبر شيخوخته المرحلة الأكثر سعادة وجدية فى حياته . وفوق مكتبه ظرف أصفر ، مكتوب عليه كلمة « أوسكار » ، وهى عنوان رواية لم يكملها .

لقد شعر بالسعادة عندما توقف عن كتابة الروايات ، فقد أضنى فكره ممسكا بشخوصه تحت إبطه يعيش داخل إهابها ، ويقاسمها مر الحياة وتعاستها وبلغت عدتهم ثلاثة آلاف شخصية ، فى ٤٠٠ رواية !

أى إرهاق !

وقرر بيع بيته الكبير ، وسرح الخدم ، وباع عربته الروز ليس ، وقرر الا يصنع خيالا ، ولم يعد يحمل ورقا ولا أقلاما ، ولايستهدف معرفة غير ذاته نفسها ، فى أعماقها ، واشترى آلة تسجيل ، وبدأ يملى عليها من الذاكرة كل ما براسه فى إيجاز ، كل الذى حدث له ، وهى طريقة يراها أكثر بساطة ومباشرة ، وأشبه ماتكون ، على نحوها ، ببطاقة بريد يكتبها مسافر إلى أسرته أو حبيبته ، وحاول معها أن يفهم الانسان الفرد من خلال نفسه ، بدل أن يبحث عنه فى الآخرين .

ولم يكن قرار التوقف هذا سهلا ، لأنه عمليا عزله عن التفكير فى حب اناس بسطاء جدا ، وبدا له ذلك فى البدء مستحيلا ، وأنه لايمكن أن يدوم غير عدة ايام ، وكان صعبا عليه الا يعمل ، وانتابته غصة أن من لايتعب لايستحق أن يأكل ، ومن لايفكر فهو مجرد

وجود مادى فارق الحياة . ولكنه أعمل ارادته ، وابتعد عن آلة الكتابة ، وأغرق نفسه فى :

● الأمالى :

كان يجلس إلى المسجل يملى عليه ذكرياته ، وقرر أن تجىء فى واحد وعشرين مجلدا ، وتحمل عنوانا رئيسيا « أمالى » ، وآخر فرعيا : « ذكريات حميمة » ، وفيها قص حياته ، أو جانبا منها ، اذا شئنا الدقة ، فما من أحد مهما بلغت به الصراحة ، وحتى لو كان فى أوربا ، يستطيع أن يعرى نفسه أمام قرائه تماما .

وقد أهدى هذه الأمالى إلى ابنته مارى جو ، ورغم ضخامة الأمالى ، وتعدد مجلداتها ، سلسلة اللغة ، عذبة الاسلوب ، تحمل طابع العفوية ، فقد جلس الى المسجل يتحدث ، وتركه يلتقط ويختزن كل مايقول له ، وروى فيها حياته يوما بعد يوم ، وتضمنت كثيرا من الاسرار والأحداث التى اثرت فى حياته منذ وعى مسترجعا من وراء الوعى كثيرا مما حدث له ، دون أن يعود إلى أية ورقة مسجلة أو وثيقة ، وربما لهذا السبب أسماها « ذكريات »

فيها تشاهد النساء اللائى مررن به فى حياته :

زوجتيه ورفيقته الثالثة ، وعالم عريض من الخدم والسكرتيرات والإعوام ، والأطفال والرجال ، والتأكيد على حاجة الفنان إلى الحب ، والأموال تتدفق عليه بعد الفقر الشديد .

وفيها تلتقى به يغير الحياة من مدينة إلى أخرى ، ومن شعب إلى شعب ، ويستبدل البيوت والعربات ولكنك لاتستطيع فى آية لحظة أن تعرف من هو هذا التائه ، النهم إلى المرأة الشهوانى المتدفق ، الغنى المحدث ، الدقيق المنظم ، يستطيع أن يحدد ساعات عمله وأن يحرص عليها ؛ حتى يجلس الى الآلة الكاتبة

ولايفارقها ، ومع ذلك كله ، فإن داخله ، ولحظات ابداعه ، لاتزال سرا غامضا .

إن الغامض يظل على الدوام كذلك .

نعم ، إننا نجد فيها بعض اسراره ، وشيئا من مشاعره المكبوتة ، وبعض مفاتيح حياة هذا الرجل الشيخ ، وقد بدأ يعود إلى ماضيه ذات ليلة ، ليقص علينا جانبا منه ، غير أن ذلك كله لايكفى لأن تعرف من هو تماما ، وكل ما تخرج به من قراءة هذه الذكريات ، أن مشاعره كانت مضطربة بقوة ، ولم تستقر على حال فى أية لحظة من حياته .

وقد الحق سيمنون بذكرياته هذه مجموعة من النصوص والرسائل والأغانى والكتابات ، من إبداع ابنته مارى جو ، وتشغل الفترة مابين ١٩٦٢ إلى ١٩٧٨ ، وفيها يجد القارىء انفعالات فتاة مراهقة ، تناضل ضد آلامها لتعيش الى جانب رسائله اليها ، حتى بعد انتحارها ، ومناجاته الدائمة لها ، ويدرك القارىء معها أى رعب عاناه سيمنون على طريقته ، بذهاب الابنة التى أحبها ، وهى لاتقرأ بوصفها تكريما لفتاة رحلت شابة ، قبل أوانها ، فى ظروف مأسوية ، وأزاحت المؤلف عن مكانته ، وإنما نحن معها بإزاء بوح عجوز منهك ، يفيض بذكرياته ، ويتكلم بلا توقف ، دون أن يصل بنا الى الحقيقة كاملة ، أو إلى مايقنعنا بالصمت والاكتفاء .

كانت هذه الأمالى أحب إلى سيمنون من كل ما كتب ، ربما لانها فى الأعماق تحركه ، وتذكره بالذى مضى وكان الأجمل فى حياته على التأكيد .

● **المفتش مجريه :**

أبدع سيمنون شخصيته المفتش مجريه ، أعظم المخبرين السريين قاطبة فى القصة البوليسية بعد شرلوك هولمز ، وأصبحت

الكلمة علما شائعا ومتداولا فى اوربا ، وتقع حدودها وامكاناتها وصفاتها فى ذهن القارىء الأوربى بمجرد أن يسمعها أو تقع عينه عليها ، وقد اكتشف المؤلف هذه الشخصية صدفة وهو فى السابعة عشرة من عمره عام ١٩٢٠ ، ويروى لنا بنفسه كيف اكتشفها :

« اذكر جيدا ذلك اليوم الذى عرفت فيه هذه الشخصية كان صباحا مشمسا ، ودخلت حانة صغيرة على شاطىء نهر إيمس ، وشربت كأسين أو ثلاثة ، وبعد ساعة انتشيت قليلا ، وبدأت ألاحظ جمهور الحانة ، وشد انتباهى من بينهم رجل قوى ، بدا لى أنه مفتش شرطة ، وأنه مناسب لرواياتى ، فلما عدت إلى زورقى أضفت إلى هذه الصورة بعض التفاصيل :

بايب ، وقبعة مستديرة ومعطفا ونظارة سوداء .

« وكان يلف داخل الزورق هواء رطب ، ورغم ذلك حررت فى اليوم الأول فصلا كاملا من الراوية وبعد خمسة ايام كنت قد أنهيتها ، ثم كتبت روايتين أخريين ، وذهب بها كلها إلى الناشر ، وقرأها جميعها ، وكان رده : هذه ليست روايات بوليسية ، لأن القارىء يستطيع فى الصفحة الثلاثين أن يعرف الجانى ، ولاتتضمن أية قصة حب ، ونهايتها دائما سيئة ، باختصار : انت تحملنا الى كارثة »

« ثم نسيت الأمر تماما » .

فى عام ١٩٢٩ عاد سيمنون لى رواياته القديمة التى كتبها حول عام ١٩٢٠ ، وقرأها مندهشا ، ووقع فيها من جديد على شخصية مفتش شرطة اسمه مجريه ، فقرر أن يبعثه من جديد . وهكذا بدأ منذ عام ١٩٣١ يكتب سلسلة من الروايات البوليسية تلعب فيها شخصية مفتش الشرطة مجريه الدور الأول ، ولأن الروايات التى

قام فيها بدور البطولة متعددة فقد أصبح معروفا ، وزاد من معرفة الناس به تقديم سيمنون له ، فهو ملتقط من الواقع ، وليس من صنع الخيال تماما ، كما هو الحال مع أرسين لوبين أو شرلوك هولمز ، أو جيمس بوند .

ويقدم لنا الفلاح كل التفصيلات عنه ، أصله القروى ، والمعاهد التى درس فيها ، ورغبته فى أن يكون شرطيا ، إلى أن انتهى به المطاف فى شرطة البلدية ثم أصبح سكرتيرا لاحدى اداراتها ، وعمل فى كل مناصب فرقة مقاومة الأجرام التى انضم اليه ، ويتجاوز عمله الى تقديم حياته الشخصية ، فيحدثنا عن ظروف زواجه ، ونوع الطباق الذى يدخنه ، وعدد أحذيته ومقهاه المفضل ، وأصدقاء المخلصين .

ويحاول سيمنون أن يثبت فى أذهاننا أن شخصية مجريه مزعجة ، ولكنها ليست كذلك فى الواقع ، وهو يتتبع مبدعه خطوة خطوة ويبقى فى ظله دائما ، دون أن يتدخل فى نشاطاته ، تاركا له الحرية كاملة كى يكتب بقية رواياته بنجاح ، وبعيدا عنه اذا اراد .

ومهما قرأ الانسان باهتمام الروايات الأولى من سلسلة مجريه فسوف يصعب عليه النفاذ الى اعماق العالم الغامض لهذا المفتش السرى ، وقد أصبح رئيس قسم وفيما بعد ضابطا متقاعدا ثم شاخ ، وعاد فيلسوفا هذرا يوزع النصائح ، وعبر الزمن تغيرت أشياء كثيرة ايضا : اختفت من باريس الحافلات ذات الطابقين ، وفاضت الشوارع بالسيارات وأصبحت عربات المترو أكثر اناقة ونظافة وجمالا وتقدمت وسائل تنفيذ الجريمة فى خط بيانى مواز لطرق اكتشافها إن لم تسبق الأولى الثانية ، وأصبح يجذب انسان العصر أكثر أن يعرف داخل الرجل نفسه ، وأن يتعمق أفعاله وما يكمن وراءها من مشاعر وأحاسيس ، اكثر من اهتمامه بغموض

الجرائم نفسها ، ومحاولة ازاحة الستار عن اسرارها .

وفى الروايات الأخيرة من سلسلة مجريه أصبحت فلسفته تعبر عن حنين برجوازى صغير الى الماضى ومافيه ، دون أن تصنع شيئا يتصل بالحاضر ، وفقط توقظ فينا أسئلة محزنة عن المستقبل .

كان المفتش مجريه يمثل جانبا من عصرنا ، واكتسى واقعية لاسبيل الى انكارها ، ولكن هل هذه الروايات بوليسية حقا ؟ يجيب على هذا السؤال صاحب مكتبة نفدت عنده روايات مجريه وجاء من يسأل عنها ، فلما اعتذر له صاحب المكتبة انتابه قرف شديد ، ولما قدم له غيرها كان جوابه :

- إنها بوليسية ، إنها مملة ، ماذا أصنع بها .

والواقع أن سلسلة مجريه أقرب إلى رواية العادات منها إلى الرواية البوليسية ، ولو أن سيمنون أضاف إليها ظلالا اجرامية ، خرجت بها قليلا عن بناء رواية العادات ، وهو اتجاه اكثر عصرية ، ويقترب بها من روايات جراهام جرين وإدجار بو .

ومجريه ليس المفتش الوحيد فى روايات سيمنون البوليسية ، فقد كتب روايات أخرى من هذا النوع لايظهر فيها مفتشه الشهير ، الى جانب الروايات الأدبية أو رواية المغامرات .

لقد عنى سيمنون بالتحليل النفسى لشخوص رواياته البوليسية ، ذوى المشارب الفكرية المختلفة ، والمنازع الاجتماعية المتباينة ، فمنح الرواية البوليسية دما جديدا ، وأضفى عليها قيمة ادبية ، وكسر الجمود الذى انتهت اليه ، لطابع أحداثها المتقارب ، فمزجها بعنصر المغامرات ، والجريمة والحب ، وخرج بها من الدائرة المغلقة التى كانت تتحرك فيها .

ومع الزمن نسى سيمنون مجريه ونشاطه ، وأحداثه ، وأصبح

بالنسبة له مجرد ذكرى غائمة ، ولم يعد يراه ولا حتى فى التليفزيون .

● ● ●

فى ٣ سبتمبر ١٩٦٦ أقامت بلدية أيمس فى المكان الذى اكتشف فيه سيمنون شخصية مجريه تمثالا تخليدا لذكراه !! ...

● فن سيمنون :

كثيرون من القراء العاديين يرون فى سيمنون مؤلف روايات بوليسية ، وخالق شخصية المفتش مجريه ، وفى الحقيقة لا يمثل الخيال البوليسى الا جانبا من اعماله الروائية ، الى جانب السيرة الذاتية ، والاستطلاعات الصحفية ، وسوف نعنى به هنا روائيا ، وربما كان ما نفيده هنا من بقية اعماله الأخرى ، فى القاء ضوء على ابداعه الروائى ، وهو موقفه الطبقى ، وعلاقته الاسرية ، وتجربته الانسانية بالمعنى الواسع العريق .

كان سيمنون خصب الابداع وفير الانتاج ، ولا يقاربه فى هذا الا قليلون ، وهو فنيا اعلى بكثير مما تتطلبه الرواية البوليسية : حدة نباهة ، وقوة استنباط ، وطرافة نوادر ، وكلها صفات تحدد شخوص رواياته ، وتضعه فى مجال الموازنة مع بلزاك ، ولو ان هناك من يرى فى هذا بعض المبالغة ، ولكن قارىء الرواية البوليسية من الفرنسيين ، والفرنسى بطبعه معجب بلغته ومغرق فى إحساسه بقوميته ، وجد فيه ما يغنيه عن الترجمة من اللغات الأخرى ، ومعه يشعر بأن ادبه ليس دون الآخرين ، ان لم يتفوق عليهم .

طموح ليس له ما يبرره ، فيما اعتقد ان يزعم ناقد او معلق انه

قادر على ان يتمثل نتاج كاتب له فى عالم الرواية وحدها مايزيد على اربع مائة رواية ، وأن يقول فيه كلمة النقد الفاصلة ، وبحسبه ، فيما ارى ، أن يلقى على هذه الاعمال نظرة فاحصة ، تعينه على تحديد تقنيته الفنية ، وسوف يلحظ بسهولة انها لم تعان من تغييرات جوهرية أو عميقة ، وإنما لها نفس المحتوى ، والشخوص والابنية ، وحتى نفس الظروف والمواقف يجدها القارىء ، مع كثير ما كتب المؤلف وطول ما عاش ، ومن هنا فإن اتساع اعماله لا يمثل الا عقبة صغيرة ، فى طريق هذه المحاولة المتواضعة ، ويمكن ربطها فى كثير من الحالات ، وبخاصة النفسية منها ، بتاريخ الكاتب نفسه ، وظروف عيشه ، فهى تتوالى بكثرة ، وتتشابه فى نقاط عديدة ، وتدور غالبا فى :

● نفس المكان ، وهو عاصمة اقليم ما ، فى أحدى ضواحيها غالبا ، حيث كل الناس يراقب بعضهم بعضا ، والرأى العام له تأثير قوى .

● نفس الشخوص : الام القوية ، والأب الضعيف ، والزوجة المتحكمة ، والغريب الضائع ، وكل واحد منهم يدرك حالته ، ويحاول ان يحافظ عليها حين تكون ايجابية ، وان يهرب منها ، بلا نتيجة فى اغلب الاحيان ، حين تكون سلبية .

● والظروف نفسها : بناء عائلى مضطرب ، ووضع اجتماعى ضعيف وانقلاب كامل فى محيط الاسرة .

● ولشخوصها المواقف نفسها : البحث عن ترقية ، أو تعويض ، او تحسين مستوى ، او علاقة تعين ، او اعتداء ، أو اغتصاب ، او تحايل ، وهم دائما يحاولون اظهار قدراتهم فى الاختراع والابتكار والمواجهة .

ورغم ان جورج سيمنون لايهل القول ان رواياته كلها تمثل كتابا

واحد ، يمكن أن ترد ابداعه الروائى الى ثلاثة انواع :

● الرواية النفسية ، وفيها يلعب العنصر النفسى دورا بالغ الاهمية ، وبلغت القمة برواية «البحث عن الزمن الضائع» ، لمارسيل بروست (١٨٧١ ـ ١٩٢٢) وكان سيمنون من قرائه والمعجبين به ، وفيها تصدر الشخوص والملامح والنماذج عن شىء تعيشه وتراه ، ولكن سيمنون ليس مجرد مقلد ، او سائر على خطى سواه ، ربما لانه ادرك ان هذا الاتجاه فى شكله التقليدى افلس فى أيامنا هذه ، ولذلك اضاف اليه الفكاهة عنصرا مستحدثا وواضحا ، ليجعل الحبكة ، اشد عذوبة ، واكثر انسانية ، متجاوزا الكثير من العادات والتقاليد .

● الرواية البوليسية ، وفى معظمها يكون البطل وهو المفتش مجرية ، وعرضنا لخصائصها من قبل .

● القصص والروايات القصيرة ، وتتحرك فى نطاق المجالين السابقين ، والجانب البوليسى اوضح فيها .

الاحداث غالبا من صنع المؤلف ، ويلعب البطل دورا رئيسيا وسط كوكبة من الشخوص يختلفون مظهرا ومهنا ومكانتة ونفوذا ، وتجىء الرواية النفسية عادة فى لغة عالية ، دقيقة التراكيب ، بعيدة عن المستوى الشعبى ، ثمرة بلاغة برجوازية ، على حين يأتى اسلوبه فى البوليسية متوسطا ، بإرادته طبعا ، لانها موجهة للقاعدة العريضة من جمهور القارئين ، وهو فى هذا المتوسط يستجيب لمبدأين يؤمن بهما ، ويصدر فيهما عن موقف طبقى ، وضرورى لفهم اعماله ، فهو ينتمى ايديولوجيا الى صغرى الطبقة البرجوازية .

ومع ذلك ، فإن انتماء الكاتب الى الوسط البرجوازى الصغير لا يمثل الا احد عاملين اساسيين يحددان سير حركته الادبية ، أما

العامل الثانى ، ولا يقل قيمة ، وأن كان اكثر خفاء على القارىء والناقد ايضا ، فهو حياة الكاتب نفسها : عائلية وشخصية .

وفى الروايات كلها نجد مهارة بالغة فى الحبكة والوصف والحوار ، ويمضى بها الكاتب كلها فى عفوية طبيعية سريعة ، تشعر معها دقيقة مثيرة موهجة انها ثمرة تدريب طويل ، ومعاناة حقة ، وعبقرية فذة ، وهى الدعائم التى يقوم عليها اى ابداع عبقرى .

وأبطال سيمنون جميعا ، ماعدا المفتش مجرية ، وحيدون قلقون ، ولا يدرك القارىء بسهولة هل القلق مصدره الوحدة ، أم ان هذه جاءت وليدة ذاك ، لان الكاتب لا يفسر ولا يوضح ولا يخبر ، وكل ما يفعله هو التأكيد على هذا المعنى .

وبين لحظة واخرى يستطيع القارىء الواعى ، الواسع الثقافة ، أن يرد هذا القلق عند هؤلاء الابطال الى جذوره العائلية او الاجتماعية ، أو كلاهما ، فى بيوتهم بين أهليهم او بين جماعة من الناس حيث يعملون ، أو لأنهم ليسوا فى مكانهم المناسب ، أو لاحساسهم بانهم مرفوضون من المجتمع ، او لان مزاجهم متوتر ، أو اعصابهم ثائرة ، أو أنفاسهم ضيقة ، او عيشهم نكد ، وهم فى كل الحالات غير مندمجين مع الجماعة التى يعيشون فيها ، فهم يعانون ومختنقون ، او قل انهم صورة للمعاناة نفسها .

وهناك صفة اخرى مشتركة بين الذين يتحركون فى روايات سيمنون ، وهو احساسهم بالذل ، ولمواجهة هذا الموقف غير المحتمل فإن الشخصية اما ان تندمج فى المجتمع الذى تعيش فيه ، راضية بوضعها مهما يكن ، وإما ان تلجأ الى مقاطعته ، وفى كلتا الحالتين يصعب عليها ، وفى اعماقها على الأقل ، أن تدع القلق ، وإن تفارق الوحدة ، وقد تلتقى بواحدة من هاتين

المحاولتين ، وقد تلتقى بهما معا في الرواية الواحدة ، وفى هذه الحالة تبدو الجماعة التى تتحرك الاحداث بينها كأنها مرفأ امان من الخارج ، أما فى داخلها فهى السجن بعينه .

وفى كل رواية نلتقى ببعض الاسئلة التى تثير تفكير القارىء العادى ، وقد لا يجد لها اجابة مرضية ، لكنه سوف يهتم بها ، وقد تكون الاسئلة من جانبه ايضا ، ويظل يبحث لها عن اجابة ، ولهذا يعتبر النقاد الرواية النفسية فى إبداع سيمنون اهم من الرواية البوليسية ، لأن المفتش مجريه فى هذه الأخيرة وهو الذى يوجه الأسئلةالجيدة ، وهوالذى يجيب عليها ايضا .

فى نطاق الرواية البوليسية الغى سيمنون الحبكة المعقدة ، والذكاء الشيطانى ، والهلع والرعب ، والزخرفة اللفظية المبالغ فيها ، والسلاح ، واستعراض القوة ، والمشاهد الهستيرية ، والقضاة الاقطاعيين ، يجلسون الى المائدة ، ويقامرون بمبالغ كبيرة ، واحتفظ فيها بالتعب والروتين ، والمصابيح المضاءة نهارا ، والانفلونزا ، وسكان الضواحى ، والقلق والمقهى ، وعالم المرأة بكل الوانه وطبقاته وطعومه ، ووصف باريس حيث تصطدم بالوحشة والعزلة ، وتلتقى بكل ما تبقى فى عالم الرذيلة والفضيلة ، أو اللهو الجد على السواء .

والى جانب ما أضفاه سيمنون على شخصية مجريه من حيوية ولطف وعرف فى الوقت نفسه كيف يصوغ رواياته فى وضوح لايذهب بغموضها الذى تتطلبه رواية بوليسية ، ويحمل ظلالا شاعرية ، ويذكرنا بأفضل ما قدمته السينما الفرنسية من افلام : مصابيح الشوارع ، صوت عازف على الأوكورديون وحيدا ، الفنادق العتيقة ، صامتة ووقورة ويطل من بنائها نبل حزين ، والمطر المتواصل ، وصورة دقيقة للمناخ الذى تجرى فيه الاحداث

تبلغ حد الكمال ، وشخصيات غير معتادة فى الرواية البوليسية ، ذات ردود فعل انسانية وعادية وتتسع لكثير من الحيل ، والدسائس كما هو الحال عند كبار الكتاب .

● في مواجهة النقد :

هذه الخصوبة فى الانتاج ، وهذا التنوع الفنى ، والامتداد الزمانى ، والتعدد المكانى ، جعل اعمال سيمنون تؤلف لوحة متكاملة ، تصور كل المجتمع الفرنسي ، وفرضت اسمه على النقاد المحترفين ، وجعلتهم يضعونه فى مصاف بلزاك او فيكتور هيجو ،رغم ان وفرة الكم لاتعنى ارتفاع النوعية دائما .

ونظرة اجمالية على عالم سيمنون الروائى نجد انواعا لا حصر لها من القضايا والقراء ايضا ، وثار حوله خلاف لا حد له ، ومن اناس من كل الالوان والاجناس والاديان ، بقبوله او رفضه ، وفهمه اوالاعراض عنه ، وما أكثر مدمني الخمور الذين تخففوا من شرب الكحول بفضل كتاباته ، والمذلولين الذين اتجهوا لمعاونة غيرهم بتأثيره ، وكان يردد دائما : «تستطيع ان تصنع مع أى إنسان ما تشاء ، وحتى تقتله ، ولكن لا تذله . وهذه الرغبة فى فهم الانسان حتى فى سقوطه جعلته يطبق فى مؤلفاته رأى الكاتب الفرنسى اندريه مالرو : «تدين عندما لا تفهم ، اذا فهمت توقفت عن الادانة» . وعند سيمنون ليس هناك مخطئون ، وإنما هناك دائما ضحايا .

ولا تجد فى كتابات سيمنون تاريخا وانما ايقاع الحياة نفسها وقد فهم الحياة فى عصرنا بعمق ، وادرك مساربها ودروبها وخفاياها وبخاصة فى فرنسا ومن هنا جاءت الموازنة بينه وبين بلزاك .

لم يكن محبوبا من الصحفيين ، وكان يبادلهم المشاعر نفسها ، ويرى انهم يضيعون وقته ، فهم لا يسألون عن عمله وادبه بقدر ما

يسألونه عن أعداد «البايب» التى يملكها ، ولونها وتاريخها ، ومن اين اشتراها ، ونوع الطباق الذى يدخنه ، وعدد النساء اللائى عرفهن ، وفى اواخر حياته لم يكن يستجيب لمقابلتهم ، ويؤثر عند الالحاح ان يكون الحوار مكتوبا ، وان يسلم الى سكرتاريته التى تقيم فى بناء مستقل ، ويتعامل معها هاتفيا ، ورقم هاتفه ظل سريا لا يعرفه الا عدد محدود لا يتجاوز اصابع اليد .

ولم يكن محببا الى عالم النقد الفرنسى ، وكان هذا يضيقه بشدة عندما يشبه احد سيمنون ببلزاك او غيره من كبار الكتاب الذين هم من اصل فرنسى موطنا ، واكثر من هذا ربما ـ لانه كان يمهن كثيرا من التقاليد الفرنسية ، وبالتأكيد لانه كان يقف دوما فى الصف المقابل للمسيحية ، رغم ان اسرته فى البداية ـ ربما لعجزها عن الانفاق على تعليمه ـ فكرت فى ان تجعل منه قسيسا ، وكان هوالذى رفض بشدة . وكل ماقاله عن معجم لاروس الشهير ، انه كاتب يكتب على طريقة بلزاك ، وكتب عددا من الروايات البوليسية ، والروايات القصيرة ، وبعض المسرحيات ، وابتدع شخصية المفتش مجرية .

وكتب عنه الناقد بوردا يقول : «إنه يحتل مكانا غير مؤكد فى حقل الأدب الفرنسى .

بينما يرى فيه اخرون شيئا عظيما ، فقال عنه نيمييه : إن رواياته تعبق بروائح انسانية طيبة ، وقال عنه اندريه جيد قبيل الحرب العالمية الثانية : «سيمنون روائى عظيم ، ربما كان أعظم روائى ، أو الروائى الاكبر بحق فى الأدب الفرنسى اليوم» وعندما سئل ماذا يقرأ من رواياته اجاب : كلها !

غير ان كثيرين لا يشاركونه هذا الرأى ، يرون فيما يكتب سيمنون «ادب محطات» اشارة الى انه من لون الروايات التى تكثر فى محطات السكك الحديدية فى اوربا وامريكا ، ويرد سيمنون :

اعرف هذا ، ولكن هذه المحطات ترحل منها الأميرات ، واللائى يكتبن على الآلة الكاتبة ، وكلهن ، وما بيهن يقرأون رواياتى» .

وفى عام ١٩٧٩ ، بمناسبة مرور خمسين عاما على خلق شخصية المفتش مجريه ، حاولت عدة هيئات ان ترشحه لجائزة نوبل ، ولكنه اعتذر لها ، كما رفض ذلك ثلاث مرات من قبل .

● ولم يكن يعتبر نفسه اديبا ، ويرى ان الروائى والاديب شيئان مختلفان ، ثم يضيف : «انا حرفى صنعته الرواية» ولكنه حرفى عبقرى ورغم قولته هذه فهو اديب بحق ولكنه من اشد رجال القلم تواضعا في عصرنا ، وعندما قرر التوقف عن كتابة الرواية ذهب الى بلدية لوزان ، ورفع من بطاقته الشخصية مهنة «روائى» ووضع مكانها كلمة «بلا مهنة» ويقول ان تغيير المهنة ليس تواضعا منى ، وإنما مجرد تعبير عن الحقيقة لأنى لم أعد اواصل الكتابة ، ولم يعد ثمة سبب لكى احمل صفة روائى فى الوقت الحاضر» .

ومع كل هذا التواضع كان يعرف قدر نفسه ، وتنبأ ردا على الذين كانوا يهونون من أمره غدا بعد موتى ، سوف يطلقون اسمى ، في كل المدن التى عرفتنى وعشت فيها ، على احد شوارعها الهامة .

والحق ان التقدير العلمى جاء حتى قبل ان يموت .

فقد انشأت جامعة لييج المدينة التى رأى فيها الحياة لاول مرة ، مركزا للدراسات السيمنونية ، يقوم على تشجيع كل الابحاث التى تقوم على تحليل اعماله وتقييمها ، ومتابعة انتشارها وترجمتها ، فى اوربا وما وراء البحار ، والى هذا المركز اهدى سيمنون كل مكتبته ، ما قرأ والف وترجم من اعماله او كتب عنه . ومع موته فإن الحاجز الذى كان يحول دون ان تقال الحقيقة يتهاوى ، وحجاب المعاصرة يتمزق ، ويصبح سيمنون ، انسانا وتاريخا ومبدعا ، ملكا

للتاريخ وحده ، يقول فيه كلمة الحق بلا ضغينة ولا مجاملة ولا رياء .

● **هذه المرأة لي :**

تعودت مسارح لندن حين تعرض تمثيلية ذات طابع بوليسى ، وللكتاب الانجليز دور اساسى فى ابداع هذا النوع الادبى وتنميته ، والاقبال عليه ، ان توصى روادها بالا يتحدثوا الى اقربائهم او اصدقائهم او معارضهم عن شيء من مضمون المسرحية حتى لا يفسدوا عليهم بهجتها اذا ما جاءوا لمشاهدتها ، ذلك لأن هذا النوع ، رواية او قصة او مسرحية ، يقوم على دفع القارىء او المشاهد ، الى التفكير والمشاركة فى البحث عن المجرم ، والتنبؤ بالنهاية .

والرواية التى بين ايدينا من خيرة ما كتب سيمنون ، وهى بالقطع ليست رواية بوليسية ، ولو ان الكاتب استخدم تقنيات هذه فى مهارة شديدة ، ففيها تحليل نفسى عميق ، وتوظيف جيد للجنس ، وواقعية دقيقة ، ومن هنا لا يتوقع القارىء منى ، أن اقدم موجزا لها ، أو أن افك له مغاليقها ، حتى لا أفسد بهجته مستمتعا بها ، وبحسبى أن اقدم بين يديه بعض تقنيات الكاتب التى تعينه على ان يفهم ويحلل ويقيم ، وان يكون لنفسه رأيا مستقلا .

تقدم الرواية صورة امينة لقطاع من مجتمع برجوازى فى اوربا الغربية ويمكن ان تقع احداثها فى اى مكان من فرنسا ، وانت فيها بازاء مجتمع فاضل حقا ، يعمل وينتج ويفكر ، ويحترم مشاعر الناس وحرياتهم ومعتقداتهم ، ولكنه ليس خاليا من الرذائل ايضا .. فزوجة الطبيب تعشق رجل اعمال شديد الحيوية والنجاح ، والطبيب نفسه لا يتردد فى أن يقتل عشرة من مرضاه اذا كان هذا

يؤدي الى توسعة مستشفاه أو شراء عربية جديدة اجمل ، وعلى استعداد لان يزور شهادة طبية يؤكد فيها أن زوجة رجل الأعمال التي دست له السم مصابة عقليا حتى تفلت من العقاب ، وان يجعل احد زملائه ينضم اليه في التقرير ويوقعه معه .

وهناك ـ كما هنا ـ تتم عمليات ارساء المقاولات العامة عن طريق الرشوة ، رشوة المهندسين واعضاء مجلس الادارة ، وعبر الرواية تلتقي بالوان المخدرات منتشرة في عالم الطبقة العليا ، وبالصلات العاطفية المنحرفة بين السيدات ، وبنساء باردات مجردات من كل رغبة ، ورجال تذلهم لقمة العيش فهم غافلون عن واجباتهم الزوجية ، فيتولاها غيرهم ، وتجد الرجل مشغولا بالعمل ، والمرأة منهكة في البيت ..

ومن شاهد تلك البيئات بعينه لا يرى اية غرابة في الأحداث والوقائع والساذج او الجاهل وحده من يتصور ان ما يجرى في الرواية من وحي الخيال لأنه من الجمال .

وكثيرون يستطيعون ان يروا الا جديد في ماذكرنا لانه من الواقع المعاش ، ولكن الروعة تكمن في طريقة التعبير عنه ، فالكاتب يرعى بمقتضى اللحظة ، ويقدم لك ما يقول في فصول قصيرة ، وايقاع متوتر ، وحدث متواصل ، في لغة مركزة ، بعيدا عن الحشو الزائد ، والاسلوب الهابط ، وينقلك أنت بنفسك الى مسرح الاحداث. فتعيشها بدل ان ينقلها اليك فتقرأها ، ويمسك بك في مهارة حتى لا تفلت او تنسحب وهي تقنية ضرورية الان في عصر منافسة الصورة : تليفزيون او سينما او فيديو .

وقد استخدم الكاتب في الرواية ، بوعي وفن ، وفي عفوية قادرة متمكنة ، تقنية الارتداد والذكريات والاحلام وتيار الوعي (وهذه التقنية الأخيرة استخدمها بطريقة ساذجة) ، واذا كان كل فصل :

يسلمك للذى يليه ، دون ان تمل او يغلب عليك النعاس ، فان كل فصل ايضا يوشك ان يكون قصة مستقلة لها عقدتها وحلها .

وتعرض الرواية كثيرا لقضايا عاطفية دقيقة وحساسة ،ولكن الكاتب يعبر عنها دون ان يخدش حياء القارىء او يأتى بأى لفظ جارح ، وانما يكتفى دائما بالالماح والايماء .

واخيرا فان الالمام بحياة سيمنون نفسه يعين على فهم الكثير من تقنية واشاراته فى الرواية ، ومن هنا كان الحديث عنه انسانا وفنا ، واذا غمت عليك جوانب من الرواية بعد الانتهاء من قراءتها ، فعد الى قراءة المقدمة من جديد .

الطاهر احمد مكى

شخصيات الرواية

* فرانسوا دونج Francois Donge : رجل أعمال شديد الحيوية ناجح .
* فليكس دونج Felix Donge : شقيقه الأصغر وشريكه
* چان دونج Jeanne Donge : زوجة فليكس
* بيبى دونج Bebe Donge : أختها الصغرى وزوجة فرانسوا
* مدام دونفيل Mme D'Onneville : والدة الزوجتين
* چاك Jacques Donge : ابن فرانسوا وبيبى
* كلو Clo : طاهية
* مارت Marthe : وصيفة
* جاليبر Galiber : طبيب
* بينو Pinaud : طبيب
* ليفير Levert : طبيب
أدونى Adonie : راهبة
* جيفر Giffre : قاضيالتحقيق
* مدام فلامان Mme Flament : سكرتيرة فرانسوا الخاصة
* الاستاذ بونيفاس Mre Boniface : محام

الفصـل الأول :

يوم الأحد

فى بعض الاحيان قد تستطيع ذبابة تكاد لا تدركها العين أن تغضن وتعكر ســـــطح بحيرة ساكنة ، بما لا تستطيعه حصاة كبيرة تلقى فيها .

وذلك ماحدث بالضبط بعد ظهر يوم من أيام الآحاد، ذات صيف ، فى مزرعة البلوط ، ومزرعة البلوط هـو الاسم الذى أطلقه أصحاب تلك الفيلا على مقرهم الصيفى فى الريف .

وفى أيام الآحاد الاخرى كانت الامور تمضى هناك على وتيرة واحدة ، أللهم الا مرآت معدودات اعتبرتها اسرة دونج أياما تاريخية ، مثل ذلك اليوم من أيام الاحد الذى هبت فيه عاصفة من الصواعق فسقطت شجرة بعد قيام الوالدة من تحتها بثلاث دقائق . أو ذلك اليوم الآخـر من أيام الاحد الذى نشب فيه الخلاف واشتد بين فرعى الأسرة فدبت ألنفرة بينهما عدة أشهر .

اما هذا اليوم المعين من أيام الآحاد فيمكن أن نسميه يومالمأساة الكبرى : مع أنذلك اليوم بدأ وانساب هادئا هدوءا أشبه بانسياب جدول من الماء الرقراق على مهاد مستو من الأرض .

ففى نحو الساعة ألسادسة صباحا استيقظ فرانسوا دونج ، وذلك هو الموعد الذى كان من عادته أن يستيقظ

فيه حين يكون فى الريف ؛ وعلى الأثر غادر حجرة النوم على أطراف أصابعه . وربما لم تسمعه زوجته وهو يغادر الحجرة وان كانت قد سمعته ، فلم يظهر عليها ما يدل على ذلك ، ولو باختلاجة من أهدابها .

وان شئت تاريخ ذلك اليوم بالضبط فهو العشرون من شهر أغسطس . وكانت الشمس فى تلك الساعة قد برزت بقرصها فوق الأفق . أما لون السماء فكان أزرق خفيف الزرقة ، أشبه ما يكون بلون الماء . وكانت الأعشاب والحشائش فى الحديقة مبللة ينتشر منها عبق فواح .

والم فرانسوا بالحمام الملحق بحجرة النوم ، فلم يزد هناك على أن تخلل شعر رأسه بمشط ، ونزل وهو بالمنامة والخف الى المطبخ حيث كانت « كلو » الطاهية فى قميص نومها تصنع القهوة : وما أن رآته كلو العجوز حتى كشفت عن فخذيها الشاحبتين فاذا فيهما بقع وبثور حمراء ، وقالت :

ـ لقد أكلتنى لدغات البعوض مرة أخرى هذه الليلة!

فطيب خاطرها بعبارة موجزة ، ومن عينيه أطلت نظرته الساخرة المعهودة ، ومضى يشرب قهوته ثم خرج الى الحديقة . حيث مكث بها الى الساعة العاشرة . فماذا صنع طيلة ذلك الوقت بالضبط ؟

انه فى الواقع لم يصنع شيئا مذكورا : ألم بحديقة الخضراوات فلاحظ أن شجيرات الطماطم بحاجة الى أعواد من البوص تتعلق بها . ووضع فى ذهنه أن يخاطب فى ذلك الشأن البستانى العجوز « بابو » عندما يحضر فى الصباح . وأضاف الى هذه الملاحظة ملاحظات أخرى تتعلق بالباذلاء وغيرها من النباتات التى تحفل بها حديقته .

وبعد قليل انفتحت المصاريع الخشبية فى احـــدى حجرات الطابق العلوى واطل من النافذة رأس طفل . وكان هذا الطفل هو ابنه « جاك » .

وحيا فرانسوا ابنه الوحيد بتلويح يده . فلوح الطفل بيده لأبيه .

وكان جاك مرتديا ازار الاستحمام الابيض ، ويبدو وجهه تحت هالة شعره الغزير نحيلا ، وقد أحاطت بعينيه دائرتان قاتمتان .

وكان أنف جاك طويلا مدببا كأنف أبيه . وكان الشبه بين الأنفين صارخا . وبسبب هذا التشابه وحده لم يكن فى وسع فرانسوا أن ينكره ، أما من جميع النواحى الأخرى فكان الفتى شبيها بأمه ، ولاسيما فى تلك الدقة والرهافة التى توحى اليك انك أمام دمية من الخزف الهش ، بل ان زرقة عينيه كانت تلك الزرقة المعهودة فى الخزف !

وكانت « مارت » الوصيفة بسبيل الباس الصبى ثيابه بعد الحمام .

والحق أن الحجرات كانت تغمرها اشعة الشمس، والبيت فى جملته بهيج . بل انه يعتبر حقا البيت الريفى النموذجى كما يحلم به سكان المدن . فلم يعد هناك أى اثر لذلك الكوخ القروى الذى كان المرحلة الابتدائية فى انشاء هذا المصيف العائلى ، بل قام بناء رشـــيق له شرفات واسعة ، ويحف به بستان من أشجار الفاكهة يغدو فى أيام الربيع فتنة للانف والعين . ومن وراء ذلك غابة خاصة صغيرة يخترقها جدول نمير رقراق .

واخذت النواقيس تدق . وكان البرج المربع العالى

القائم فوق كنيسة قرية أورانى يبدو بقمته من فوق أشجار التفاح فى الحديقة . أما من وراء سور الاعشاب فهناك طريق صخرية صاعدة . وفوق صخور ذلك الطريق سمع فرانسوا وقع أقدام جيرانه الريفيين وهم فى سبيلهم لحضور القداس . بل كان يستطيع أن يسمع أيضـــا انفاس الفلاحات وهن يلهثن صاعدات . وكان من الطريف حقا أن تسمع الناس من غير أن تراهم . فاذا حـديثهم ثرثرة متصلة الى ان يصلوا الى بداية السفح . ثم تتباعد الكلمات حين يشرعون فى الصعود . حتى اذا صاروا فى منتصف المرتفع توقفوا فى وسط عباراتهم ليســتأنفوا الكلام حينما يبلغون قمة التل

وظل فرانسوا يتتبع هذه الظاهرة برهة ، ثم ذهب الى ملعب التنس واخذ بعده اعداد الهاوى الخبير . ولعل الساعة كانت قد بلغت التاسعة عندما شاهد ابنه قادما نحوه فى ملعب التنس ، حاملا فى احدى يديه قصبة صيد السمك . وقال لابيه :

ــ اربط لى الشص جيداً

وكان جاك فى الثامنة من عمره ؟ ذا ساقين طويلتين نحيفتين ، وله فم صغير ملىء أحمر كأنه برعم وردة . أليق مايكون بثغور الفتيات

وسأله أبوه :

ــ هل استيقظت أمك ؟

ــ لا أدرى !

وأسرع الصبى يجرى فى اتجاه الجدول فى الغـابة الصغيرة . ولم يكن قد وفق الى صيد شىء من قبل . ولكن الحظ حالفه فى هذا اليوم وبالذات من أيام الأحد ،

فتعلقت بشصه سمكة صغيرة . وخاف الصبى أن يلمسها بيده . ووقف مبهور الأنفاس كالمرتاع ثم صاح :
ـ أبى ! سمكة ! ... تعال بسرعة !
وأسرع فرانسوا دونج لنجدة ابنه ، وبعد قليل عاد متجها نحو (الصوبة) . واذا بالطباخة كلو قادمة من الطرف الآخر للممر وهى فى حالة من الانفعال شديدة .
فسالها فرانسوا :
ـ ماذا بك ياكلو ؟
فقالت بلهجة تفيض أسى :
ـ لقد نسيت عيش الغراب هذه المرة أيضا .
ولا يمكننى ان اطهو الدجاج على الطريقة الجبلية بدون عيش الغراب .
وكان هذا النسيان يتكرر كل يوم احد ! لان فرانسوا كان يقوم بالتسويق لكل أيام الاسبوع فى صباح السبت . فيكدس فى سيارته جميع الاشياء المطلوب منه أن يشتريها ، وذلك من قوائم يعطيها أياه كل فرد فى البيت . وكانت أهمها قائمة كلو الطباخة ، التى تكتب دائما بخط كبير على قصاصة من الورق البنى الذى يستعمل فى التغليف .
وسالها فرانسوا :
ـ أواثقة أنت انك ذكرت عيش الغراب فى قائمتك
ـ كل الثقة
ـ ولم تجديه فى السيارة
فهزت الطاهية العجوز راسها وكتفيها بصبر نافد ، وقالت :
ـ ولماذا اتيت اليك ان كنت قد وجدته فى السيارة !
فذهب فرانسوا ليرتدى ثيابه . واصاغ السمع قليلا

عند باب حجرة النوم . فلم يسمع أقل صوت يدل على يقظة زوجته .

ولم يكن فرانسوا دونج طويل القامة . وكان نحيفا بيد انه صلب العود ، له ملامح رقيقة وانف طويل مدبب لا يختلط بغيره من الانوف ، فهو اشبه بالعلامة المميزة . وله عينان ساخرتان النظرة . حتى ان زوجته بيبى دونج كثيرا ما كانت تقول له :

ــ لا تنظر الى على هذا النحو كأنك تسخر من العالم اجمع !

وبيبى معناها الطفلة ! وياله من اسم عجيب ! وهاقد مضت عشر سنوات على زواجهما ولم يتغير هذا الاسم بعد . ولكن يقال له دائما ، كلما اعترض على غرابة الاسم :

ــ وماذا فى ذلك ؟ بهذا الاسم يناديها الجميع منذ ولادتها .

وأخرج فرانسوا السيارة من الجراج على عجل . ثم نزل ليفتح البوابة البيضاء ، وخرج بالسيارة ثم اغلقها مرة ثانية ، وليس فى الذهاب والعودة كبير مشقة ، فالمدينة لاتبعد أكثر من خمسة عشر كيلو مترا .

وكانت الطريق مزدحمة بالدراجات . ولا سيما فى منطقة جبل النسيم العليل ، حيث يضطر الناس الى حمل دراجاتهم عند الصعود . وعلى حفافى الخمائل سلال صغيرة ولفافات بها أطعمة مما يحمله المتنزهون فى الخلاء .

ولما رأى فرانسوا ذلك المنظر ، تذكر وهو الذى يحرز رخصة للصيد انه عندما يأتى الشتاء ويبدأ موسم الصيد ،

سيكون حطام الزجاجات متناثرا بين الشجر يتعثر به الصيادون .

واخترق القنطرة ودخل شـــارع المدينة الرئيسى المستقيم وكان شبه مقفر لأن معظم الحوانيت مغلقـة . فكان ذلك الاغلاق سببا فى استلفات النظر الى لافتـبات الحوانيت . ولفتت نظر فرانسوا على الخصـــوص تلك البيبة الكبيرة الحمراء البارزة فوق حانوت بائع الطباق . ثم راس الخنزير المعلق فوق حانوت الجزار .

وكان محل البقالة الكبير من المحلات القليلة المفتوحة يوم الاحد . وفغمت انف فرانسوا الطويل رائحة الجبن . ودخل فرانسوا وطلب كمية من عيش الغراب . ثم لفتت نظره اكياس الحلوى ، فقال :

ــ واعطنى ايضا كيسا صغيرا من الحلوى لابنى

ــ وكيف حال السيد جاك ؟ لا شك فى أن هواء الريف قد اجدى عليه كثيرا . وكيف حال مدام دونيج ؟ الا تضجر من الاقامة وحدها ؟

وهذا الكيس من الحلوى بالذات نسى فرانسوا أمره بعد أن وضعه فى جيبه فلم يعطه لابنه فى ذلك اليـوم . ولم يكتشفه فرانسوا الا عنـدما رأى بدلته هـذه مرة اخرى بعد ثلاثة أسابيع . وكانت الحلوى قد تلاصـقت وتماسكت بفعل الحرارة . ثلاثة أسابيع ...

كلمة يقولها الناس عادة من غير أن يلقوا اليها بالا . كان يقولوا :

ــ بعد ثلاثة اسابيع

او يقولوا :

ـ منذ ثلاثة أسابيع

ولا يتصورون أي تغير يمكن أن تحدثه في حيـــاتهم برمتها ثلاثة أسابيع ، أو ربما بضع ساعات من الزمن !

فمن ذا الذى كان يتصور أن بيبى دونج ســـتكون بعد ثلاثة أسابيع نزيلة السجن ! . . . وهى المرأة الرقيقة الجميلة الرشيقة ، الى غاية ماتوصف به امرأة من الجمال والرقة والرشاقة !

وبحسبك أن تعلم ان الناس لم يكن من عادتهم أن يتحدثوا عنها كمايتحدثون عن سائر النساء أو كمايتحدثون مثلا عن اختها جان . فحينما يقول اى انسان :

ـ لقد قابلت جان فى حانوت صانعة القبعات بالأمس

يقول ذلك بحالة طبيعية للغاية وبسيطة للغاية . لأنه قابل جان دونج، المرأة القصيرة المليئة القد الكثيرة الحركة، زوجة فليكس دونج . فالشقيقتان تزوجتا الشقيقين . وليست مقابلة جان حدثا فى حياة اى شخص

أما اذا قال انسان :

ـ لقد ذهبت الى مزرعة البلوط ورأيت بيبى دونج..

فهذا الانسان سيشعر انه لم يتم عبارته بهذا القول . بل يجب أن يضيف الى ذلك الخبر تعليقا من قبيل :

ـ يالها من امرأة رائعة !

ـ انها جميلة جدا كالعهد بها !

ـ ما من امرأة فى العالم تعرف كيف تختار ثيابهـــا مثل بيبى دونج !

بيبى دونج ! لوحة فنية ! كائن اثيرى خرج لتوه من

بين صفحات ديوان شعر ! كائن لا يوحى بان له جسدا !
فمن ذا الذى يتصور بيبى دونج نزيلة فى سجن ؟!

ولكن لنترك حوادث المستقبل القريب للمستقبل القريب . ولنعد الى فرانسوا وهو يقود سيارته آفلا الى بيته الريفى ...

لقد فكر فى أن يتريث قليلا عند المقهى الكبير ليشرب كأسا بمثابة فاتح للشهية . ولكنه قاوم هذه الرغبة حتى لا يتأخر على كلو الطاهية التى تنتظر عيش الغراب لاعداد الغدأء .

وفيما هو يصعد التل أدرك سيارة شقيقه فليكس وتجاوزها . وكان فليكس أمام عجلة القيادة . والى جانبه جلست مدأم دونفيل البدينة ألوقور حماة الشقيقين ، وقد ارتدت ثوبا كثير التهاويل كعادتها . وفى المقعد الخلفى جلست زوجته جان مع طفليها . وكان برتران القصير النحيف آلبالغ من العمر عشر سنوات مطلا من نافذة السيارة فلوح لعمه بيده

ووصلت السيارتان ، الواحدة وراء الاخرى الى بوابة الحديقة البيضاء . وعندئذ قالت الحماة :

ـ لا ادرى ماذآ جنيت يافرانسوا من تجاوزنا ؟

ولم تنتظر جوابا ، بل نظرت آلى النوآفذ المفتوحة فى الطابق العلوى وقالت على الفور :

ـ هل استيقظت بيبى ؟

ولكن الثلاثة انتظروا بيبى دونج نصف ساعة كاملا ،

لأن بيبي قضت كعادتها ساعتين في التجميل . ثم أقبلت كالحلم الجميل :

ــ مرحبا ياأماه . مرحبا يا فليكس . هل نسيت هذه المرة أيضا يافرانسوا ؟

ــ عيش الغراب

ــ آه ! أرجو أن يكون الغداء قد تم اعـــداده ... يا مارت ! هل أعددت المائدة في الشرفة ؟ ترى أين ذهب جاك ؟ .. يا مارت ! أين جاك من فضلك ؟

ــ لم أره ياسيدتي

وعندئذ قال فرانسوا :

ــ لابد أنه عند الجدول . كاد يجن هذا الصباح فرحا لأنه تمكن أخيرا من صيد سمكة

ــ ولو بلل قدميه بالماء للزم الفراش أسبوعين !
وأقبلت ماري تقول :

ــ هاقد أقبل السيد جاك ... والمائدة تم اعدادها

ونهض الجميع للغداء ، وكانت حرارة الشمس على أشدها والجراد قد لزم أطراف العشب .

الفصل الثاني :

لا أدرى

وعلى المائدة . علام دار الحديث بين هؤلاء ؟

دار أولا وقبل كل شىء حول الدكتور جاليبر ، وحول مستشفاه الخاص الجديد الذى شرع فى بنائه بالمدينة . وبالطبع كانت السيدة دونفيل هى التى فتحت موضوع الدكتور جاليبر . ولم يفتها بالطبع أيضا أن تسترق نظرة الى ابنتها بيبى دونج ثم الى فرانسوا . ولم يكن بالبعيد عليها البتة أن تقول لابنتها :

ـ خيبك الله ! الا تعلمين أن زوجك بينه وبين مدام جاليبر الحسناء علاقة غرامية وطيدة ؟ ان المدينة كلها لا حديث لها الا عن هذا الموضوع ... بل ان البعض يقولون أن الدكتور جاليبر على علم تام بذلك ، ولكنه يؤثر أن يغمض عينيه .

ومهما يكن من شىء فان بيبى دونج لم تظهر أى انفعال او تاثر عندما ذكر اسم جاليبر . بل استمرت تأكل بأناقة تامة وقد ارتفع خنصرها فى الهواء بعض الشىء . والحقيقة أن يديها كانتا آيتين من آيات الفن البديعة .

اتراها كانت مصغية لما يقال ؟ أم تراها كانت تفكر فى شىء آخر ، ان كل ما قالته على كل حال خلال الوجبة بطولها هو :

ـ كل كما يليق . واحترز يا جاك ...

فهاهنا شقيقان وشقيقتان شاء القدر أن يجعل منهم ازواجا بعضهم لبعض . وكان من عادة الناس فى المدينة اذا ذكروهم أن يقولوا :

ـ الاخوة دونج ...

فليس من المهم أى الشقيقين قابل الواحد منهم ، ومع ايهما عقد الصفقة . فليس من فارق بين الشقيقين فى السن سوى عامين . وكان الناظر اليهما يحسبهما لفرط الشبه بينهما توأمين . فذلك الأنف المشهور ، أنف آل دونج المميز ، يبرز من وجه فليكس . أما قامتهما ووزنهما فواحد . فكان فى استطاعة كل منهما أن يرتدى ثياب اخيه . كان ذوقهما فى الالوان واحدا . ومعظم حللهما من درجات متفاوتة من اللون الرمادى .

بل ان التشابه بينهما يتجاوز السحنة الى الذهن . فلم تكن بهما حاجة الى التفاهم بالكلام . وحين يلتقيان كاليوم على المائدة بعد فراق اسبوع كامل قضاه فرانسوا بالمصيف وقضاه فليكس بالمصنع ، فكأنهما لم يفترقا ساعة .

وقد لا يكون فليكس صلب العود مثل اخيه فرانسوا، ولكن فرانسوا هو صاحب الكلمة العليا . وذلك أمر يشعر به المرء فى كل شىء . بيد أن فليكس هو الذى تزوج جان المتميزة بين الشقيقتين بالنشاط الجم والحيوية الدافقة ، واستقلال الرأى والسلوك . فهى تشعل سيجارة فى فترة ما فيما بين طبقين من الطعام ، متجاهلة نظرة التقريع التى ترميها بها أمها ، حتى تضطر الام الى ان تقول :

ـ ياله من مثل يحتذيه اطفالك !
فقالت جان بغير مبالاة :
ـ اتظنين برتران لا يدخن سرا ؟ لقد ضبطته أول أمس يختلس السجائر من صندوقى !
فتدخل برتران فى الحديث قائلا :
ـ ذلك لانى لو كنت طلبت منك سيجارة لما اعطيتنيها !
فنظرت جان الى امها نظرة ذات مغزى وقالت :
ـ ها قد سمعت باذنيك !
ولم يسع مدام دونفيل سوى ان تتنهد .
وليس بين مدام دونفيل وبين الشقيقين دونج اية صفة مشتركة . فهى قضت الجانب الاكبر من حياتها فى الاستانة . حيث كان زوجها مديرا لترسانة الميناء . وفى تلك المدينة العريقة كانت تعيش فى مجتمع مثقف معظم اعضائه من الدبلوماسيين ومن اليهم . ولذا تراها الآن مرتدية ثوبا يصلح للاستقبال فى احدى السفارات .
وانتهت وجبة الغداء ، فقالت بيبى :
ـ يامارت ! قدمى القهوة والاشربة فى الحديقة .
وقال برتران :
ـ اتلعب التنس معى يا جاك ؟ انستطيع ان نلعب معا، يا خالتى ؟
ـ بعد أن يتم هضم غذائه . تنزها بالسير فى الغابة اولا ، ثم ان الجو حار للغاية .
وكانت مائدة الحديقة قائمة فى ظل احدى المظلات التى تستخدم للشواطىء ، ذات لون برتقالي ، واسعة المحيط . اما الحصباء من تحتها فحمراء داكنة . وعلى مسافة

قريبة منها صف من الكراسى الطويلة ، شبيه بما يكون على ظهور السفن .

وتخيرت جان لنفسها مقعدا تمددت فيه بطولها . واشعلت سيجارة أخرى أخذت تنفث دخانها نحو السماء التى أخذ لونها الآن يضرب الى اللون البنفسجى . وقالت لزوجها :

ـ صب لى كاسا من البراندى يا فليكس

فقد كان من عادتها أن تشرب كأسين أو ثلاثا بعد الغداء

وكانت بيبى تصب أقداح القهوة ، وتقدم لكل شخص منهم فنجانه . فأخذت تسأل :

ـ قطعة واحدة من السكر يا أمى ؟ ... وأنت يا فرانسوا ؟ قطعتين ؟ أتريد شيئا من الكونياك يا فليكس؟

فكان هذا اليوم من أيام الاحد كسائر أيام الاحد فى ذلك الموضع . وقد سكن الهواء وارتفع طنين الذباب . وتقاذف الجميع عبارات متراخية فى كسل . وكانت مدام دونفيل تتحدث عن الاسهم التى توظف فيها ثروتها . وبعد قليل قالت بيبى دونج :

ـ وأين الاطفال ؟ .... يامارت ! اذهبى وانظرى ماذا يصنعون .

وبين الحين والحين ، كانت تبرز من فوق سور الحشائش رءوس راكبى الدراجات . اما السائرون على الاقدام فلم يكن يظهر منهم شىء ، وان كانت أصواتهم تصل الى السمع .

وبعد ذلك كان الشقيقان يسيران جنبا الى جنب نحو

ملعب التنس ، ويظل صوت تقاذف الكرات بالمضارب متواترا الى نهاية فترة بعد الظهر .

كان ذلك هو الذى يحدث كل يوم من ايام الآحاد . ولكن الأمر لم يسر على ذلك النهج فى هذا اليوم بالذات . فبعد أقل من ساعة على اثر الانتهاء من تناول القهوة ، نهض فرانسوا واتجه نحو البيت . وسألته بيبى دونج من غير أن تلتفت الى ناحيته :

ــ الى اين انت ذاهب ؟

ــ سأعود حالا

ولما اقترب من البيت بدأ يسرع فى السير . وسمع الموجودون فى الحديقة على أثر ذلك صوت ابواب تصفق، وضجة صادرة عن حجرة الحمام . فتساءلت مدام دونفيل :

ــ هل اصيب بعسر هضم ؟

فأجابت بيبى قائلة :

ــ لا ادرى ... انه فى العادة يستطيع ان يهضم اى شىء .

وسكتت الأم هنيهة ، ثم قالت :

ــ خيل الى أن وجهه كان شاحبا منذ قليل .

فقالت الزوجة مرة اخرى :

ــ مع أنه لم يأكل شيئا عسر الهضم على مائدة الغداء.

وكان الاطفال يجرون غادين رائحين . وبعد دقائق قليلة انقضت فى صمت ، سمعوا فجأة فرانسوا ينادى من البيت قائلا :

ــ فليكس !

وكان صوته ذا رنة غريبة جدا ، حتى أن فليكس وثب

واقفا على قدميه وأخذ يجرى نحو البيت . وجعلت مدام دونفيل تدقق النظر الى جهة النوافذ المفتوحة ، ثم قالت :

ـ ليت شعرى ما الذى حدث له ؟

، فغمغمت ابنتها جان قائلة ، وهى مستلقية على المقعد الطويل غارقة فى تأمل الدخان المتصاعد من سيجارتها :
ـ وما الذى يمكن أن يصيبه ؟

فقطبت مدام دونفيل حاجبيها وقالت :

ـ اظن ان هناك من يتكلم فى التليفون !.
وكانت الأصوات تصل فى سكون الحديقة الى السيدات بوضوح . فسمعن صوت دوران يد التليفون ثم صوت فليكس :

ـ آلو ... انا اعلم ان المكتب مغلق اليوم ولكن هذه اشارة اسعاف ! اعطنى من فضلك رقم ١ فى أورانى . نعم الدكتور بينو . أتظن أنه خرج لصيد السمك ؟ ... اطلبه فى هذا الرقم على كل حال ... أهذا هو الدكتور بينو ؟ ... هنا مزرعة البلوط .. أتقول انه وصل فى هذه اللحظة ؟ ... قل له يحضر الى هنا بأسرع ما يمكن .. هذا لا يهم ! ... نعم حالة عاجلة جدا .. كلا كلا .. قل له يأتى كما هو على الفور !

وتبادلت السيدات الثلاث النظرات ... ثم قالت مدام دونفيل وهى تلتفت نحو ابنتها بيبى دونج فى استغراب :

ـ الا تنوين الذهاب لترى ماذا حدث ؟
فنهضت بيبى ومشت نحو البيت . ولم يطل غيابها

اكثر من بضع دقائق . فلما عادت كانت هادئة جـدا كالمعتاد ، وقالت :

ـ لقد اغلقا على أنفسهما باب الحمام وهما بداخله معا . ولم يسمحا لي بالدخول . ولكن فليكس يؤكد أن الأمر غير خطر .

فرفعت أمها حاجبيها ، وقالت :

ـ الامر خطر أو غير خطر ... ولكن ما هو ؟

ـ لست أدرى .

ووصل الدكتـور بينو راكبا دراجتـه ومرتديا ثوبا رماديا مما يستخدم لصيد السمك . وابصرت السيدات الثلاث على وجهه حين مر بهن علائم الدهشة ، اذ رآهن مستلقيات فى استرخاء وهـدوء تحت مظـلة الحـديقة البرتقالية اللون ، وسالهن :

ـ هل وقع حادث لأحد ؟

فأجابت بيبى قائلة بهدوء :

ـ لا أدرى يا دكتور ... فزوجى فى الحمام ... ساريك الطريق .

وانفرج باب الحمام بقدر ما سمح للطبيب بالمرور ثم اغلق دون بيبى دونج التى ظلت واقفة لا تتحرك فى البهو .

وفى الحديقة استبد القلق بمدام دونفيـل فنهضت وجعلت تتمشى جيئة وذهابا تحت الشمس الشـديدة الوطأة وهى تقول :

ـ لا أدرى ما الذى حدا بالاثنين الى تكتم كل شىء عنا ... وبيبى ؟ ماذا تصنع بيبى ... انها هى الاخرى لم تعد الينا !.

فقالت جان لأمها :

ــ هدئي روعك يا أمي . والا أصابتك نوبة من نوباتك المعهودة . وما جدوى الانفعال ؟.

وانفتح باب الحمام مرة أخرى وخرج منه الطبيب بدون سترته ، وقد شمر كمي قميصه ، وأمر بيبي دونج التي رآها واقفة في عتمة البهو قائلا :

ــ أعطيني ماء في درجة الغليان .

ــ كم تريد منه ؟

ــ أكثر ما يمكن .

فنزلت بيبي الى المطبخ . وكانت مرتدية ثوبا قطنيا لونه أخضر فاتح ، وشعرها ذهبي باهت . وقالت للطاهية بكل هدوء :

ــ كلو ! ... احملي الى الحمام من فضلك جانبا من الماء الساخن في درجة الغليان .

فقالت الطاهية بلهفة :

ــ لقد رأيت الطبيب داخلا ... هل السيد دونج مريض ؟.

وبهدوء تام أجابتها بيبي قائلة :

ــ لا أدري يا كلو ... خذي على كل حال الى الطبيب شيئا من الماء الساخن في درجة الغليان .

ــ كم لترا ؟.

ــ أوه . قال انه يريد أكبر كمية ممكنة .

ولما صعدت الطاهية «بسطلين» كبيرين من الماء الساخن انفرج باب الحمام قليلا ولكن لم يسمح لها بالدخول . بيد أنها لمحت ساقين وقدمين على الارض في حالة تشنج . فكأنما رأت جثة !

وكانت الساعة الثالثة بعد الظهر . والاطفال ليس لديهم علم بما جرى . فاندفعوا الي ملعب التنس ، وكان صوت جاك يتردد فى البيت وهو يصيح فى وجه جان بنت عمه فى الملعب :

ـ أنت لا تعرفين كيف تلعبين ... أنت صغيرة جدا .

وكانت جان فى السادسة من عمرها . فانفجرت باكية واسرعت نحو امها التى قالت لها كالعادة :

ـ هذه مسالتك أنت يا عزيزتى ... ولا شان لى بها.

وكانت مدام دونفيل واقفة تحملق نحو نوافذ الحمام ، فقالت لها جان :

ـ هل لك أن تناوليني سجائرى يا اماه ؟.

وفى غير هذا الظرف كانت مدام دونفيل حرية أن تستنكر من ابنتها أن تسترخي فى مقعد هزاز ، ثم تطلب من أمها أن تحضر لها سجائرها من فوق المنضدة . أما هذه المرة فتاولت جان السجائر من غير تفكير . لانها كانت ترقب بيبى التى ظهرت خارجة من الباب وقادمة نحوهما فى هدوئها المعتاد .

ـ ما الخبر ؟.

ـ لا أدرى ... كانوا اثنين فأصبحوا ثلاثة يغلقون على انفسهم باب الحمام باصرار .

فرفعت أمها حاجبيها ، وسألتها :

ـ الا ترين ذلك غريبا ؟

وعندئذ فقط اظهرت بيبى دونيج شيئا يسيرا من توتر الحدة :

ـ وماذا تنتظرين منى ان اقول يا أماه ؟ انا لا ادرى شيئا أكثر مما تعلمينه أنت عن هذا الموضوع .

فاستدارت جان وهى مستلقية فوق مقعدها محاولة ان ترى شقيقتها بوضوح . اذ أدهشها ان تسمع بيبى ترفع صوتها . ولكن اختها كانت قد اختفت عن نظرها . واطلقت مدام دونفيل زفرة عميقـة تدل على ضيقهـا الشديد .

ترى لماذا يغلقون الآن نوافذ الحمام ايضا ؟ وكان فليكس هو الذى اغلقها . وعندئذ سمع صوت فليكس يقول :

ـ أريد ذلك يا دكتور .

وفى ذلك الوقت اخذت نواقيس الكنيسة تدق ايذانا بصلاة بعد الظهر .

الفصل الثالث :

الهام

انه الآن يعلم انه لم يكن مخطئا . ولم يكن الأمر يعدو بطبيعة الحال بارقة من بوارق الالهام . بيد ان ذلك الالهام كان أرسخ عنده وايقن من كل دليل . ولكنه لم يعر ذلك الالهام التفاتا في حينه ، بل ظل جالسا في مقعده الهزاز ، وعيناه نصف مغلقتين ، وقد تراخى جسده بفعل حرارة الغذاء وحرارة الشمس معا !.

وان وضوح تذكره لهذا الالهام لعجيب حقا . كانه راى بعين الغيب خطر تلك اللحظة فسجل المنظر في واعيته تسجيلا فوتوغرافيا .

وكانت حماته جالسة بجواره ، عن يساره ، متجهة اليه نصف اتجاه . وكان انعكاس الضوء على الحصباء الداكنة يلقي وهجا دافئا على كل شيء حوله . فلم يكن وشاحها القطني يبدو له وهو غير ناظر اليه الا كبقعة بنفسجية اللون على شبكية عينيه . وعلى قيد خطوة كانت جان مستلقية في ثوبها الابيض فوق مقعدها الطويل .

وكانت المنضدة بمظلتها البرتقالية ذات الطنف في مواجهة فرانسوا تماما على مسافة يسيرة . وكانت مارت قد فرغت لتوها من وضع خوان القهوة فوق المنضدة ، واتجهت عائدة الي مبنى البيت . ووقع قدميها الثقيل يصل خافتا الى اذنيه .

أما بيبى فكانت واقفة أمام المائدة وظهرها اليهم . وكانت هى هدف نظرات فرانسوا بعينيه الصغيرتين اللتين تفيضان سخرية وتهكما ، حتى أن بعض الناس كانوا يرون فيها قسوة شديدة . فهل كانت هذه حال نظرته دوما لأنه حريص على أن يرى الاشياء كما هى ؟.

هاهو مثلا يرى زوجته وظهرها الي جهته بحيث يخفى جسمها كل ما يوجد أمامها على المائدة . ولكنها بما يبدو من وضع ذراعها كانت تصب القهوة . وما من شك فى أنها كانت رشيقة جدا فى تلك اللحظة ، ووجها الساهم غير المكترث يبدو فى أحسن حالاته بفضل ذلك الثوب الاخضر الشاحب الذى صنعته خير دور الازياء فى باريس .

والحق أن فرانسوا لم يكن موجها كل انظاره الى زوجته فى تلك اللحظة الا بسبب ذلك الثوب . وهو يذكر جيدا انه لاحظ على الثوب شفافية واضحة . « كان الضوء ساقطا عليها . فقد استطاع أن يرى فى وضوح ساقيها الطويلتين النحيلتين وفخذيها ، وأستطاع كذلك أن يحدد بالضبط أين تنتهى ملابسها الداخلية !

واسلمته رشاقة ساقيها الطويلتين الى التفكير فى ذلك النوع الفاخر الشفاف من الجوارب ، الذى تصر بيبى دائما على ارتدائه ، حتى وهى مقيمة فى الريف .
وزاد وميض السخرية فى عينيه حين تذكر أن تلك المرأة التى لم تتح لها الفرصة منذ اشهر ، واشهر أن تنضو ثيابها أمام رجل ، تحرص دائما على ارتداء ثياب داخلية أرق وأبذخ وأشهى مما ترتديه أية غانية كل همها اغواء الرجال واثارتهم .
ولا يخطرن ببال احد أنه أدار تلك الامور فى ذهنه

وهو ينظر الى زوجته متسخطا عليها أو متبرما بها بل هي ملاحظات عملية لابد ان تخطر لرجل عملي الذهن مثل فرانسوا .

بل ان واجب الانصاف يقتضي أن نقول عنه انه لم يكن شحيحا عليها ضنينا بما تنفقه على ثيابها .

وكان الخاطر الثاني الذى نجم عن تفكيره فى رشاقتها واناقة ثيابها ، كما نجم عن منظر جسمها شبه العاري ، هو أن بيبى قد تكون رشيقة ، وقد تكون ذات وجـه جميل ، بيد أن جسمها كان خاليـا من التماسـك والحيوية ، ولون بشرتها الناصع ليس اللـون الذي يستثير الرغبة أن تنطلق منه الدعوة .

وسمعها تسأل أمها :

ـ قطعة واحدة من السكر ياأمي ؟

كلا ! بل قبل هذا قالت شـيئا كان ينبغي أن يثير انتباهه . فان جان التي كانت مستلقية على مقعـدها الطويل ، وقد أشعلت لتوها سيجارة تتأرجح فى فمها ، كانت قد قالت لزوجها :

ـ صب لى كأسا من البراندي يا فليكس .

ولم يكن فى وسع فرانسوا أن يرى فيلكس ، لأنه كان جالسا خلفه ، وكان فليكس خليقا أن ينهض الى المائدة ليلبى طلبها . لولا أن بيبى ابتدرته قائلة بلهفـة بادية :

ـ لا تتجشم القيام يافليكس . ساصب لها أنا

ولكن لماذا قالت ذلك ؟ انها كانت تفضل دائما ان يخدمها الآخرون لا ان تقوم هي بخدمتهم . فلماذا هذا

الحرص على الخدمة ؟ ربما لكيلا يرى احد ما كان يجرى فوق المنضدة ! ولما كانت المقاعد مصفوفة فى اتجاه واحد ، لم يكن أمام بيبى أحد يمكن أن يرى ما تصنع! وبعد هذا بقليل ألقت سؤالها :

ـ قطعة واحدة من السكر ياأمى !

ولم يجفل فرانسوا . ولم يقطب حاجبيه . بل كان اثر السؤال لديه أهون من ذلك بكثير ، لا يكاد يدرك . وكل ماهناك أن عينيه تحركتا حركة جانبية يسيرة ، حركة كافية لرؤية مدام دونفيل . وانه ليذكر انها فتحت فمها قليلا ، شأن من يريد ان يقول شيئا ثم عدل عن رأيه بعد ان رأى المسألة لا تستحق عناء التعليق .

ولو كانت مدام دونفيل نطقت بما همت ان تقوله ، لقالت :

ـ ألا تعلمين حتى الآن ، وقد سلخت فى بنوتى سبعة وعشرين عاما كاملا ، كم قطعة من السكر اضع فى فنجان قهوتى ؟!

أنها لم تقل ذلك طبعا . ولكن ذلك كان اخلق بها أن تقوله والارجح أن بيبى كانت قد ابتدأت بصب القهوة فى الفناجين الخمسة . وكان من عادتهم فى ضيعة البلوط أن يستخدموا قطعا من السكر كل قطعة منها ملفوفة فى ورقة .

ولعل هذا هو السبب فى أن بيبى استشعرت الحاجة الى أن تقول شيئا كى تملأ فراغ الصمت ، ولكى تشتت الاذهان وتبدد الانتباه ، كما يبدد الحاوى الانتباه بضجته فلا يفطن المشاهدون الى حركات يديه .

اتراها كانت تشعر بارتجاف يديها بعض الشيء ؟ وهل جف حلقها ؟

ان فرانسوا الذى كان يراها من الخلف فقط لم يستطع أن يصل الى جواب عن هذين السؤالين . وعلى اى الأحوال ، لابد ان راحة تلك اليد الجميلة التى كانت موضع اعجاب الجميع ، كانت تكمن فيها قطعة صغيرة من الورق فيها مسحوق أبيض .

وسمعها تسأله هو أيضا :

ـ وانت يافرانسوا ؟ .. قطعتين ؟

وكانت تعلم بغير ادنى شك كم قطعة من السكر تعود زوجها أن يضعها فى فنجان القهوة ، ولكن وجودهم وراء ظهرها بحيث لا تراهم فرض عليها أن تجد وسيلة تتعرف بها الى أوضاعهم وتطمئن الى اثباتهم فى أماكنهم . فكان لابد لها أن تجعلهم يتكلمون وهى تنزع الورق عن قطعتى السكر وتصب المسحوق الأبيض من الورقة الصغيرة المختفية فى راحة يدها الصغيرة الجميلة ..

والدليل على صدق هذا الاستنتاج أنها لم توجه ذلك السؤال بعينه الى شقيقتها أو الى فليكس !

ودليل اقوى من هذا ، أنها نسيت أن تصب البراندى لشقيقتها جان بعد أن حالت بين فليكس وبين القيام بذلك .

والآن .. مع ان فرانسوا لم يكن قد القى باله الى تلك الأمور الدقيقة ابان حدوثها بوجه خاص ، أو ادرك مغزاها ، الا انه كان فى الواقع يشعر شعورا غامضا بوجود شيء غير طبيعى ، شيء مريب بل يبعث على التوجس !

فلماذا لم يفعل شيئا ؟
ربما لأن الناس دائما يقفون جامدين كالمنومين امام النذر من ذلك القبيل الخفي .

بل انه بعد أن شرب قهوته ولحظ لها طعمـــا غير مألوف ، اوشك أن يشير الى ذلك . فلماذا احجم عن تلك الاشارة ؟

السبب فى ذلك انه تعود ان يحتفظ بأفكاره لنفسه. والسبب كذلك انه لم يكن بين الحاضرين انسان ـ فيما عدا شقيقه فليكبس ـ يشعر بأدنى ارتباط بينه وبينه او ايسر قسط مشترك .

ولم يكن من دأبه أن يخدع نفسه ، فهو رجل عملى بالسليقة ، مجرد من الخيال . كان يعلم تمام العلم أن ضيعة البلوط ليست له دارا بمعنى الكلمة ، ولم تكن اكثر من حجرة فى فندق . فليس هاهنا من شيء على شاكلته سوى انف ابنه .. بل ان هذا الابن نفسه غبـر عليه الزمن الأخير وهو يتجنب أباه ما استطاع . فلمـا شرب القهوة ولم يقل شيئا ، جلست بيبى آخر الأمر وهى تشعر ولاشك بالارتياح ..

لم يظهر فى الجو اى شيء يوحى بجريمة التسميم ، بل كانت الجلسة هى الجلسة العائلية المألوفة بعد ظهـر اى يوم من أيام الأحد فى فصل الصيف بكل ما توحيـه من فراغ وخلو بال وبفترات من الصمت طويلة لا يشتجر فيها الحديث ، بل ينتهز كل شخص منهم فرصـــة السكون وهو مستلق باسترخاء فوق مقعده الطويل كى يحلق فى افقه الخاص ، ويقوم برحـلة مستقلة على سجيته . وهكذا يكون أول من يفتح فمه بعد فترة صمت

هو اول عائد من رحلته الوهمية .

ولم يكن فرانسوا مستسلما للنعاس ، ولكنه في الوقت نفسه لم يكن متنبها كل التنبه عندما بدأ يشعر بتوعك غامض راح يتتبع مسراه في جسمه وهو يتعجب . وظن اول الامر انه اصيب بعسر هضم . ورجح ان ذلك من القهوة التي شربها وفكر في النهوض ليتقيأ .

وضايقه أن يضطر الى ذلك . وحاول أن يؤجل المسألة .. واذا بنوع من القشعريرة ينتاب قفاه . وفي الوقت نفسه بدأت العروق في عارضيه وصدغيه تنبض نبضا شديدا .

ولم يكن قد جرب المرض في حياته من قبل ، فخطر له انه ربما مكث في الشمس مدة اطول مما ينبغي ذلك الصباح وهو يمهد ارض ملعب التنس بالعجلة الثقيلة . ولكن الامر زاد سوءا . وخيل اليه لأول مرة في حياته انه يشعر شعورا متميزا بالنخاع الشوكي داخل عموده الفقري (*)

وكان بطبيعته يكره ان يزعجه احد . ولم يحدث منه انه ازعج في يوم من الايام احدا من الناس بمحض ارادته. فنهض من غير أن يقول شيئا . وكل خوفه الا يتمكن من الوصول الى البيت في الوقت المناسب .

وفي طريقه فوق الممر المشمس المرصوف بالحصباء الحمراء الداكنة ، خيل اليه أن ذلك اللون الاحمر قد ازداد حدة عن ذي قبل وبدأت الفكرة تلح على ذهنه ، فجعل يقول لنفسه :

ــ ولكن هذا لا يمكن ان يكون

فقد عرف بوضوح أعراض التسمم بالزرنيخ . فقد كان كيمائيا وبحكم مهنته لا يمكن أن يخطيء فى ذلك .

وفى قاعة المائدة كاد يصطدم بمارت التى كانت ترفع أطباق الغداء . ولم يحدثها ، ولكنه فطن الى دهشتها عندما مر بها مسرعا وكان لابد له أن يزيد من سرعته حتى يصل فى الوقت المناسب . وفى حجرة الحمام افلح أن يضع اصبعه فى حلقه قبل فوات الأوان . وتقيأ قليلا وشعر بحرقان . واستمر يتقيأ على الأرض غير مبال . حتى اذا روعه الشعور بالتخشب والبرودة صاح من النافذة :

ــ فليكس !

فقد خشى أن يموت . وكانت آلامه حادة . ولم يكن جاهلا بالمجهود الفظيع الذى يجب عليه أن يبذله للتخلص من السم . ومع ذلك لم يستطع أن يمنع نفسه من التفكير فى نقطة واحدة :

ــ اذن ، هى قد فعلتها حقا !

ولم تكن بيبى قد توعدت من قبل بقتله اطلاقا . ولم يكن حدث نفسه فى يوم من الايام انها يمكن أن تدس له السم . ومع ذلك لم يدهشه أن يكتشف ذلك . بل ولم يشعر بالاستنكار . والواقع انه لم يحس فى تلك اللحظة بشعور عدائى تجاه زوجته !

وجاءه فليكس على عجل يسأله بلهفة :

ــ ماذا جرى يافرانسوا ؟

ــ اطلب الطبيب بالتليفون ... أسرع !

يالفليكس المسكين ! انه كان يفضل أن يعانى ذلك الألم فى نفسه على أن يرى شقيقه يعانيه !

ولما عاد فليكس من التليفون سأله فرانسوا وهو يتقيأ عنوة :

— اهو قادم ؟ .. حسنا ! .. اذهب الآن واحضر من الثلاجة الكهربائية شيئا من اللبن .. لا تقل اى شيء للخدم !

ووجد متسعا فى خواطره للشعور بالرضى عن نفسه! اليس قديرا على التفكير فى كل شيء فى احرج الظروف ؟ اليس يحسن التصرف من غير أن يطيش صوابه ؟

كل هذا والنسوة الثلاث مازلن جالسات فى الخارج حول المظلة ذات اللون البرتقالي ، فوق الحصباء الحمراء !

وماذا كانت بيبى تظن وهى تنظر بتطلع الى النوافذ المفتوحة ؟

هذه هى الحقيقة اذن .. بل هكذا كانت منذ سنوات .. ولم يخطر ببال احد اى ريب ، حتى هو ! .. لقد خدع هو ايضا كالآخرين .

ولكن ليس صحيحا أنه لم ير شيئا يريبه . الم يشعر فى بعض الأحيان بشيء من قبيل النذير الخفى ، كذلك النذير الذى جاءه عند سؤالها عن عدد قطع السكر التى تضعها فى فنجانه وفنجان امها ؟ .. ولكنه فضل على الدوام الا يفهم .

ولم يفقد وعيه تماما ، ولكن كل شيء غدا مختلطا فى وجدانه : الطبيب ، وفليكس المرتاع ، والقيء ، وبرودة الأرض المبلطة . وذراعاه اللتان تتحركان بانتظام — بفعل فاعل — الى اعلى واسفل وتخيل اليه أن هذا الفاعل جاثم فوق صدره .

وسمع الطبيب يقول لفليكس :

ـ لقد تسمم شقيقك بجرعة قوية جدا من الزرنيخ. وانه لسعيد الحظ جداً أن هذه الجرعة من الزرنيخ .

فقاطعه فليكس صائحا :

ـ هذا مستحيل ! ومن عساه يفعل ذلك ؟ .. لقد قضينا اليوم بطوله فيما بيننا .. ولم يكن معنا احد من الغرباء .

وخيل الى فرانسوا انه أفلح فى رسم ابتسامة ساخرة على شفتيه وسمع بعد ذلك الطبيب يقول :

ـ يجب أن نطلب سيارة أسعاف بالتليفون .. ماهو المستشفى الخاص الذى تفضلونه ؟

واحس بتقلصات شنيعة . وبالنيران تخترق أحشاءه .. ومع ذلك تماسك وأستجمع قوته ليعارض قائلا :

ـ لا اريد مستشفى خاصا

وكان ذلك طبعـــا لاجل خاطر الدكتور جاليبر ، فمستشفاه الخاص لم يتم بناؤه بعد ، وان ذهب فرانسوا الى مستشفى آخر سيشعر جاليبر بالاستياء والاهانة ، لأن فرانسوا سيضع نفسه عندئذ بين يدى أحد منافسى جاليبر ، وسوف يسىء الناس فى المدينة فهم ذلك .

ـ أذهبوا بي الى مستشفى البلدية ... مستشفى القديس يوحنا

وعندئذ سمع مرة اخرى صوت الطبيب ، الـذى كان من أولئك النفر المتمسكين بأهداب الذمة ، يقول :

ـ فى هذه الحالة يجب أن ابلغ السلطات المختصـة

بالحادث .. واليوم يوم الاحد ، والنيابة ودور القضاء مغلقة .. ولكنى أعرف وكيل النائب ، وسوف اطلبه تليفونيا واتدبر الأمر .. ان رقمه هو ١٨٨٠ فيما أظن ... فهل لك ياسيد دونج أن تطلب لى من فضلك رقم ١٨٨٠ ؟

وعندئذ قال فرانسوا ، أو تخيل أليه انه قال :
ــ كلا يادكتور ! اني اعترض كل الاعتراض على ذلك

الفصل الرابع :

لماذا لا يكون صحيحا ؟

وكانت الاجراس تدق مرة اخرى من برج الكنيسة معلنة انتهاء صلاة العصر ، وعندما اقبلت سيارة المستشفى البيضاء المرسوم عليها الصليب الاحمر ، ووقفت أمام بوابة الحديقة . ولما فتحت البوابة اندفعت السيارة غير مبالية بالنسوة الثلاث الجالسات عن كثب ، الى أن وقفت عند باب المبنى ووثب منها طبيب امتياز شاب فى ثياب بيضاء

ولم يكن المنظر فى حد ذاته شيئا مذكورا ، ولكنه بعث غصة فى الحلق . فهاهى المأساة تدخل على حين غرة ذلك البيت . وقد بلغت المأساة قمتها الشكلية فى تلك الثياب البيضاء وذلك الصليب الأحمر وخفق صدر مدأم دونفيل الضخم . ورمقت الام ابنتها فى حدة . عندما رأتها لا تهتز للمشهد ، وقالت لها :

ـ لا يبدو عليك الاهتمام البالغ بما جرى !

وكان هدوء بيبى يزعج أمها . ونظرت بيبى اليها بعينين مفتوحتين على سعتهما كانها لم ترها من قبل ، وقالت :

ـ لقد انقضى زمن طويل جدا لم تكن فيه بينى وبين فرانسوا ادنى مشاركة

وعندئذ التفتت جان الى شقيقتها تتفحصها . وكانت نظرتها اثقب من نظرة امها ، فاحست بيبى ببعـــض الامتعاض . وفجاة نهضت جان واقفة ، واسرعت نحو المبنى ، وهي تقول :

ــ ساذهب وارى بنفسى ماذا حدث

وكان طبيب الامتياز ، والدكتور بينو يحمـــلان فرانسوا فيما بينهما وكان وجهه شاحبا شحوب الموتى وراسه ساقطا فوق كتفه . فصاحت جان وهى تقبض على ذراع زوجها :

جان وهى تقبض على ذراع زوجها :

ــ فليكس !

فصرخ فى وجهها :

ــ دعينى !

فزاد عجبها وصرخت به :

ــ ماذا جرى ؟

فصاح كالمجنون :

ــ اتريدين ان تعرفى ماذا جرى ؟ اليس كذلك ؟ اذن . . .

وتوقف عن الكلام وهو يبذل مجهودا عنيفـــا كى لا ينفجر باكيا ، وكى لا يصفع زوجته ، ولكى يساعد الطبيبين فى حمل فرانسوا الى داخل السيارة البيضاء . واخيرا قالها :

ــ العاهرة اختك سقته السم . .

ولم يكن قد نطق فى حياته كلها من قبل بذلك اللفظ النابى . فقد كان شخصا دمثا يفزع من جميع ضروب العنف والفظاظة .

وارتاعت جان لما سمعت فعادت تقول له :

ــ فليكس .. ما هذا الذى تقول ؟ .. اسمع

وظهرت بيبى دونج على مسافة لا تتجـــاوز خمس خطوات .. منتصبة القامة للغاية فى وقفتها، وقد سقطت أشعة الشمس على شعرها الذهبى ، فبدت مخلوقا أثيريا فى ثوبها الاخضر الفاتح . وقد وضعت احدى يديها فوق صدرها الصغير ، وراحت ترقب مايدور أمامها

ونظرت اليها جان فى ارتياعها ، وصاحت :

ــ بيبى ! .. أسمعته ما قال فليكس ؟

وصاحت عندئذ مدام دونفيل ــ التى كانت قــد سمعت أيضا ما قيل :

ــ جان ... بيبى ..

ذلك أن جثتها الضخمة بدأت تترنح ، وأشرفت على الاغماء متداعية على الأرض . بيد أنها قاومت الاغمــاء ما استطاعت ، لأنها احست أن احدا لن يعيرها أدنى التفات

وهتفت جان بزوجها :

ــ فليكس ! .. دعنى أذهب معك

فنظر اليها فليكس نظرة قاسية تفيض بالكراهية ، كأنما هى بيبى ، أو كأنما هى المحرضة لشـــقيقتها أن تسقيه السم .

وبدأت السيارة تتحرك ، وكان الدكتور بينو قد جلس بجوار السائق . فأومأ اليه أن يقف لحظة ، وأحنى رأسه فوق جان ، وقال لها :
ـ يحسن بك أن ترقبي شقيقتك عن كثب الى حين ..

وضاعت بقية عبارته في الهواء ، لان السائق توهم أنه ختم كلامه فأدار المحرك مرة أخرى ، واستعد للدوران نحو البوابة .

وأقبل الأطفال يجرون من ملعب التنس ، ووقف جاك على قيد خطوات من والدته . فهل سمع شيئا مما قيل ؟ أم أن منظر سيارة المستشفى البيضاء هو الذي سمره في مكانه على تلك الصورة ؟

وبصوت رفيع سأل برتران أمه :
ـ أماه . ماذا حدث لعمي فرانسوا ؟

ولما لم تجبه جذبها من طرف ثوبها . فتهاوت جان جالسة على العشب .

أما بيبي دونج فارتفع صوتها هادئا كالعادة :
ـ مارت ! .. مارت .. أين أنت ؟
وأقبلت مارت تمسح عينيها بطرف مريلتها ، وقالت :

ـ ها أنا ذي ياسيدتي

وربما كانت مارت تجهل كل شيء . ولكنها وجدت مبررا كافيا للبكاء في مجرد خروج سيارة الاسعاف من بوابة البيت !
وقالت بيبي لمارت بكل هدوء

ـ التفتى من فضلك لجان .. خذيه للنزهة فى الغابة
فصاح الصبى محتجا :
ـ لا أريد أن أتنزه
فتجاهلت بيبى كلامه . وقالت :
ـ هل سمعتنى يامارت ؟
ـ أجل ياسيدتى
وبهدوئها المعتاد ، أتجهت بيبى نحو المبنى . فنادتها اختها :
ـ اوجينى !
وكانت هذه أول مرة منذ سنوات ، وسنوات تنادى فيها جان شقيقتها باسم العماد . ذلك أن بيبى سميت رسمية على اسم أمها أوجينى
وتوقفت بيبى . وقالت من غير أن تلتفت :
ـ ماذا تريدين ؟
ـ يجب أن أتحدث آليك ..
ـ ليس عندى ما أقوله لك !
ومضت تصعد السلالم ببطء . فهل كانت فى الواقع تشعر بانفعال داخلى تقاوم ظهوره على وجهها ؟ وهل كانت ساقاها ترتجفان تحت ثوبها الأخضر ؟
وتبعتها جان فادركتها فى حجرة المائدة . وكانت المصاريع الخشبية لنوافذها قد أبقيت مغلقة بسبب حرارة النهار . فقالت جان لأختها :
ـ اجيبينى على الأقل
فالتفتت بيبى نحوها بضجر . وبدا فى عينيهما ذلك الهدوء الفظيع الذى ينتاب من يدركون فى لحظة

الماساة » انه ما من انسان يمكنه أن يفهمهم بعد الآن ، وسألتها بفتور :
ـ وماذا تريدين أن تعرفى ؟
فحملقت فيها جان وسألتها :
ـ اصحيح ذلك ؟
ـ انني أردت أن اسممه ؟
ونطقت بالكلمة فى بساطة تامة ، بغير تقزز او هلع
ـ اصحيح هذا ؟
ـ هو الذى قال ذلك . اليس كذلك ؟
ولم يظهر عليها الاستياء من اتهامه لها . بل على العكس بدا على بيبى الارتياح لان فرانسوا اتهمها بمحاولة قتله بالسم .. ووقفت صامته تعبث باحدى قدميها فى الأرض . وكان حذاؤها أخضر اللون كثوبها .
ـ أصحيح ؟
ـ ولماذا لا يكون صحيحا ؟
واعتبرت الحديث منتهيا فبدأت تصعد الى الطابق العلوى على مهل . وقد رفعت فى رشاقة ذيل ثوبها الطويل أمامها
وصاحت جان :
ـ بيبى !
ولما لم ترد واستمرت فى الصعود ، استطردت جان :
ـ بيبى . ارجو الا تكونى مقدمة على ...
وكانت بيبى قد وصلت الى قمة السلم فوقفت برهة ثم التفتت وقالت :

ـ لا حاجة بك الى القلق ياعزيزتى ... واذا سأل عنى أحد ستجديننى فى حجرتى !

وكانت تلك الحجرة مبطنة بالحرير . وكل شيء فيها دقيق انيق كأنها صندوق ضخم من صناديق الحلوى الفاخرة . وبحركة آلية نظرت بيبى الى نفسها فى المرآة الكبيرة . وبحركتها المألوفة رفعت شعرها قليلا ، فكشفت بتلك الحركة عن ابطها الحليق . وكانت الساعة الصغيرة تدل على الرابعة وعشر دقائق ، ومن فرجة صغيرة فى النافذة سقط شعاع واحد فوق مكتبها الصغير الأبيض اللون .

وجلست بيبى دونج الى مكتبها وفتحت درجا استخرجت منه فى حركة تدل على التعب والسأم كراسة ذات لون أزرق باهت . وبدا عليها انها مقدمة على كتابة خطاب عسير . وأخيرا شرعت تكتب ما يلى :

١ ـ لا تنسى اعطاءه دواءه كل صباح . وزيدى عدد النقط مع ازدياد برودة الجو .

٢ ـ أعطيه الكاكاو مرة كل ثلاثة أيام بدلا من الشوفان فى الافطار ، ولكن لا تفرطى فى السكر . ثلاث قطع تكفى ..

٣ ـ لا تسمحى له بلبس الحذاء المخرم . ولا بالمشى فى العشب المبتل صباحا أو مساء . ولا سيما فى شهر سبتمبر ..

٤ ـ تأكدى من تخير الثياب الملائمة للجو .

ولما وصلت الى هذا الحد سمعت أختها من وراء الباب تقول بخجل :

ـ هل أنت بالداخل ؟

ـ لا تعطليني . فانى مشغولة

وانتظرت جان لحظة طويلة سمعت فيها صوت انسياب القلم على الورق ثم هبطت السلم . ووصلت بيبي فى وصاياها الى رقم ١٢

وفى ذلك الوقت كانت جان تتنافس مع أمها حول مسلك بيبي . وتلقى على أمها اللوم لافراطها فى تدليلها . ومدام دونفيل تكاد تجن من الدهشة وترفض أن تصدق ما حدث من ابنتها .

وبعد قليل وصلت سيارة أجرة بداخلها الدكتور بينو وآخرون .

الفصل الخامس :

بدء التحقيق

وكان المستشفى بناء عتيقا جميلا من أبنية القرن السادس عشر ، ذا سقوف عالية مدببة ، وقد تغيرت الوان تلك السقوف الفخارية بفعل الزمن ، أما الجدران فبيضاء ، وأما النوافذ فضخمة ، والفناء الداخلي للمستشفى تبسط عليه الأشجار العالية ظلها الوريف . وفى ذلك الفناء كان الرجال المسنون فى أكسيتهم الزرقاء يتنقلون من مقعد الى مقعد ، وقد ربطوا أرجلهم بالضمادات ، وتوكئوا على العصى ، ومنهم من تحيط العصائب برأسه وتسنده آلراهبة الممرضة .

وحمل فرانسوا الى قاعة العمليات . وكان الدكتور ليفير قد دعى تليفونيا ، فحضر على عجل الى المستشفى قبل وصول المريض . واستعد للعملية فعقم يديه ولبس القفازين . وأعد كل شيء لغسيل المعدة وما الى ذلك من اجراءات العلاج .

وكان فرانسوا قد عاهد نفسه على الا يئن او يتوجع . وحقنه الطبيب بحقنتين من المورفين لم تسلباه كل قدرته على التفكير . فشعر بشيء من الخجل لرقاده عاريا كما ولدته أمه أمام ممرضة حسناء . وكان يتمنى لو استطاع أن يطمئن فليكس الذى كاد يخرجه الفزع عن رشده ،

حتى أن الطبيب هدده جديا باخراجه من الحجرة

وكانت عيناه مغلقتين عندما رأى فجاة أمام باصرة مخيلته قصاصة الورق . فكأنه لم يعد راقدا فى مستشفى القديس يوحنا بالقرب من القناة ، بل هو مستلق على مقعد طويل فى حديقة مزرعة البلوط ، بحيث شعاع الشمس ينعكس بوهج شديد على الحصباء الحمراء ، فكأنها بركة من الدم ، تتخللها الظلال التى تلقيها قوائم المنضدة الأربع .

وهناك ، بين ظلين من تلك الظلال القيت قصاصة الورق البيضاء المتكورة . نعم لقد رآها وقتئذ . والدليل على ذلك أنه يراها الآن مرة أخرى ، مع أنه ليس فى حالة هذيان ..

وأين كانت بيبى تستطيع أن تخفى الورقة بعد أن افرغت المسحوق السام فى فنجان القهوة ؟ لم يكن لها فى ذلك الثوب جيب . ولم تكن معها حقيبة يدها . فلم يكن امامها الا أن تكور الورقة فى راحة يدها الرطبة ، وظنا منها أن قصاصة ورق صغيرة لا يمكن أن تفطن اليها العين ، القت بها ، أو تركتها تسقط من يدها على الأرض

اترى هذه الورقة لم تزل ملقاة هناك ؟ أم تراها عادت اليها فالتقطتها لتحرقها ؟

وعندما وصل بخواطره الى هذا السؤال سمع الطبيب يقول له :

ــ اجتهد أن تستلقى فى ثبات تام برهة من الوقت

فكز على أسنانه . ولكن للأسف الشديد ندت منه صرخة . وفى الوقت نفسه أطلق فليكس زفرة عميقة

ونعود الى ضيعة البلوط ، فنجد الرجل الذى جاء مع الدكتور بينو فى سيارة الأجرة يتقدم ، ويسأل بجان :

ــ هل مدام دونج موجودة هنا ؟

وكان الرجل طويل القامة جدا ونحيلا جدا . يرتدى بدلة رمادية من الصوف الرخيص ، رديئة التفصيل ، مما يقطع بانها مشتراة من احدى محال الملبوسات الجاهزة ، وقد أمسك بقبعته فى يده ، فى حين أبقى الدكتور بينو قبعته فوق رأسه

واجابته جان قائلة :

ــ انت تريد مقابلة شقيقتى . أليس كذلك ؟ انها فى حجرتها . سأذهب لاناديها ان شئت

ــ أخبريها بقدوم الجاويش جانفييه .. من مكتب جرائم القتل

ولما كان اليوم يوم احد ، ومفتش المباحث مشغول بحضور مباراة فى البلياردو تقام فى مدينة قريبة . وكان وكيل النيابة ملازما البيت بسبب اشراف زوجته على الوضع ، لذا تعين على هذا الجاويش أن يقوم بالتحقيق الاول فى جريمة هامة كهذه

وعند الباب سألت جان بصوت مرتفع

ــ هل أغلقت الباب بالمفتاح يابيبى ؟

ــ كلا بالطبع ... أديرى المقبض وادخلى

وكان هذا اللبس طبيعيا للغاية لأن جان كانت لفرط اضطرابها تدير المقبض فى الاتجاه المضاد . وكانت بيبى لم تزل جالسة الى مكتبها مشغولة بتلاوة ما سطرته .

ووفرت على شقيقتها اعباء المفاتحة ، فبادرتها تسألها بهدوء :

ـ كم عددهم ؟

ـ واحد فقط

ـ هل يريد أن ينطلق بى على الفور ؟

ـ لا أدرى

ـ اخبرى مارت انى أريد ان اراها

وهبطت جان لتقول للجاويش :

ـ ستنزل شقيقتى بعد لحظة قصيرة

وكان الطبيب مشغولا بالحديث مع الجاويش ، والجاويش مذهول لشدة لمعان أرض قاعة المائدة . ولاحظت جان رقعة صغيرة فى حذائه

وفى الطابق العلوى دخلت مارت على سيدتها . فبادرتها بيبى تقول بثبات كامل :

ـ اخرجى حقيبة ثيابى المصنوعة من جلد الحلوف يا مارت ... كلا ! بل افضل أن آخذ حقيبة الطيارة لأنها اخف ... وضعى فيها ثيابا داخلية تكفينى مدة شهر ، وثوبين للخروج ... و ... لماذا تبكين هكذا ؟

ـ لا شىء ياسيدتى

ـ اى الثوبين آخذ ؟ دعينى ارى

وفتحت دولاب لتختار ما ستكون بحاجة اليه ، ثم قالت :

ـ لقد تركت لك تعليمات مفصلة عن كل شىء ... واكتبى لى يوميا لتحيطينى علما بكل ما يحدث ..

ولا تخافى أو ترددى فى تسجيل الفه التفاصيل مهما كانت .. واين تركت جاك ؟

ـ مع ابنى عمه

ـ وماذا قلت له ؟

ـ قلت له أن السيد دونج وقع له حادث ، ولكنه غير خطر .

ـ وماذا يصنعون الآن ؟.

ـ جاك يريهما كيف صاد سمكة هذا الصباح .

ـ سأنزل الآن ... ومتى فرغت من اعداد الحقيبة انزليها .

ولمحت فى هذه اللحظة فراشها فتملكتها الرغبة فى الرقاد عليه ولو لحظة واحدة ، ولكنها قاومت رغبتها ، وقالت:

ـ يا مارت ... بهذه المناسبة ... كدت انسى ... اذا عاد السيد دونج قبل أن أعود أنا .

فانفجرت الوصيفة باكية ، فقالت بيبى :

ـ يا للسماء ! الا استطيع ان اقول كلمتين متتاليتين لك من غير أن تبكى ؟ ... انى اريد منك أن تهتمى بجاك، ولا تغيرى شيئا من نظامه ... اتبعى تعليماتى بدقة . أفهمت ؟ ... فهناك أشياء صغيرة لا يعتبرها السيد دونج ذات أهمية . ولكنها فى الواقع مهمة .

ونزلت على مهل ، وبادرت الرجل الطويل النحيل بقولها :

ـ ارجوك المعذرة لانى جعلتك تنتظر يا سيادة المفتش.

ـ أنا الجاويش ... جئت بسرعة ، وسيحضر المفتش والآخرون بعد قليل .

واخرج من جيبه ساعة فضية كبـيرة نظـر فيها ، واستطرد قائلا :

ــ وفي مدة انتظارهم أرجو أن تسمحي لى بتوجيـه بضعة أسئلة تمهيدية ، بحيث يجدون كل شيء معداً .

وعندئذ قال الدكتور بينو :

ــ هل أنتظر في الخارج ؟.

ــ ان سمحت ... وسيأخذون أقوالك وشهادتك عند حضورهم .

ثم أخرج الجاويش من جيبه كراسة مذكرات صغيرة مضحكة الشكل ، وبعد ذلك ظهر عليه الارتباك كأنه لا يدرك ماذا يصنع بها ، فقالت بيبى :

ــ سيكون من الاسهل عليك أن تكتب في مكتب زوجى .. تفضل من هنا ان سمحت .

واية امرأة في مكانها كانت حرية أن تتهاوى وتسقط على الارض ، ولكن لو فعلت بيبى دونج شيئا من ذلك ، لما كانت بيبى دونج .

الفصل السادس :

القبض على الزوجة

وشيئاً فشيئا انقضت المخاوف ، وخفتت أصداء الاصوات ، وجف العرق الذى تصبب طول الليل ، وتلاشت الروائح المنفرة التى تنتشر فى المستشفى عند بكور الصباح . وثاب المريض الى هدوء مطمئن ، وصمت ونظافة لا تشوبها شائبة . فالمفارش والأغطية بيضاء ناصعة ، والارض نظيفة لامعة ، وزجاجات العقاقير قد صفت بأناقة ونظام فوق خوان من الزجاج الابيض .

وبدلا من ضجيج الممرضات المدنيات ، وصراخ المرضى الذين يجرى تضميد جروحهم ، لم يعد يسمع فى الدهاليز صوتا اللهم الا وقع الخطوات الخافتة للراهبات الممرضات، ووسوسة مسابحهن .

وأحس فرانسوا بخواء كامل لم يشعر بمثله من قبل. حتى لكأنه دابة ذبيح نزع منها القصاب أحشائها ، وغسل جوفها وعجيزتها فى عناية فائقة ، ليعرضها لامعة شائقة على المشترين .

وسمع طرقا خافتا على الباب ، وتلاه صوت يقول :
ـ هل لى أن أدخل ؟ ... لقد قابلت الآن الدكتور

ليفير ، واخبرنى انك تجاوزت مرحلة الخطر .

ودخلت الاخت آدونى الحجرة ، وكل ما فيها مشرق بالابتسام ، لترى كيف أصبح ذلك المريض . والاخت آدوني قصيرة القامة ، تميل الى البدانة ، وتتكلم الفرنسية بلهجة اقليمية واضحة . ونظر اليها فرانسوا كما ينظر الى كل شيء فى الدنيا ، من غير أن يتكلف التلطف او الابتسام . ولابد أن الاخت آدونى كونت عنه فكرة أولى خاطئة ، شأن الكثيرين سواها ممن يرون فرانسوا لأول مرة .

فهل أرجعت تباعده هـذا الى حزنه الشديد بسبب فعلة زوجته ، أم اعتقدت أنه يبغض الراهبات ؟.

مهما يكن من شيء فقد حملت نفسها على ترويضـه فورا . فقالت له :

ــ أتحب أن أفتح لك نافذتك ؟ ... ستستطيع أن ترى من فراشك جانبا صغيرا من الحديقة ... لقـد اعطوك أفضل حجرة فى المستشفى ، رقم ٦ . وهـذا يجعلك عندنا السيد ستة ! فنحن لا نستخدم أسـماء المرضى ، بل نناديهم بأرقام الحجرات . فتصور أن رقم ثلاثة الذى غادرنا بالأمس فقط بعد أن قضى معنا بضعة اشهر ، ذهب من غير أن نفكر فى معرفة اسمه !

على رسلك أيتها الاخت آدونى ! ووفرى بعض جهدك، فانت تفعلين كل ما فى وسـعك ، ولا يخطر ببـالك أن فرانسوا اذا كان ينظر اليك هذه النظرة ، فذلك لأنه على الرغم منه يراك مجردة من ثوبك الرمادى الذى ينسبك الى رهبنة القديس يوسف !.

وكان هذا السلوك منه لا اراديا حقا . ففى لحظة دخولها راح يتساءل بينه وبين نفسه ، كيف يمكن أن تبدو هذه المرأة فى غير ثياب الرهبنة التى تكاد تجعلها مخلوقا مثاليا مجردا . فتخيلها على الفور فلاحة ضفرت شعرها النحيل ، وبرزت عضلاتها ، وتكورت معدتها من تحت مريلتها الزرقاء ، وقد ارتدت ثوبا قصيرا للعمل وجوربا قطنيا أسود ، وقد وقفت واضعة يديها على حقويها فى مدخل كوخ ريفى ، ومن حولها كتيبة كاملة من الدجاج والأوز .

ولم تفهم الأخت آدونى سر نظراته الحائرة وعدم اهتمامه بما تحدثه عنه ، فخيل اليها أنه مشغول بمأساة امرأته ، فأنشأت تقول له :

ـ يالك من رجل مسكين ! لا ينبغى أن تتسرع فى الحكم عليها ، ولا ينبغى أن تكون قاسيا متحاملا ... وليتك تعلم ما يدور أحيانا داخل رءوس النساء ! ولماذا نذهب بعيدا ؟ لقد كانت لدينا فى الحجرة المجاورة امرأة حاولت أن تقتل نفسها بالقفز من النافذة .. وظلت مصرة على أنها مجرمة ، وجريمتها تنحصر فى قتل طفلها ذات ليلة لأنه كان يكثر من البكاء . ولك أن تصدق أو لا تصدق أن ابنها فى الحقيقة ولد ميتا . وان عينيها لم تقع عليه اطلاقا . وبعد تلك الولادة ببضعة اشهر استيقظت ذات صباح وهى معتقدة أنها اقترفت تلك الجريمة ، اعتقادا لم تسبقه مقدمات .

فسألها فرانسوا بهدوء :

ـ وهل شفيت تلك السيدة ؟

ـ بل وأنجبت طفلا آخر .. وتأتى لزيارتنا احيانا فى

المستشفى زيارة ودية عندما تخرج بطفلها للنزهة فى هذه الناحية ..! اعتقد أنى سمعت احدا فى الدهليز ... لابد انه زائر لك .

فقال فرانسوا بغير تردد :

ـ انه أخى .

ـ يا للمسكين ! لقد قضى الليلة بطولها فى دهاليز المستشفى . وذلك مخالف للتعليمات ، بيد أن الطبيب اخذته الرحمة به .. ولم ينصرف الا فى الساعة السادسة صباحا ، بعد ان أكدوا له أنك تجاوزت مرحلة الخطر .. والآن اعطنى معصمك .

وتناولت معصمه لتحصى نبضه ، وبدا عليها الارتياح ثم قالت :

ـ سأدعوه للدخول . ولكن يجب الا يمكث معك أكثر من بضع دقائق . ويجب أن تعدنى بالتزام الهدوء .

فابتسم أخيرا ، وقال لها :

ـ اعدك بذلك .

ولم يكن فليكس اغمض جفنيه لحظة واحدة . ففى الساعة السادسة صباحا كما قالت الأخت آدونى اخرجوه من المستشفى عنوة تقريبا ، فذهب الى البيت ليستحم ويحلق ذقنه ويغير ثيابه . وها هو ذا قد رجع ووقف فى نهاية الدهليز قد عيل صبره لأنه أصبح ملزما كأى غريب أن ينتظر الاذن بمقابلة أخيه .

واقبلت عليه الأخت آدونى ، وقالت له :

ـ تستطيع أن تدخل . ولكن لا تمكث أكثر من خمس دقائق ، تذكر ذلك ! ولا تقل له شيئا يمكن أن يثيره .

ـ وهل هو هادىء ؟.
ـ لا ادرى ... فهو ليس كسائر المرضى .
ولم يتصافح الشقيقان باليد . وسأل فليكس أخاه :
ـ كيف تشعر الآن ؟.
وأجابه فرانسوا باختلاجة من جفنيه للدلالة على ان كل شىء على ما يرام ، ثم أردف ذلك بالسؤال الذى كان يتوقعه فليكس :
ـ هل قبضوا عليها ؟.

ـ أمس مساء ... حضر فاشو الى مزرعة البلوط بنفسه .. وكنت اخشى أن تحدث متاعب او مضايقات محرجة ... ولكن شيئا من ذلك لم يحدث ، لانها تصرفت على خير وجه .

وفاشو وكيل النيابة صديق للشقيقين . ولا يمضى اسبوع من غير ان يلتقيا به فى احدى حفلات البريدج .
واستطرد فليكس يقول لأخيه :

ـ ان فاشو هو الذى كان يشعر بالحرج ... فجعل يتلعثم ... وانت تعرف احواله ... لا يدرى ماذا يصنع بذراعيه الطويلتين ولا أين يضع قبعته .
ـ وجاك ؟.
ـ أبقوه بعيدا ... وجان موجودة فى الوقت الحاضر مع الأطفال فى مزرعة البلوط .

وشعر فرانسو أن فليكس يكذب . بيد أنه ترفق به وتصنع التصديق . فما الذى يخفونه عنه ؟.

وشعر فرانسوا أن فليكس يكذب . بيد انه ترفق به شىء مر على ما يرام . وكان تدخل القانون شكليا للغاية . فحضر فاشو فى سيارته ومعه سكرتير التحقيق ، أما

الطبيب الشرعى الذى عين حديثا فلا يملك سيارة خاصة ولذا جاء فى سيارة أجرة !.

وتجمع الثلاثة عند البوابة للتشاور فيما يفعلون . وكانت بيبى دونج قد لبست قبعتها فاتجهت نحوهم على الفور ، وقالت ببساطة :

ـ كيف حالك يا سيد فاشو ... آسفة لازعاجك فى يوم عطلتك .. والدتى وشقيقتى مع الاطفال . ولذا أظن أنه من الأوفق أن نرحل فورا . لن أنكر شيئا .. لقد حاولت أن اسمم فرانسوا بالزرنيخ .. انظر ! تستطيع ان ترى الورقة التى بها المسحوق ملقاة هناك !.

وبهدوء تام اتجهت نحو المنضدة ، ومن فوق الحصباء الحمراء الداكنة التقطت الورقة ، وعادت لتقول للمحقق :

ـ اظنك تستطيع أن تؤجل سؤال امى وأختى والخدم حتى الغد ؟.

وتداول الرجال فيما بينهم . وعندئذ قال الجاويش :

ـ لقد أخذت اقوال مدام دونج . وسأعد تقريرى عن ذلك هذا المساء .

فسأله فاشو :

ـ لديك سيارة الاجرة التى حضرت بها ؟ اذن تستطيع أن تصحب معك مدام دونج .

وكان المارة فى الطريق العام يرون السيارات المصطفة امام البوابة ، فيحسبون أن هناك كوكتيل مقامة فى مزرعة البلوط !.

ولم يعد امام الرجال الرسميين سوى ركوب السيارات ، ومن غير أن يشعر أحد من سكان أورانى أن هناك شيئا غير عادى ،. وعندئذ قالت بيبى دونج :

ـ أحضرى حقيبتى يا مارت !.

وفى هذه اللحظة أقبل جاك يجرى نحوها ، وقد تهدلت فوق جبينه خصلة من شعره . وكان من المفروض الا يخبره أحد بشىء . ومع ذلك تطلع الصبى الى أمه فى دهشة ، وسألها :

ـ أصحيح أنك ذاهبة الى السجن ؟.

وكان الاستطلاع طاغيا لديه على الفزع . فابتسمت وهى تنحنى فوقه كى تقبله من غير أن تقول شيئا . فسألها :

ـ وهل استطيع ان آتى لزيارتك ؟.

ـ طبعا يا جاك ! اذا كنت عاقلا !

وسمع صوت جان تنادى فى ارتياع :

ـ جاك جاك !

فقالت بيبى فى هدوء تام :

ـ والآن عد الى خالتك جان . وعدنى أنك سوف لا تذهب لصيد السمك بعد الآن .

وكان ذلك كل ما قالته ثم ركبت سيارة أجرة وتقدم ممثلو القانون قبل ركوب سياراتهم فخلعوا قبعاتهم وانحنوا لها .

ثم وصل فليكس بعد ذلك بقليل فى سيارته . وكان فى عجلة محمومة ، لان حالة فرانسوا كانت لم تزل دقيقة. فوجد زوجته وحماته فى البيت وقد احمرت أعينهما ، فسأل بخشونة :

ـ أين هى ؟

وكان الاطفال يأكلون . فنهضت جان وقالت له :

ـ هيا الى الحديقة ؟.

وكانت تعرف ما يدل عليه تغير سحنته واختلاج شفتيه ، وهناك قالت له :

ـ اسمع يا فليكس ... من الخير لنا الا نتكلم فى هذا الموضوع الآن .. فانا لا اعرف ماذا دار براس أختي .. ولا استبعد أن يكون اصابها مس من الخبل فجأة .. وبيبى لم تكن فى يوم من الايام مثل سائر الناس .. وانت تعلم تعلقي بفرانسوا فارجع اليه ، ولازمه ، واقم فى بيتنا بضعة أيام . اما انا فمن الخير ان ابقى هنا مع الاطفال . اليس هذا هو رأيك أيضا ؟ وقل لفرانسوا انى سأهتم كل الاهتمام بجاك وستعاوننى فى ذلك مارت .. طابت ليلتك يا فليكس .

وبعد ساعة أو نحوها طلبت مدام دونفيل سيارة أجرة بالتليفون . وراحت تؤكد أن مزرعة البلوط تكاد تخنقها. فهى لا تستطيع أن تبعد عن ذهنها فكرة السم . وسيحول ذلك دون نومها . وأردفت بعد ذلك قولها :

ـ وفضلا عن ذلك ، ليس معى هنا شيء من أدوات زينتى .

وهكذا ذهبت مدام دونفيل الى شقتها بالمدينة ، وهى طبقة كاملة من بيت كبير فخم ، تتكون من ثمانى حجرات. وبمجرد وصولها قالت لوصيفتها الشابة :

ـ اسمعي يا نيكول .. سنسافر غدا الى نيس .

ـ وهو كذلك يا سيدتى !.

ومع أن الوصيفة لم تجاوز التاسعة عشرة من عمرها ، فان المشاجرات بينهما كانت لا تنقضى .

ـ والآن هيا ساعدينى فى اعداد الحقائب يانيكول .

ـ اليست سيدتى خائفة من الحر الشديد فى نيس فى هذا الفصل من السنة ؟.

فرمقتها مدام دونفيل بنظرة قاسية ، وقالت :

ـ أنا فاهمة لماذا تحاولين اقناعى بعدم السفر الى نيس . من أجل خاطر عيني صبى الجزار . أليس كذلك؟ ولكنك ستسافرين معى الى نيس سـواء رضيت أو كرهت !.

وفى اليوم التالى أرسلت برقية الى صاحبة الخان الذى تقضى فيه مدام دونفيل بضعة أسابيع من السنة بمدينة نيس .

الفصل السابع :

ليس لى اسم

وكانت اعصاب فليكس متوترة غاية التوتر لحرمانه من النوم طول الليل ، فجعل يذرع الحجرة جيئة وذهابا وهو يقول :

ـ لا أدرى لماذا فعلتها .. الا اذا كانت ..

وتوقف عن الكلام ، فنظر اليه فرانسوا بهدوئه المعتاد، كنظرته الى الاخت آدونى منذ برهة ، وسأله :

ـ الا اذا كانت ماذا ؟.

ـ انت تعلم ماذا أعني .. الا اذا كانت قد عرفت ما يتصل بلولو جاليبر !.

واحمر وجه فليكس . وكان الشقيقان يتقاسمان كل شيء على الشيوع . فهما يعملان معا . وقد شيدا معا تلك المؤسسات المختلفة التى عرفت فى الاقليم باسم مؤسسات دونج . وتزوجا معا ، ومن شقيقتين . ومن ثروتهما المشتركة أعادا تجديد الدار الريفية فى البلوط ، لتسكنها الاسرتان على التبادل خلال اشهر الصيف . ومع ذلك كان لابد من وقوع كارثة اذ تجاسر فليكس على ذكر اسم لولو جاليبر بتلك اللهجة الخاصة . وهى كما يعلم الجميع فى المدينة عشيقة فرانسوا .

ولم يظهر فرانسوا أدنى علامة على الانفعال ، وهو يقول :

ــ ولكن بيبى لا تغار من لولو جاليبر !.

فاجفل فليكس . والتفت نحو أخيه في دهشة أعظم مما كان ينوى أن يبدى . فقد اثار عجبه صوت فرانسوا بما فيه من هدوء وثقة وسأله :

ــ وهل كانت تعلم ؟

وبنفس الثبات والهدوء اجابه فرانسوا :

ــ منذ زمن طويل .

وزادت حملقة فليكس اتساعا ، وسأله :

ــ انت أخبرتها ؟

وعندئذ تلقصت عضلات وجه فرانسوا من شدة الالم . واحس مرة اخرى بالسهام النارية الموجعة تخترق احشاءه نذيرا بنزف جديد . ثم استطاع أن يغمغم متلعثما :

ــ هذه قصة معقدة للغاية .. انى آسف . ألك أن تدعو الممرضة ؟.

ــ وهل ابقى معها ؟.

فهز فرانسوا رأسه فى اعياء . واسرع فرانسوا بالخروج ليدعو الممرضة التى دعت الطبيب فحقنه بمادة مهدئة . حتى اذا شعر بالراحة قال له الدكتور ليفير بلهجة من يحار كيف يبدأ الحديث :

ــ اريد أن انتهز فرصة عدم شعورك بالالم كى اخبرك بشيء . وهو فى الواقع موضوع دقيق حساس كنت افضل الا أخوض فيه اطلاقا ... فقد زارنى اليوم الزميل جاليبر .. وقد علم بما حدث لك .. وهو يضع نفسه تحت تصرفك كلية . وعرض أن يساعدنى اذا لزم الامر

.. فاذا كنت تفضل الانتقال الى مستشفى خاص .
وقاطعه فرانسوا قائلا :
ـ كلا وشكرا لك ..

وكان هذا هو كل تعليقه على الموقف ، لانه في الواقع لم يكن مكترثا في الوقت الحاضر بالسيد جاليبر وعواطفه الشخصية . ففرانسوا شخص عملي الى أقصى حد . وكل انسان في المدينة يعرف عنه هذا . حتى أن بعضهم ينتقدونه لتجرده من الخيال والحساسية .

وبفضل هذه الطبيعة العملية استطاع فرانسوا في سنوات قليلة أن ينمو بتركة أبيه التى كانت عبارة عن مدبغة جلود صغيرة مقامة على أرض مترامية على شاطىء النهر ، ولا فائدة لتلك الارض الا أن يرتادها صيادو السمك . فأصبحت للاخوين دونج عشرة أعمال صناعية مختلفة ، يشتغل فيها المئات من الرجال والنساء وهى أعمال تبدو متباينة في الظاهر ، ولكن الإرتباط المنطقي فيما بينها لم يكن يدركه فيما عداه غير فليكس . فالمدبغة يقتضى تشغيلها شراء الجلود من الريف . وشراء الجلود وجه انتباههما الى تربية الحيوانات والماشية . وذلك أدى الى انشاء مصنع للالبان . وبعض مستخرجات اللبن التى تعتبر نفاية لا قيمة لها تصلح أساسا لصناعة العجائن (البلاستيك) . وهكذا أدهش فرانسوا الناس بالاكواب وأدوات المائدة وأدوات الزينة التى أخرجها مصنعه الجديد .. ووجد في هذا المصنع ربحا وفيرا فوسع مصنع الالبان للحصول على المادة الاولية لتلك الصناعة . واستقدم خبيرا من هولندا ، ومنذ عام أقام خارج المدينة مصنعا جديدا لانتاج الجبن الهولندى (الفلمنك) .

وذلك كله تم في هدوء واناة ، وبغير لهفة أو اجهاد .

مع الاستمرار فى ادخال التحسينات على المقر الريفى ومع الاستمرار فى التمتع بالحياة .

ومع ذلك ، هاهو ذا يشرد بذهنــه بعيــدا عن الامور الجدية التي يحدثه فيها الطبيب كي يشغل نفسه بأمور بعيدة كل البعد عن الطابع العملى فى الظاهر .. ولم يكن ذلك هروبا شاعريا من الواقع لانه ظل منطقيا حتى فى مسلكه الهروبى .

وكان فليكس قد قال عند حديثه عن وكيل النيابة فاشو الذى كان ظاهر الارتبــاك والحرج عند قيــامه بمهمته القاسية .

ــ لقد استطاعت أن ترده الى سجيته على الفور .

والحقيقة أن هذا المشهد كان أوضــح لديه مما هو لدى فليكس لانه يعرف جيدا جميع تفاصيل الظل والضوء فى كل ساعة من ساعات النهار فى مزرعة البلوط . أما قدرتها على رفع الحرج ورد المرء الى سجيته ، فهــو يعرف تلك القدرة جيدا . واليها يرجع السر فى تعارفهما .

وتراءت لمخيلته مدينة رويان ، وفيما ذلك الكازينو الكبير الابيض والفيلات البيضاء ، والرمل الابيض الذى تتناثر فوقه ثياب الاستحمام البراقة ومظلات الشــاطىء المتعــددة الالوان . والى مائدة البكاراه جلســت مدام دونفيل ، ولم تكن أقل بدانة مما هى الآن ، فى ثوب أبيض كثير التهاويل ، من قماش شفاف . ولم يكن فرانسوا يعرف عنها شيئا سوى أنها مقيمــة معه فى نفس الفندق ، فندق رويال . وأنها عندما تخسر فى لعبة البكاراه تنظــر بارتياب الى المشرفين على اللعبة كأنهم قد تآمروا ضدها شخصيا .

وكانت فى صحبة فرانسوا غانية من النوع المبتذل . ترى ماذا كان اسمها ؟ بيتى أم ديزى ؟ انها على كل حال راقصة رخيصة من باريس كانت تظهر كل ليلة فى أحد النوادى الليلية بمدينة رويان . وتعرف بها فرانسوا هناك . وارادت أن تجرب حظها ، فكان فرانسوا يعطيها مبالغ صغيرة من النقود لتلعب . فلما خسرت صاحت :

ـ لقد سئمت من الخسارة . فهيا نذهب لنشرب كأسا فى البار .

وكان البار مزدحما جدا ، لان منتصف شهر اغسطس هو قمة الموسم فى رويان . وكانت بيتى او ديزى ذات صوت أجش وبيجامة شاطىء صارخة الالوان . وبصوتها المبحوح صاحت فى الزحام :

ـ قليلا من البطاطس المحمر أيها الساقى ، وكأسا من الكوكتيل !.

وكان فليكس فى تلك اللحظة موجودا فى البار أيضا مع فتاتين صغيرتى السن خيل الى فرانسوا أنه يعرفهما. وبعد قليل تذكر أنهما ابنتا السيدة لاعبة البكاراه ذات الثوب الشفاف .

وشعر فليكس بالخجل لانه ليس متأكدا ان كان يجوز له أن يقوم بالتقديم او لا . واخيرا تشجع ، وقال :

ـ اتسمحان لى بتقديم شقيقى ؟ ... الآنسة جان دونفيل . وشقيقتها الآنسة .. آسف .. اخشى أننى نسيت اسمك الاول .

وببساطة قالت :

ـ ليس لى إسم .. الكل ينادوننى ببيبى (الطفلة) .

وكانت هذه أول كلمات سمعها فرانسوا من فمها .

واستولت على انتباهه أكثر من صياح الصوت المبحوح :
ــ الا تنوى أن تقدمنى ؟.. يالك من مهذب !

ــ صديقة لى . الآنسة ديزى (أو بيتى) .

واشتد ضغط الزحام من خلفهم . واستطاع فليكس بنظرة واحدة ان يجعل شقيقه يفهم الموقف ... فهو مفتون بجان دونفيل الفتاة المرحة واقترح فرانسوا التخلص من الحر والزحام فى البار :

ــ ماذا لو خرجنا الى الكورنيش ؟ ان الحر شديد هنا !

ومشى فليكس فى المقدمة ومعه جان كبرى الفتاتين . وتبعه فرانسوا ومعه ديزى والفتاة الاخرى بيبى ، التى لم تتجاوز الثامنة عشرة . وبدأت ديزى تشعر بالضجر . فكأنها تسير فى نزهة عائلية . وقالت بضيق :

ــ أليست هذه النزهة ممتعة بشكل قاتل ياحبيبى ؟.

فقال لها فرانسوا بهدوء وبرود :

ــ انظرى الى الشمس وهى تجنح للمغيب . أليس منظرها مسليا ؟.

ــ ان النوم عندى أكثر تسلية من هذا المنظر . ولكن اذا كان هذا يروق لك ...

وسارت بضع مئات من الخطوات ساكتة متجهمة . واخيرا صاحت :

ــ الى الجحيم بهذه النزهة ! .. وداعا !.

ثم أختفت وسط الزحام . فقال فرانسوا لبيبى :

ــ لا تلقى اليها بالا يا آنسة .

ــ ولماذا تعتذر ؟ الموقف طبيعى للغاية .

وادرك انها فهمت . ورفعت عنه الحرج وردته الى سجيته . فسره ذلك . وفجأة سألته ببساطة :

ـ وهل شقيقك له صاحبة من هذا النوع أيضا ؟.
فأدهشه سؤالها واستوضحها قائلا :

ـ ولماذا تسألين هذا السؤال ؟
وبالبساطة عينها اجابته فى وضوح :

ـ لانى ارى أخاك يخطب ود أختى بصفة جدية .
وكانت فى تلك الايام أنحف مما هى الآن حتى أن ساقيها كانتا تبدوان أطول . ولكن نظرتها كانت صريحة مستقيمة . وما من قوة تجعلها تغض الطرف . بل كانت تنظر فى عينيك من غير أن تبتسم ، الى أن تشعر بالحرج والارتباك .

وقالت له أيضا :

ـ ان صاحبتك ستتشاجر معك الليلة . فأرجو أن تغفر لى ما سببته لك من كدر . ولكنى مضطرة لمصاحبة أختى واخيك . فانى ان لم الازم أختى تعرضت لغضب والدتى الشديد .

الفصل الثامن :

وراء العذارى

وقد أصابت حين قدرت تلك المشاجرة . وربما كانت هذه المشاجرة هى المسئولة عما حدث بعد ذلك من اتجاه عواطفه . لان ديزى قالت له فيما قالت :

ـ اذا كنت يا صاحبى ستتحول الآن الى الجرى وراء العذارى ، فلن يصلح كل منا لصحبة الآخر !

وبسبب هذه الجملة الساخرة شرع فرانسوا منذ اليوم ينظر الى بيبى بعين مختلفة اختلافا كبيرا عن ذى قبل ، وبشىء كثير من الخجل وهو شعور لم يعهده فى نفسه . وزاد من ارتباكه أنها لاحظت ذلك التغير فى نظرته ، فظهر عليها شىء من السخرية والرضى . وبدأت تستجيب لضغط يده وهو يصافحها فى الصباح ، وأردفت ذلك على الفور بسؤال مباشر :

ـ هل غضبت صاحبتك غضبا شديدا ؟

ـ ليس لهذا أهمية على الاطلاق

وضحكت وقالت :

ـ أتعلم أن العلاقة بين أختى وأخيك وصلت الى مدى بعيد ؟

ـ ماذا تعنين ؟

ـ أنهما لا يكتفيان الان بالمقابلة اليومية ، بل يتبادلان الرسائل كل يوم ! هل تعيشان في باريس ؟

ـ كلا بل فى الاقاليم ..

ـ آه ! .. لقد عشنا طول عمرنا فى الاستانة ، الى أن مات والدى . فعدنا الى فرنسا ، ووالدتى تملك دارا فى مقاطعة أوب ، دارا منعزلة عن كل شيء ، دارا قديمة توارثتها أسرتها ، وتحتاج الى اصلاحات وتعديلات ضخمة .

ـ فى أية بقعة من مقاطعة أوب ؟

ـ قرب موفران

ـ انها لا تبعد عن بلدنا أكثر من خمسة عشر كيلو مترا وكان صوته ينم عن الارتياح لاكتشافه ذلك التقارب .

وبعد ثلاثة أشهر ، فى كنيسة موفران الصغيرة ، تزوج الشقيقان من الشقيقتين . وسئمت مدام دونفيل الاقامة فى بيتها الريفى الكبير ، فرحلت الى المدينة فى منتصف الشتاء ، وخصصت يوما فى كل أسبوع تقضيه عند كل واحدة من بنتيها .

ولم يكن شيء من ذلك كله يحدث لولا أن بيبى استطاعت منذ أول لحظة أن ترده الى سجيته . ولم تفعل ذلك اعتباطا . بل انها كانت منذ لحظة اللقاء فى البار تدرى تماما ماذا تفعل بسبيله . وكان فرانسوا موقنا من ذلك . فانه يذكر جيدا أنها بمجرد انصراف ديزى ، اتخذت فى مشيتها بجواره طريقة تدعو الى الالفة ، فهى تحول عينيها نحوه عندما يتكلم . وتثبت نظراتها فى عينيه . وهناك اسلوب خاص لارتخاء الجسم حتى عندما تسير الفتاة وسط الزحام .

لقد وضعت بيبى الخطة . الم يظهر عليها شيء من خيبة الامل عندما قال لها أنهما لا يقيمان فى باريس ؟

كانت تريد أن تتزوج مثل شـــــقيقتها التى اقتنصت خاطبا . كانت تريد بيتا خاصـــا بها ، فيه خدم يأتمرون بأمرها وهذا ما رسخ فى اعتقـــاد فرانســـوا طيلة هذه السنوات العشر . فهل كان يكرهها ؟

ان ذلك قد يكون مبالغا فيه . وكل ما هناك أنه ينظـر اليها أحيانا بعين النقد . ومنذ ليلة الزفاف وهو موقن بأنها ليست جسدا ممتعا . فلم يكن له فى يوم من الايام بجسدها التذاذ . ولم يحب بشرتها ناصعة البياض ، ولا ســـلبيتها التامة وتحديقها بعينين لا تطرفان ، ولا يجول فيهمـــا أى اضطراب وهي بين ذراعيه !

لقد ارادت أن تكون بيبى دونج . ولم يخالجه شك فى تلك الحقيقة مدى عشر سنوات . وكان سلوكه معها دائما نتيجة ذلك الاعتقاد . فهـو رجل من خلقه أن يواجه الواقع ويتحمل جميع نتائجه المنطقية .

وعندما وصل فى ذكرياته الى هذا الحد سمع صــــوتا يقول :

ـ ان قاضى التحقيق اتصل بى تليفونيا هذا الصـــباح ليسأل ان كان فى استطاعته ان يستجوبك اليوم ..

واكتشف فرانسوا أن الطبيب واقف بجوار فراشه يهز مقياس الحرارة . ثم سمعه على الاثر يستطرد :

ـ واعتقد أننى كنت محقا حين ذكرت له أنك بحاجة الى التزام الراحة التامة بضعة أيام . فالواقع أن غسيل المعـدة سبب لك اعياء شـــديدا .. وعلى كل حـال لم يلح قاضى

التحقيق ، بل قال ان المســـألة ليست ذات أهمية بالغة ، مادامت « هي » معترفة بجريمتها ٠

وانزعج الطبيب انزعاجا شديدا لنظرة الدهشة البالغة التي رماه بها فرانسوا عندما سمع منه لفظ « جريمتها » ٠ ولذا بادر يقول :

ـ لعل من الواجب أن اعتذر لاشارتي الى ذلك الموضوع ، ولكني قدرت أن المودة التي بيننا تجيز لى ٠٠

ـ اصبت يا دكتور في هذا التقدير

ـ سأعود بعد الظهر لفحصك ٠ وأعتقد أن الحقنة التي أعطيتك اياها الان ستجعلك تنام بضع ساعات ٠

وأغمض فرانسوا عينيه قبل أن يغادر الطبيب الحجرة ٠ وشعر شعورا غامضا بدخول الاخت آدوني لاغلاق المصاريع الخشبية للنافذة ٠ ثم استطاع أن يسمع زقزقة العصافير وحديث المرضى في الحديقة بصورة غير واضحة ٠ وقرب الظهر سمع صوت جرس الغداء بصورة أوضح ٠

ولما تنبه من نومه تماما ، بذل مجهودا في تركيز ذهنه ٠ لانه سيعود بأفكاره الى ماض بعيد جدا ٠ وهو لا يريد أن ينسى شيئا ، حتى أتفه التفاصيل ٠

وذكره جو المستشفى بجو مســتشفى آخر وضعت فيه بيبي ابنهما جاك ٠ وكان الوقت صباحا وقد جعلوه ينتظر في الحديقة التي كانت حافلة بالزنابق ، لان الوقت كان في شهر ابريل ٠ ومن الحديقة استطاع أن يسمع الاصـــوات الصادرة من الحجرات والدهاليز ٠ الى أن دعى للدخول ، كما دعى شقيقه فليكس للدخول عليه بعد طول انتظار في الدهليز ٠

وكانت بيبي تبتسم ابتسامة تنم عن القلق ٠ فخيل اليه

انها آسفة لان زوجها رجل ، ولا يمكن أن يقاسى ما قاسته من آلام المخاض . وربما حنقت عليه لان الحيـاة لا تفرض عليه تغيير نسق معيشته بعد ان أصبح أبا . ومن يدرى ؟ ربما كان أيضـــا قد استفاد من رقادها فى المســتشفى واستمتع باللهو هنا وهناك ..

وكانت أولى كلماتها اليه :

ـ لقد حضرت والدتى أمس . وهى مصرة على أن الطفل ليس فيه شيء من ملامح أسرتنا . بل من آل دونبج مائة فى المائة .

وبعد قليل سألته عن أحواله فى غيابها وعن قيام الطاهية كلو بخدمته وبنظافة البيت وترتيبه .

وكان البيت وقتئذ هو بيت أبيه القديم ، بجوار مصـنع الدبغ على ضفة النهر . وكان قد أدخـــل على ذلك البيت تعديلات عصرية كثيرة ، بيد أنه ظل محتفظا بطابعه العتيق، فهناك دهاليز كثيرة وجدران لا معنى لها ، وحجرات أرضها منخفضة عن مستوى سائر البيت . وكانت مدام دونفيــل دائمة الشكوى من ذلك التيه كمـا تســـميه وتســتحث فرانسوا على بناء بيت جديد .

أما فليكس وجان فكانا يعيشان على مسافة غير بعيــدة فى بيت أقرب الى الطراز الحديث . ولكن جان كانت غير مولعة بالتدبير المنزلى أو رعاية شئون الاطفال . فأحب شيء اليها أن تقرأ وتدخن فى الفراش ، أو تلعب البريدج ، أو تشترك فى الجمعيات الخيرية لما فيها من تسلية ونشاط وثرثرة . ولم يكن من المستغرب أن تقول لزوجها :

ـ اذا لم أعد حتى الثامنة يا فليكس ، فضع الطفلين فى فراشيهما .

ويضع فليكس الطفلين في فراشيهما !

ولكن ما هذه الضجة المفاجئة كأنها ضجة خروج الناس من القداس يوم الاحد ؟ آه ! انه يوم الزيارة الاسبوعية وقد فتحت الابواب الآن وتدفقت عائلات المرضى حاملة عناقيد العنب والبرتقال والحلوى ولكن الاخت آدوني واقفة كالديدبان الساهر أمام باب الحجرة ، وقد سمع صوتها تقول :

ـ الهدوء من فضلكم ! هنا حالة خطرة في هذه الحجرة !

ولا يدري بعد ذلك هل غفا قليلا أم لا • فقد تراءت له حجرة مكتب قاضي التحقيق ، وفي ركن منها حوض لغسيل الوجه واليدين من الصيني • لم يفهم الحكمة من وجوده في مكتب قاضي التحقيق •

ولم يكن زار مكتبه من قبل • وان كان قد رأى قاضي التحقيق شخصيا منذ شهر تقريبا ، وهو رجل أقرب الى البدانة أصلع الرأس ، وله زوجة يشبه وجهها وجه فرس !

ورجح لديه أن بيبي لابد قد عنيت بانتقاء الثوب الذي ترتديه أثناء التحقيق ولا يمكن أن يكون من قبيل الثوب الذي كانت ترتديه يوم الاحد • كلا ! لابد أنها اختارت تاييرا محتشما ، فهي ذات ذوق حسن • ولكن ما جدوى كل هذه الاسئلة والتحقيقات ، انها لن تذكر لهم شيئا • لانها عاجزة عن الحديث عن نفسها ••

هل ذلك عن حياء ؟ أو عن كبرياء ؟

لقد رماها ذات يوم في لحظة غضب بأن أسرتها كلها يكاد ياكلها الكبر • فقد نشأت في الاستانة في جو

الدبلوماسيين المترف على ضفاف البسفور . وأين ذلك من جو المدبغة الذى نشأ فيه الشقيقان دونج اللذان ينحدران من صلب أب كان صـــانعا ماهرا ، وظل الى ختام حيــاته نموذجا لطبقة الاسطوات ؟

وعندما وصل بخواطره الى ذلك الحد انتابته الآلام مرة أخرى ، وعاوده النزف . ودخلت عليه الاخت آدونى جزعة لتسعفه بالعلاج .

الفصل التاسع :

قاضى التحقيق

فى هذا اليوم قامت خادمتان لا خادمة واحـدة بتنظيف الحجرة وتلميعها ، وسـاعدتهما فى ذلك الممرضة ٠ أما الاخت آدونى فكانت مهتمة كأنما الزائر هو أسقف الاقليم ، فتأكدت بنفسها من كل شيء :

ـ ضعى المنضـدة بجوار النافذة ٠٠٠ كلا ٠ يجب أن يكون الكرسى فى الناحية الاخرى والا لم يجد نورا كافيـا للكتابة ٠٠

وكان ذلك كله خصيصا من أجل رجل بدين أصـلع ، وصل فى النهاية بخطوات مسرعة ، واخترق الدهاليز فى حيرة وارتباك ومن ورائه شاب متأنق فى هندامه ، مثـل آلاف الجماهير من صغار الناس الذين تكتظ بهم الشوارع فى أيام الآحاد ٠

وظل قاضى التحقيق السيد جيفر يقول ردا على عنـاية الراهبة :

ـ نعم أيتها الاخت ٠٠ شكرا أيتهـا الاخت ٠٠ لا تتعبى نفسك أيتها الاخت ٠

وكان هذا القاضى قد انتقل الى المدينة الصغيرة من مدينة

شارتن • فلم يكن فى هذا النقـــل أى معنى من معـــانى الترقية • ومعتقداته الســـــياسية تميـــل به الى اليمين المتطرف • وكان الناس يســـــخرون منه لارتدائه البيريه وركوبه الدراجة ، وبسبب أطفاله الستة الذين يخرج بهم للنزهة سيرا على الاقدام فى وقار وزهو كأنما هم فى عرض رسمى !

وظل السيد جيفر بعد وصوله الى المدينة شهرا كاملا ، وهو عاجز عن العثور على مسكن مناسب • وأخيرا ســـمح له طبيب يقيم فى الضواحى أن يسكن بيته القديم الذى لم تدخله الكهرباء أو المياه بعد . فاســـــتقر فيه مع أسرته العديدة •

فهل رأى السيد جيفر فرانسوا دونج فى الشارع ذات يوم ؟ ربما • ولكنه على كل حال لابد أنه قد سمع عنـه • بيد أن الرجلين لم تسنح لهما فرصة التلاقى قبل اليـوم • فاكتفى قاضى التحقيق عند دخول حجرة المريض بالانحناء ، ثم قطع الخطوات الاربع نحو المنضدة الصغيرة التى كانت معدة لاستقباله بالقرب من النافذة •

وفتح السيد جيفر حافظة أوراقه ، ثم قال :

ـ لقد أخبرنى الدكتور ليفير أنى أستطيع أن أمكث معك نحو نصف الساعة • ولكن هذا لا يمنع بطبيعة الحال من أن تشعرنى عند أول بادرة تعب فأغادرك على الفور • والآن سأبدا بعد اذنك ••• ما اسمك ؟

ـ فرانسوا شارل اميل دونج • ابن شارل ايبير كرتيان دونج الدباغ ، واميلى أورتنس فيلاتر ، ولم تكن لها مهنة ، وكلاهما قد توفى •

ـ هل صدرت ضدك أحكام من قبل ؟

وأسرع قاضي التحقيق بعد ذلك السؤال فلوح بيده كمن يهش ذبابة ، وتنحنح • ولم يكن حتى هذه اللحظة قد نظر الى جهة الفراش حيث كان فرانسوا دونج مضطجعا ، ومن خلف ظهره عدة وسائد • ومن خلال النافذة كانت تصل أصداء خطوات المرضى الناقهين فوق حصباء الحديقة وهم يتنزهون •

واستطرد قاضي التحقيق في الاسئلة :

ـ في يوم الاحد العشرين من إغسطس ، أثناء وجودك في مقرك الريفي المعروف باسم مزرعة البلوط ، في ناحية أوراني ، وقعت محاولة لتسميمك •

وساد الصمت • فرفع قاضي التحقيق عينيه ورأى فرانسوا دونج ينظر اليه باهتمام ، ولما طال النظر والصمت سأله :

ـ أتوافق على هذه العبارة ؟

ـ لا أدرى •••

فتنحنح قاضي التحقيق مرة أخرى ، وقال :

ـ ان الدكتور بينو الذى استدعى على الفور قرر لنا أنه لا محل للشك في ذلك ، وأنك في نحو الساعة الثانية من بعد ظهر اليوم المذكور قد تجرعت كمية ضخمة من الزرنيخ ، ومن المحتمل أنك تجرعتها مذابة في قهوتك •

وساد الصمت مرة أخرى

ـ أتنكر هذه الوقائع ؟

وبصوت هادى للغاية قال فرانسوا دونج :

ـ كل ما أقر به أننى كنت مريضا جدا

فتنحنح قاضى التحقيق ، وقال :

ــ وبعبارة أخرى أنت ترفض أن تعيم ""تمام ؟

ومرة أخرى ساد الصمت ، فاضطر قاضى التحقيق أن يستأنف الكلام من جانب واحد :

ــ وفى هذه الحـــالة يجب أن أبصرك بحقيقة الموقف • وفحواه أننا على ضوء الظروف التى اكتنفت الحادث سنكون مضطرين لاقامة الدعوى ، حتى ولو لم ينشط المجنى عليه لتوجيه الاتهام مباشرة •

ولم يفتح فرانســـــوا فمه • بل ظل ينظــر الى قاضى التحقيق نظرته الى جميع الناس ، فى ثبات وجمود • وكان مادار برأس فرانسوا فى هذه اللحظة هو التساؤل حـــول شخصية ذلك القاضى وكيف يستطيع القيام بأعباء وظيفته الدقيقة وهو مشغول الذهن بأطفاله الســـتة ، وعليه أن يقطع راكبا دراجتــه ثمـــانية كيلو مترات من البيت الى المدينة ، ومثلها حين العودة • وكيف يتسنى لمثله بمجـرد فتح ملف من الاوراق أن يكتشف أدنى ذرة من الحقيقة عن بيبى دونج مع أن زوجها الذى عاش معها عشر سنوات عاجز عن ذلك ؟

وكأنما ثقل الصمت على قاضى التحقيق فرأى أن يبـــذل محاولة جديدة لاخراج فرانسوا دونج :

ــ والان ، سأتجاوز قليلا الحدود الرســـمية واسمح لنفسى بأن أقرأ تقرير مدام دونج كما ورد فى التحقيـــق الابتدائى • أو بعبارة أدق أقوالهـــا التى أفضت بها الى الجاويش جانفييه فى يوم الاحد الموافق ٢٠ أغســطس فى الساعة الخامسة مساء •••

ـ أنا أوجيني بلانش كليمانتين • وعمري سبعة وعشرون عاما ، زوجة فرانسوا دونج ، أقرر تحت اليمين ما يأتي : أنني اليوم أثناء وجودي في مزرعة البلوط وهي المقر الريفي المملوك لزوجي وشقيقه على الشيوع ، قد حاولت ان اسم زوجي فرانسوا دونج ، بدس كمية من الزرنيخ في قهوته • وليست لدي أقوال أخرى !

ورفع قاضي التحقيق عينيه عن الورقة ليلمح ابتسامة تلوح على شفتي فرانسوا ، فقال وهو يغالب عجبه :
ـ ها أنت ترى أن زوجتك تعترف بالواقعة !

وأحس السيد جيفر احساسا قلما خامره ، وهو أنه يتدخل فيما لا يعنيه وهو جالس في مواجهة ذلك المريض • وغالب ذلك الشعور أيضا ، وقال :

ـ والآن سأتلو عليك تسجيلا حرفيا لاقوال المتهمة التي وردت في التحقيق الذي أجريته شخصيا بالامس •••
ووقعت كلمة المتهمة على أذن فرانسوا وقعا غريبا حقا ، فلم يتمالك نفسه من الاجفال • وأدرك قاضي التحقيق الموقف فندم على تسرعه في اختيار اللفظ ، ولكن السهم كان قد نفذ •

وركز فرانسوا ذهنه ليتخيل بيبي أثناء ذلك التحقيق • وتساءل هل كانت ترتدي ثوبا عاديا أم تاييرا ؟ • لانه شعر قبل سماع أقوال بيبي بضرورة تجسيم صورتها الدقيقة أمام ذلك القاضي ، ونبهه صوت القاضي وهو يقول له :

ـ ساوفر عليك عناء سماع المقدمات الشكلية ، وسأتلو عليك الاسئله والاجابات الجوهريه في الموضوع •

فأومأ فرانسوا برأسه علامة على استعداده للسماع :

س : متى بالضبط قررت الاعتداء على حياة زوجك ؟

ج : لا أدرى بالضبط

س : هل كان ذلك قبل الاعتداء ببضعة أيام ؟

ج : كلا

س : ببضعة أسابيع ؟

ج : كلا

س : ببضعة أشهر ؟

ج : ربما ببضعة أشهر

س : لماذا تقولين ربما ؟

ج : لانها كانت عندئذ فكرة غامضة جدا

س : ماذا تعنين بفكرة غامضة جدا ؟

ج : ذلك أنى شعرت شعورا مبهما أننا لابد أن نصل حتما الى هذه النتيجة فى النهاية ، ولكنى لم أكن واثقة وقتئذ .

وعندئذ تنهد فرانسوا ، فرفع قاضى التحقيق عينيه ونظر اليه مستطلعا ، ولكن تلك النظرة جاءت بعد فوات الاوان ، فلم يقرأ على سحنة فرانسوا شيئا سوى الانتباه التام لما يسمع .

وتنحنح قاضى التحقيق ، وسأله :

ـ هل أستمر فى القراءة ؟

وأومأ فرانسوا برأسه ولم يتكلم . فسأله القاضى :

ـ ألم تشعر بالتعب ؟

ـ اطلاقا

فتنحنح القاضي مرة أخرى ، وقال :

ـ اذن سأستأنف القراءة

وثبت نظره على الورقة :

س : ماذا تعنين بقولك أننا لابد أن نصل حتما الى هذه النتيجة ؟

انك تستعملين هنا ضمير الجمع بصورة لا أفهمها

ج : ولا أنا !

س : هل ظل سوء التفاهم فيما بينكما قائما منذ زمن طويل ؟

ج : لم يحدث اطلاقا فى أى وقت من الاوقات أن قام سوء تفاهم فيما بين زوجى وبينى !

س : اذن ما الذى يحنقك عليه ؟

ج : لست حانقة عليه

س : هل لديك دواع للغيرة ؟

ج : ليست لدي فكرة عن هذه الدواعي • ولكنى لست غيرى

س : اذا لم نستطيع أن نعزو فعلتك الى الغيرة ، فما هو الباعث لك على ارتكابها ؟

ج : لا أدرى !

س : ألا توجد فى أسرتك أية حالة من حالات المرض العقلى ؟

ج : كلا

س : بأى مرض مات والدك ؟

ج : بالدوسنتاريا الاميبية

س : ووالدتك ؟

ج : لم تزل على قيد الحياة
س : هل هى سليمة البدن والعقل ؟
ج : أجل
س : ان الدكتور بولنجيه الطبيب الشرعى الذى فحصك من هذه الناحية قدر مسئوليتك الكاملة عن أفعالك . والان ما هى طبيعة العلاقات التى كانت قائمة بينك وبين زوجك ؟
ج :كنا نعيش معا تحت سقف واحد ، ولنا ابن
س : وهل كان من المألوف أن ينشب بينكما شجار ؟
ج : لم يحدث اطلاقا أن نشب بيننا شجار فى أى يوم من الايام

س : هل لديك معلومات مستقاة من بعض الدلائل تحملك على الاعتقاد أو الظن بأن زوجك له علاقات خارجية ؟
ج : لم أفكر اطلاقا فى شىء من هذا

س : وبفرض أنك علمت شيئا من ذلك أو ظننته ، هل كنت تعملين على الانتقام لنفسك منه بأية صورة من الصور ؟
ج : ماكنت لاتاثر بشىء من ذلك

س : انك بالاختصار تصرين على أنك ظللت مدى بضعة أشهر تخامرك فكرة الاقدام على قتل زوجك بصورة غير واضحة . ولكنك لا تعلمين السبب الذى حدا بك الى ذلك التصميم ؟

ج : بالضبط
س : أين ومتى حصلت على السم ؟
ج : لا أستطيع أن أخبرك بالتاريخ على وجه التحديد
س : وعلى وجه التقريب ؟
ج : كان ذلك فى يوم من أيام شهر مايو

س : أى قبل الجريمة بثلاثة أشهر ؟
ج : تماما
س : وكيف حصلت عليه ؟ من أين ؟
ج : نزلت الى المدينة لشراء أشسياء متباينة • أذكر من بينها على الخصوص أنواعا من العطر كنت بحاجة اليها ••
س : لحظة واحدة من فضـــــلك • قلت انك فى مايو نزلت الى المدينة فهل افهم من ذلك أنك تعيشين فى مزرعة البلوط معظم أيام السنة ؟
ج : الواقع أننى فى الثلاث سنوات الاخيرة أقيم بصفة عامة هناك طول الوقت ، لاســــباب تتعلق بحـــالة ابنى الصحية
س : هل يشكو ابنك من مرض معين ؟
ج : انه وان لم يكن مريضا بصفة فعلية ، الا أن صحته ضعيفة وتكوينه الدقيق يحتـــاج الى الهـــواء الطلق النقى باستمرار
س : وهل يعيش زوجك معكما فى مزرعة البلوط ؟
ج : ليس كل الوقت • فهو يحضر الى هناك لقضاء يومين او ثلاثة أيام فى الاسبوع أحيانا • وأحيانا أخرى يأتى فى المساء ليعود فى الصباح التالى
س : شكرا لك • استمرى
ج : أين وقفنا ؟
س : وقفنا عند نزولك الى المدينة فى يوم من أيام شهر مايو لشراء أشياء متباينة ، منها على الخصـــوص أنواع من العطر
ج : تذكرت ، كان ذلك نحو منتصف الشـــهر • وفى

المدينة اكتشفت أننى لم أحضر معى مبلغا كافيا من النقود ٠ فتوجهت الى المصنع ٠٠

س : الى مصنع زوجك ؟ وهل تذهبين الى هناك كثيرا ؟

ج : كلا ٠ بل قلما أذهب الى هناك ٠ فشـــئون عمله لا تعنينى ٠ ولم أجده فى مكتبه ، فتـــوجهت الى المعمل الكيماوى الخاص به ، ظنـــا منى أنه قد يكون هنـــاك ٠ فزوجى كيمائى ، وهو يهتم أحيانا بأجراء بعض التجارب بنفسه ٠٠٠ وفى دولاب زجاجى صغير رأيت مجموعة من القوارير عليها بطاقات ٠٠

س : لحظة واحدة من فضلك ٠ ألم تفكرى فى استخدام السم قبل ذلك اليوم ؟

ج : لا أظن هذا ٠ فان كلمة الزرنيخ التى قرأتهـــا على احدى القوارير استرعت انتباهى ، فأخذت القارورة بما فيها من مسحوق أبيض يميل الى اللون الرمادى ووضعتها فى حقيبة يدى بسرعة

س : وفى هذه اللحظة ، هل نبتت لديك فكرة استخدام الزرنيخ ؟

ج : ربما ٠ من الصعب الجزم على كل حال ٠ وبعد ذلك مباشرة حضر زوجى وأعطانى النقود التى اريدها

س : وهل كان من المحتم أن تقدمى اليه حســـابا عما تنفقين من النقود ؟

ج : لقد كان دائما يعطينى كل ما احتاج اليه من المال

س : وهكذا ظللت تخبئين السم مدى ثلاثة اشـــهر فى انتظار اللحظة المناسبة لاستخدامه ؟

ج : أجل

س : وما الذى جعلك تختارين ذلك اليـــوم للتنفيذ ، دون سواه من الايام ؟

ج : لا أدرى . وأشعر الان بالتعب ، فاذا لم يكن لديك مانع ..

ورفع السيد جيفر رأسه ، وقد ارتســـمت على ملامحه امارات الجد والحرج . فلو كان فى رأسه الاصلع شـــعر لتخلله بأصابعه !

ـ وهذا ياسيد دونج هو كل ما وفقت الى الحصول عليه من فمها . وكنت آمل أن تزودنى أنت بما يلقى مزيدا من الضوء على القضية

ونسى السيد جيفر وضعه الرسمى فنظر الى فرانســوا دونج نظرة رجل الى رجل ، ووقف وأخذ يذرع الحجـــرة البيضاء النظيفة الواسعة جيئة وذهابا ، وقد دس يديه فى جيبى بنطلونه الواسع ، واستأنف الكلام :

ـ ليست بى حاجة الى ان أقول لك ياســـيد دونج أن جميع الناس فى المدينة يلغطون بالكلام حول هذه القضية . وكل منهم يعتقد أنها جريمة عاطفية . ولا أكتمك أن الالسنة لاكت أسماء معينة . وأنا لا أجهل أن مثـــل تلك الثرثرة لا يمكن أن يكون لها تأثير على العدالة وعلى القضاء .

وتنحنح قاضى التحقيق وسكت برهة ، ثم قال :

ـ والان ، هل لاحظت اية علامة يمكن أن تؤدى الى الظن بأن زوجتك كانت تعلم أى شىء بخصوص آية علاقة غرامية لك بامرأة أخرى ؟

وكان قاضى التحقيق يتكلم عن هذه المســـــألة بسرعة خاطفة كمن يريد أن يفرغ من موضوع محرج لسامعه غاية

الحرج . بيد أن سامعه أدهشه غاية الدهشــة حين أجابه بهدوء تام قائلا :

ـ ان زوجتى تعلم كل شيء عن علاقاتى النسائية

فحملق قاضى التحقيق المسكين في وجه فرانسوا برهــة طويلة كالمصعوق ، ثم سأله بصوت يحمل كل آثار الارتياع:

ـ أتعني أنك كنت تخبرها ؟

وبنفس الهدوء قال فرانسوا :

ـ اذا ما سألتنى !

فمال قاضى التحقيق برأسه الى الامام ، وقال ببطء :

ـ لا تؤاخذنى على الحاحى الشـــديد فى هذه النقطة بالذات . فأنا فى غاية الدهشة ولذا أرانى بحاجة الى مزيد من الايضاح

فأومأ فرانسوا برأسه كمن يشجعه على السؤال ، فقال القاضى :

ـ أتريد أن تقول ياسيد دونج أنه لم تكن لك علاقــة غرامية واحدة بل جملة علاقات ؟

ـ ان عددها ليس كبيرا جداً . انها عــلاقات قليلة فى الواقع ، ومعظمها غير ذات أهمية . وهى فى الغالب خالية من العقبات

وازداد تحديق السيد جيفر ، وهو يسأل :

ـ وعندما تعود الى البيت فى كل مرة تخبر زوجتك بما حدث ؟

ـ كنت أنظر اليها كصديقة . وكانت ترفع عنى الضيق والحرج وتردنى الى سجيتى

ونطق بهذه الكلمة الاخيرة بصورة آلية تلقــائية ، لم

يلبث أن لفتت نظره فكف عن الكلام ، واستغرق في التفكير الى أن سأله القاضي :
ـ وهل استمرت هذه الاعترافات تجرى بينك وبينهـا منذ أمد طويل ؟
ـ منذ بضع سنوات
ـ كم سنة ؟
ـ لا أستطيع أن أحدد بالضبط
ـ ومع ذلك ظللتما زوجين ؟
ـ كما ترى

ـ ليس هذا ما أعنيه · بل أعنى هل ظلت العـلاقات الزوجية مستمرة رغم هذه الاعتراضات بصورة عادية ؟
ـ ليست بصورة متواترة
ـ هل أفهم من هذا ··· ؟
ـ ليس بالضبط · بل ان صحة زوجتى ولا سيما بعد الوضع ··
ـ آه · فهمت · لقد سمحت لك أن تنشد عند سواها ما أصبحت عاجزة عن تيسيره لك بنفسها
ـ هو شيء من ذلك · وان لم يكن هكذا تماما
ـ ألم تلمح لديها أدنى علامة على الغيرة ؟
ـ اطلاقا

ـ الى النهاية ؟ أى حتى يوم الاحد الذى وقع فيه الحادث، ظللتما صديقين كسابق عهدكما ؟

فأجال فرانسوا عينيه ببطء في قاضي التحقيق من أعلى رأسه الى أخمص قدميه · فرآه في وسط عائلته الكبيرة ، في ذلك البيت العتيق الواسع الارجاء الذى يعرفه جيدا ·

ثم رآه على الطريق الزراعي راكبا دراجته وقد حزم كاحليه لتسهيل حركه الركوب • ثم تراءى له في يوم الاحد خارجا من القداس الكبير مع أطفاله الستة وحرمه المصون !

وبعد فترة صمت طويلة فتح فرانسوا فمه ، وقال :

ـ أجـل

وكان كاتب التحقيق يسجل المناقشة في مثابرة ودقة • وقد سقط من النافذة شعاع الشمس ، والتمع على شعره المضمخ بكمية ضخمة من الزيت •

ومرة أخرى عاد قاضي التحقيق ، يقول :

ـ اتسمح لى يا سيد دونج أن أتعمـــق فى هذه النقطة بالذات ••

ورشق فرانسوا بنظرة الاشفاق التى تعنى أنه يقـــدر مافى الالحاح من ايلام ، ولكن لامندوحة من أداء الواجب فقال فرانسوا باقتضاب .

ـ ليس عندى ما أقوله لك أكثر مما قلت ياسيد جيفر !

ورنت كلمة السيد جيفر هذه على غير انتظار ، فنظر كل منهما الى الاخر بشىء من العجب • فقد جاءت لتنبههما الى أن الموقف بينهما لم يعد موقف قاضى التحقيق من شاهد أو مجنى عليه ، بل هو موقف رجل أمام رجـــل ، يكتنفهمـا الحرج •

وتنحنح قاضى التحقيق ثم التفت ناحية كاتب الجلسـة كأنه يدعوه الى حذف كلمة السيد جيفر من المحضر ، ولكن الكاتب المدرب لم يكن بحاجة الى ذلك التنبيه.

واستطرد قاضى التحقيق فقال :

ـ الواقع يا سيد دونج أنى متلهف على تقديم هذا الملف الى رئيس النيابة بأسرع وقت ممـــكن ، حتى نقضى على

المنخرصات والبلبلة التي تنشأ حتما بسبب مثل هذه القضية في مدينة صغيرة كهذه

ولم يعلق فرانسوا على ذلك بل سأل القاضي :

ـ هل اختارت زوجتي محاميا ؟

ـ لقد رفضت في البداية أن تتخذ محاميا • فلما ألححت عليها اختارت في النهاية محاميا بارعا هو الاستاذ بونيفاس ..

والاستاذ بونيفاس هو أفضل محام مترافع في الاقليم • وعمره نحو ستين سنة ، له لحية ، وقور ، وشهرته العظيمة تجاوزت الاقليم الى جميع المقاطعات المتاخمة

واستأنف القاضي الكلام :

ـ وقابل الاستاذ بونيفاس موكلته بعد ظهر أمس • وقد ادركت عندما حضر لمقابلتي بعد ذلك أنه لم يخرج منها بخير مما خرجت به أنا

وقال فرانسوا في نفسه :

ـ أحسن ! فما شأنهما بهذا الموضوع ؟.وما الذي يريدان اكتشافه على كل حال ؟ ماذا ؟ وما الذي يمكن أن يصنعاه بالحقيقة لو فرضنا المستحيل وعثرا عليها ؟ الحقيقة ! ما هي ؟

وبصوت مسموع قال فرانسوا :

ـ اسمع ياسيادة القاضي

ـ انى مصغ !

ولكن فرانسوا دونج أعتقد أن الوقت لم يحن بعد للكلام ، فقال :

ـ عفوك • لا أدرى ماذا كنت أهم بقوله •• وأنت

تفضلت فى أول ا جلسة وعلمت لى أنك مســـتعد بمجرد شعورى بالتعب ..

ولم يكن ذلك صـــحيحا بالمرة . فذهنه لم يكن فى أى وقت أصفى مما هو الان . وقد اجدى عليه الحديث كثيرا ، لانه كان بمثابة تمرينات ذهنية طردت من دماعه الصـدأ ونسيج العنكبوت

وأسرع القاضى يقول :

ـ فهمت .. سنتركك الان .. ولكن أرجوك أن تعيـد التفكير فى المسألة . وأنا واثق أنك ستتبين بعد اعمـــال فكرك أن من واجبك ومن مصـــلحة زوجتك ، ومن صالح العدالة نفسها ..

ـ طبعا طبعا يا « سيادة القاضى » ! انك رجل فاضل ، ومواطن نموذجى ، وزوج وأب مثالى ، نزيه ، ولا تخلو من ذكاء . وفى نيتى عندما أغادر المستشفى أن أســاعدك فى العثور على بيت فى المدينة يناسبك . فانا أعلم بهذه المدينة من كل انسان ، ولى نفوذ فيها . ومن ذلك تدرك أنى غير حانق عليك ، بل أقدر موقفك . ولكن لا تحـــاول بحق الســـماء أن تفهم بيبى دونج ، فذلك موضوع أعوص من طاقتك !

وأخرجه من حـــديثه الـــداخلى بينه وبين نفسه قول القاضى :

ـ آسف لانى أتعبتك يا سيد دونج

ـ لم تتعبنى اطلاقا .. عفوك

ـ طاب يومك ياسيد دونج

وانحنى قاضى التحقيق فى وقار وغادر الحجرة ووراءه الكاتب .

الفصل العاشر :

مع جاليبر

وما أن خرج قاضي التحقيق وكاتبه حتى جلس فرانسوا على فراشه وجعل يحملق في المنضدة التي كان يشغلها الكاتب بأوراقه ، وحدث نفسه بأن بيبي تصرفت مع المحقق التصرف الذي كان ينبغي عليها بالضبط • والحقيقة أنه لم يشعر في وقت من الاوقات أنه قريب منها ، مثل شعوره الان ، وجانب لا يستهان به من اجاباتها في التحقيق كان خليقا ان يكون رده على تلك الاسئلة لو انها وجهت اليه ، حتى لقد شعر أثناء قيام القاضي بتلاوة المحاضر برغبته في الابتسام ، ابتسامة الرضى والموافقة

فهل تراه كان سعيدا في تلك اللحظة ؟

انه لم يوجه الى نفسه ذلك السؤال ، بيد أنه يشعر بالخفة والارتياح وعلى هذه الحالة وجدته الاخت أدوني عندما دخلت عليه تستشيره في فتح النافذة ، فقال لها :

ـ هذا تلطف منك يا أختاه •• نعم افتحيها من فضلك • فقد بدأت احب هذا الفناء الظليل واولئك المرضى بمشيتهم البطيئة ••• وبالامس رأيت أحدهم ، وهو رجل مسن ، يتوارى وراء شجرة ليدخن ••

فوضعت الاخت آدوني سبابتها على فمها ، وقالت :

ـ صه .. ! فانك ان اخبرتني سأضطر لتوقيع العقاب عليه

فسألها بدهشة :

ـ وما العقوبة التي توقعينها عليه ؟

ـ سأحرمه من منحة الاحد

ـ وما حكاية هذه المنحة ؟

ـ اننا نعطي العجائز المقيمين في المستشفى بسبب عجزهم عن العمل منحة مالية صغيرة كل يوم أحد للترفيه عن أنفسهم .

فلمعت عيناه ، وقال لها :

ـ ان حافظة نقودي موجودة في أحد جيوبي المعلقة هناك . فخذي كل ما تجدينه فيها ، مساهمة مني في منحة الاحد لعجائزك .

فنفذت الاخت آدوني رغبته ، ثم قالت :

ـ أوه ! لقد نسيت فلديك زائر ، ولكن لا ادري ..

فقاطعها فرانسوا قائلا :

ـ اقسم لك أيتها الأخت اني لست متعبا . فمن هو هذا الزائر ؟.

ـ الدكتور جاليبر .

وبطبيعة الحال كانت الاخت الصالحة قد سمعت أيضا بما تناقلته الألسنة . وكان ذلك واضحا جدا من حيائها المخدوش عند ذكر الاسم .

ـ دعيه يدخل يا أخت .. فلابد أنه منزعج جدا .

ـ انه في الواقع مكث يذرع هذا الدهليز منذ نصف ساعة ، وهو لا يكف طول الوقت عن التدخين .. ولم اجسر على تنبيهه الى مخالفة ذلك للتعليمات ، لانه طبيب .

وأدخلت الأخت الطبيب جاليبر ، فدخل مندفعا ، وقد وضع على فمه ابتسامة ثابتة ، وصاح بصوت مرتفع :

ـ كيف صحتك أيها العجوز ؟ ارجو الا تكون الحالة سيئة جدا .. لقــد أخبرنى ليفير أنك تحملت الآلام بشجاعة .

وعندئذ غادرت الاخت آدونى الحجرة وقد ارتسم الانكار على كيانها كله ، واستطرد الدكتور جاليبر :

ـ لقد قابلت قاضى التحقيق منذ قليل وهو خارج . واتفق أننى حضرت للمستشفى كى أعود أحــد مرضاى النازلين هنا .. وما كنت لازعجك لو لم يخبرونى أنك اصبحت اليوم على ما يرام .. فهل لا يضايقك ان ادخل ؟.

فاوما فرانسوا برأسه موافقا . وعندئذ أشعل جاليبر سيجارة ، وبدأ يذرع الحجرة . ثم توقف . ثم اتجه نحو النافذة . وكان جاليبر نحيفا سيء التكوين ، قبيح النفس والجسم معا . وأخيرا قال :

ـ اظن أن ذلك المسكين العجوز جيفر حاول أن ينتزع منك ما يريد .

ـ انه على العكس كان لبقا جدا .

فابتسم جاليبر ابتسامة تدل على القلق ، وقال :

ـ هل كان بعيدا عن الفضول والتطفل ؟.

ـ انه يبذل غاية جهده للعثور على الحقيقة ، الحقيقة التى لم أزل شخصيا أجهلها .

فزوى جاليبر ما بين حاجبيه ، وقال بلهجة فجة :

ـ انت تمزح !.

وشعر فرانسوا بالضيق . لاضطرازه من أجل خاطر اولجا جاليبر التى يدللونها باسم لولو ، ومن أجل جسدها المائع الذى يتفجر بالانوثة ورحيق الحيــاة ، ومن أجل

أقبالها على الهوى اقبال مشوق مستهام ، تخلع فى غمار لذاته العذار ، ولا تبالى جمحاتها بأى اعتبار . من أجلها يروض فرانسوا نفسه على تحمل هذا الزوج البغيض ، فيصافحه مبتسما فى مودة ، ويلاعبه البريدج ، ويعامله معاملة الصديق ! بل ويروض نفسه على مؤاكلته فوق مائدة واحدة ، من أجل مائدة أخرى شهية يصيب منها فرانسوا فى غفلة من صاحبها ولو فى الظاهر .

وتنبه على صوت جاليبر الكريه ، وهو يقول له :

ـ يجب أن تكون عرفت الآن ماذا سيكون دفاع زوجتك .. ويقال أنها وكلت عنها بونيفاس .. ولست أدرى ما الذى يمكن أن يقوله عجوز متعنت متزمت مثل بونيفاس دفاعا عن جريمة كهذه .

فأدرك فرانسوا أن زوج عشيقته لابد أن يكون منزعجا جدا . فهو فى انتظار كلمة واحدة تسرى عنه هذا الفزع ، تنطلق من فم فرانسوا ولكن فرانسوا قرر أن يضن عليه بها ليزيد من كربه . وليعرف ماذا يمكن أن يصنع جاليبر ليحمله على الكلام .

واستطرد جاليبر قائلا :

ـ ان بونيفاس بلحيته المربعة وحاجبيه الكثيفين ، ورداء المحاماة الاسود اللامع يكاد يبدو للناس صورة مجسمة لقديس ... ومثل هذا الرجل لا يمكن ان يتردد فى سبيل الادلاء بمرافعة طنانة رنانة عن جلب العار والشنار على رأس اية مجموعة من الناس ، متشدقا باسم العفة والفضيلة ، فيهز مشاعر الجماهير .

وظل فرانسوا صامتا جامد الوجه ، فاضطر جاليبر ان يستطرد :

ـ ان تكليف محام من طراز بونيفاس بجريمة عاطفية

من شأنه .. وعندئذ قاطعه فرانسوا بصوت ناعم للغاية :
ـ ليس هناك تفكير فى اثارة اية ناحية عاطفية فى القضية !.

فبذل جاليبر جهدا كبيرا حتى لا يقفز فى الهواء من فرط السرور ولكى يبدو معقولا متزنا فى دهشته ، فقد قال :

ـ اذن ما الذى يمكن أن ينبنى على أساسه دفاع زوجتك ؟.

وبنفس الصوت الناعم للغاية قال فرانسوا :
ـ زوجتى لن تتقدم بأى دفاع عن نفسها !.
ـ أتنوى ان تنكر التهمة كلية ؟ ان الصحيفة هذا الصباح تقول ..
ـ ماذا تقول الصحيفة ؟.
ـ انها قد اعترفت بكل شيء ، وان الاعتراف كامل ، ويتضمن الاقرار بأنها دست لك السم مع سبق الاصرار.
ـ وهذا صحيح .
ـ وفى هذه الحالة ؟.
ـ وفى هذه الحالة لا شيء !.

ولم يستطع جاليبر أن يصدق أذنيه ، وهو الرجل الذى ما كان ليتردد فى قتل عشرة من مرضاه ان كان ذلك من شأنه أن يؤدى لتوسيع مستشفاه او شراء سيارة أفضل من سيارته ، ونظر الى فرانسوا بقلق ، وقد خطر له أنه يعبث به ، ثم قال فى تردد :

ـ انها على كل حال يجب أن تتقدم بدفاع . ولهذا وكلت عنها محاميا بارعا .. وفى هذه الحالة ستضطر الى المساس بطرف ثالث .

وبالصوت الناعم جدا قال فرانسوا :

ـ انها لن تتقدم بأى دفاع .

فابتسم جاليبر ابتسامة متهالكة ، وقال :

ـ لقد كانت على الدوام امرأة مستعصية على الفهم . لقد كنت أتحدث عنها بالامس .. ولا أذكر الآن مع من .. فقلت عنها .

فقاطعه فرانسوا ، وقال باقتضاب :

ـ ما من أحد عرف ما يدور بخلد بيبى دونج .

ـ ربما كان السبب فى ذلك هو نشأتها فى الاستانة . ويجب أن تعرف بأن أمها لا تخلو من غرابة الاطوار .. ولكن ما الدافع الذى تعلل به جريمتها على كل حال ؟.

ـ انها لا تذكر دافعا .. اى دافع !.

ـ هل ستدفع باختلال قواها العقلية ؟ ان هذا الدفع من الوجهـة الطبية سائغ للغـاية . وفيما يختص بى ستجدنى على أتم استعداد اذا احتاج الأمر لشهادة أو تقرير .. بل انى تحدثت مع ليفير فى هذا الموضوع ، وهو مستعد لتوقيع الشهادة اللازمة .

فغالب فرانسوا نفسه حتى يبتسم ، وهو ينظر الى ذلك الطبيب المتحمس لعملية تزوير ، واستطرد جاليبر :

ـ أنا أعلم أيها الصديق أن اتصالك ببونيفاس فى هذه الظروف لن يكون سليما . ولكنك تستطيع ان توسط فى ذلك صديقا موثوقا به ، كى يبلغه انه اذا رأى من اللائق الدفع باضطراب قواها العقلية سيكسب القضية ، واننى من جانبى سأتولى تسوية المسألة مع الاطباء الذين تنتدبهم المحكمة لهذا الغرض .

.. وظل فرانسوا ساكتا جامد الأسارير الى أن انتهى جاليبر من كلامه فقال له بهدوئه الكامل :

ـ ان بيبى ليست مجنونة .. لا تنزعج يا جاليبر .. وسوف ترى أن كل شيء سيكون على ما يرام . والآن ارجو أن تسمح لى فقد حان موعد العلاج .

ومد يده ورن الجرس . ففتحت الاخت آدولى الباب ودخلت من غير أن تنتظر اذنا ، وسألته :

ـ هل ناديتنى ؟.

ـ يمكن البدء فى العلاج فورا يا أخت .

فقد كان متلهفا على الاختلاء بنفسه ، وقد غيروا له ثياب ومفارش سريره . والواقع أن تلهفه كان أكثر للاختلاء بذكرياته مع بيبى دونج .

ولذا تحول بذهنه اليها ، ولم ينتظر خروج جاليبر . ولم يلق باله الى تحيته بل اغلق عينيه واسلم نفسه بغير اكتراث للمسات الممرضة وهى تخلع ثيابه وتقوم بالعلاج ثم تلبسه ثيابه وتقوم بالعلاج ثم تلبسه ثيابا نظيفة . بل انها حين سألته :

ـ هل سببت لك الما ؟.

لم يجب ، لأنه كان بعيدا عنها فى عالم آخر . وليس معنى هذا انه لم يكن متألما . ولكن ذلك الالم لم يكن ذا بال .

الفصل الحادى عشر :

فى عالم اخر

انه ليس فى حجرة مستشفى . بل فى حجرة فندق ... فندق مصيف ، له شرفات ناصعة البياض ، ومن شرفة الحجرة يبدو المنظر منبسطا متراميا ، يشمل مرفأ بأكمله ، وهو يموج بأشرعة السفن ، وبالزوارق الطويلة النحيلة تتلامس متجاورة ، ومن ورائه ذلك الخضم الازرق الرائق وقد حفل بالقوارب البخارية ذاهبة مقبلة ترمى من حولها بالزبد .

وكان فليكس وجان قد انعقد اختيارهما على مدينة نابلى لقضاء شهر العسل . لا من أجل مزايا نابلى بالذات، بل محافظة على مظاهر اللياقة والكياسة ، وتحاشيا لما يمكن أن يقوله الناس لو أن الشقيقين تلازما فى شهر العسل أيضا . ومن يدرى ؟ لعل ذلك الافتراق بين الاخوين فى تلك الفترة كان خطأ له ما بعده !.

واستغرقت الرحلة طول الليل فى عربة النوم بالقطار السريع . وعند نزولهما كانت المحطة تموج بالزهر الفواح. وكان مندوب الفندق فى انتظارهما :

— السيد والسيدة دونج ؟ .. من هنا من فضلكما .

وكان فرانسوا يفتر ثغره عن أشد ابتساماته سخرية ،

وقد ظهرت على محياه تلك الامارات التى يتخذها حينما يكون بعيدا عن الرضى عن نفسه ، والحق أنه كان فى أعماقه مذعورا ، وشاعرا بسخافته !.

اليس دورا سخيفا للغاية أن تكون عريسا شابا وسط حجرة ملأى بباقات الورود وبالهدايا التى قدمت فى آخر لحظة ، وبالقرب منك فتاة عذراء تنتظر اقدامك عليها ، لتنقلها نقلة حاسمة من طور فى انوثتها الى طور آخر . وهى تعلم أن تلك الساعة قد حانت ، ولعلها ترقبك بمزيج فظيع من اللهفة والارتياع ؟!.

وسمعها تفتح فمها لأول مرة ، وتقول له :

ـ اتدرى يا فرانسوا بماذا تحدثنى نفسى ؟.

فتطلع اليها متسائلا ، فقالت :

ـ اخشى أن ترمينى بالحماقة ... نفسى تحدثنى أن اركب زورقا واجدف ... فان ذلك يذكرنى بالبسفور ... الديك مانع ؟.

واى مانع كان يمكن أن يبديه ؟ ولكن المسالة فى حد ذاتها سخيفة . وازداد الشعور بالسخف والحرج عندما اتضح أن الشاطىء خال من زوارق ذات مجاديف . وعرض بعض أصحاب الزوارق البخارية عليهما النزهة الى جزيرة مرجريت . وكان العرض دائما بلهجة التواطؤ على رحلة شاعرية ، فشعر فرانسوا بسخافة الوضع . ولكن بيبى لم تشعر بذلك ، وتعلقت بذراعه وهمست :

ـ ما أحلى هذا !. زورق بخارى صغير ليس فيه سوانا .

فتصامم فرانسوا عن همسها . واخيرا حلت المشكلة

بالعثور على زورق ذى مجاديف . ولكن الزورق كان ثقيلا . وكانت المجاديف غير مثبتة جيدا فى أعينها بالقارب . فكانت تخرج مع كل حركة . وكان الجو حارا .

وجلست بيبى عند المقدمة تغمر يديها فى الماء ، فكأنها صورة جميلة ملونة مرسومة على بطاقة بريد !. وجعل الصيادون ينظرون اليهما ويبتسمون ابتسامات ذات معنى ، فاغتاظ فرانسوا . ولم يخرجه من غيظه سوى خطر انقلاب الزورق بتأثير يخت ضخم فى طريقه الى المرفأ .

وكأنما قرأت بيبى سخطه المكظوم ، فقالت :

ـ هل انت ساخط ؟ ... انى كثيرا ما كنت اخرج فى زورق بمفردى فوق مياه البسفور . واترك الزورق للتيار يحمله حيث يشاء ، الى أن يطبق ظلام الليل على .

آه طبعا !. فوق البسفور ...!

وعند العودة أبدى رغبة فى احتساء كأس فى مقصف الفندق . ولكنها تركته لتصعد . وحتى عامل المصعد لم يعفه من ابتسامته ذات المعنى الفاجر . مع ان الساعة كانت العاشرة صباحا .!

وفى الحجرة قالت له :

ـ الا يفزعك كل هذا الضوء الساطع يا فرانسوا ؟.

ـ يفزعنى ؟ لماذا ؟.

ـ انى أشعر كأن البحر ينظر الينا ، فاستحى !.

البحر ينظر اليها ؟ ومع ذلك لا بأس !.

وارخى فرانسوا المصاريع الخشبية . فصار كل شيء فى الحجرة تتخلله شرائح رفيعة من الضوء . بما فى ذلك جسم بيبى ، وهى نصف عارية ... ولم تكن تعرف كيف تقبل . أو تتلقى القبلة . فظل ثغرها جامدا لا يتحرك. ولعلها كانت تعلم أن التقبيل ضرورى للزواج . ولكنها بغير شك احست أنه عادة همجية .!

وظلت طوال الوقت مفتوحة العينين تحملق فى السقف الابيض . وبين الحين والحين يعكر صفاء وجهها الشاحب تقلص خفيف أشبه بأعراض الالم .. فلا يدرى ما الذى قاله لها فى تلك اللحظة الحاسمة بالضبط ... ولكنه كلام من قبيل :

ـ سترين فيما بعد .. بعد ايام قلائل .

فضغطت على يده بأصابعها الندية ، وهمست قائلة :

ـ طبعا طبعا يا فرانسوا ...

بلهجة من يتكلم للتسرية عن شخص حتى لا يثقل عليه أساه .

ولم يدر فرانســوا ماذا يصنع ، أو ماذا ينبغى أن يصنع ، فنهض واتجه نحو الشرفة ، ففتحها ودخــل الضوء ثم أشعل السيجار ...

ولو أنه ترك نفسه على سجيتها ، ووجد الجسارة فى تلك اللحظة ، لدق الجرس وطلب كاسا من الويسكى أو كوبا من النبيذ .

وجذبت بيبى الاغطية فوق جسدها لتحميه من الضوء. ودفنت وجهها بين الوسائد فلم يعد يرى شعرها الذهبى. وحدثته نفسه أنها تبكى .

ـ اتبكين ؟.

وكان يفزع من الدموع ، ويفزع من كل ما يعقد امور الحياة البسيطة ، ومن قبيل النزهات الشاعرية السخيفة فى الزوارق ، أو التحديق بعينيها فى السقف ، أو التعقيب على ما هو طبيعى بقطرات من ماء العيون ...

ــ اسمعى يا عزيزتى ... سأتركك الآن لتستريحى، وانزلى بعد ساعة او ساعتين لنتناول الغداء فى الشرفة الكبرى .

فلما نزلت مرتدية ثوبا سمنى اللون اظهر نحافتها وأضفى عليها طابع الجد فى حركاتها وخطواتها وملامح وجهها ، وجدته فى مقصف الفندق فقالت :

ــ أأنت هنا ؟

فلماذا أحس فى هاتين الكلمتين طعم التأنيب ؟ ولماذا هذه النظرة العاتبة الى سيجارته ؟.

ــ كنت فى انتظارك .. فهل نمت ؟.

ــ لا أدرى .

وجاء كبير الخدم فانحنى باحترام ، وقال :

ــ هل تحب سيدتى أن تتناول طعام الغداء فى الشمس ام فى الظل ؟.

فقالت على الفور :

ــ فى الشمس .

ثم لم تلبث أن استرجعت ، وقالت بسرعة :

ــ ولكن اذا كنت يا فرانسوا تفضل الظل .

وكان فعلا يفضل الظل بيد انه لم يقل شيئا ، فقالت له :

ــ لقد خيبت أملك .

وأدرك انها تعنى شيئا غير الطعام ، فقال :

ـ كلا بالطبع .
ـ انى آسفة .
ـ لماذا تصرين على الكلام فى هذا الموضوع ؟.
ورفع راسه عن الطعام الذى كان يلتهمه بشهية بالغة، فوجدها لا تمد يدها الى الطعام ، واسرعت تقول :

ـ لست جائعة ... ولكن ذلك لا ينبغى أن يوقفك عن الاكل .. كل رجائى الا ترغمنى على الطعام .
وسكت فلم يقل شيئا . فسألته :
ـ أغاضب أنت ؟.

ـ طبعا لست غاضبا !.
ولكن بالرغم من ارادته ظل الغضب فى نبرات صوته.
ونبهه صوت الممرضة وهى تقول :

ـ انتهينا يا سيد دونج ... أرجو الا تكون قد تألمت كثيرا والآن تستطيع أن تستريح ساعتين أو ثلاث ساعات .. بل لحظة واحدة من فضلك ، الى أن تشرب هذا الدواء .

ومن خلال أهدابه المطبقة لمح بصورة غامضة قلنسوة الراهبة البيضاء التى تعلو وجه الاخت آدونى الصبوح العطوف .

الفصل الثاني عشر :

وعد

اتم فرانسوا عقدة رباط عنقه من غير ان يستعين بمرآة . لا عن قدرة خارقة ، بل لأن المستشفى خال من المرايا . ولعل السبب فى ذلك رغبتهم فى تجنب ترويع المرضى اذا ما راوا سحنتهم الصفراء فى مرآة .

وكانت النافذة مفتوحة على سعتها ، والظل الذى تلقيه أشجار الكافور على الارض يبدو منعشا وطبا يدعو الى الاستمتاع به ، على الرغم من أولئك العجائز الناقهين أو المقعدين الذين احتلوا كل مكان ظليل

واجال فرانسوا عينيه فى الحجرة ، وخامره شيء من الحزن لأنه سوف لا يحتل بعد الآن جانبا من هذا الجو . ولاحظ أن الاوراق الخاصة به نزعت هذا الصباح حتى لا يبقى منه فى الغرفة اثر بعد رحيله

واقبل فليكس مرتديا بدلة ذات لون فاتح ، وقد فرغ من مقابلة سكرتير المستشفى ، فسأل بصوت يشيع فيه المرح :

ــ مستعد ؟

فقال فرانسوا بهدوء تام :

ــ مستعد . . . فهل فرغت من تسوية جميع المسائل ؟

ــ طبعا ...

ــ والممرضات ؟ انك لم تنسهن طبعا ؟

ــ تذكرتهن جميعا

فقطب فرانسوا حاجبيه ، وقال :

ــ كان يجب أن أنبهك حتى لا تعطى شيئا للسمراء الحولاء القصيرة . فقد تركتنى ذات مرة طول الليل من غير أن تلبى ندائى

وفى الدهليز ، التقى بالأخت آدونى ، فقال باسما :

ــ الآن سأتركك يا أخت ، وأحب أن أسألك عن عدد العجائز المقعدين الذين تحت رعايتك

فابتسمت الأخت آدونى ، وقالت :

ــ نحو عشرين

ــ انتظرى لحظة ... بمعدل عشرة فرنكات كل يوم احدا ... يافليكس ، قدم للأخت آدونى ألف فرنك ، وابعث اليها مثل هذا المبلغ كل شهر ... ولكن بشرط أن تغلقى عينيك يا أخت عندما تعثرين على السجائر فى جيوبهم .

واستقل بعد ذلك سيارة فليكس . ثم نفذت الى أنفه رائحة الشارع التى بعد عهده بها . وجعل بين لحظة وأخرى يختلس نظرة الى أخيه فى المرآة من غير أن يتكلم ... وأخيرا قال فليكس :

ــ لقد ذهبت جان وزارتها بالأمس

وأدرك فرانسوا من التى يعنيها .. فسأله بهدوء :

ــ وماذا قالت لها ؟.

ــ سألت عن حالك . فلما عرفت أن جان هى التى

تعني بالصبي شخصيا بالاشتراك مع مارت لم يظهر عليها السرور لذلك النبأ .

ـ وماذا كان تعليقها ؟

ـ قالت : « لقد تركت تعليمات مفصلة بين يدي مارت ، وأحب أن تأتي لمقابلتي في أقرب وقت » . ويظهر انها كانت بالغة الهدوء ، كالعهد بها دائما . فسألت عن أمها سؤالا عاديا جدا . وقبل أن تنصرف جان قالت لها : « اسمعي يابيبي ... انك تستطيعين أن تصارحيني انا على الأقل ... » فما كان من زوجتك الا أن قالت لها : « أنت آخر انسان استطيع أن أصارحه بشيء . الم تلاحظي أنه ليس بيننا اى شيء مشترك ؟ ... قولي لمارت ان تأتي لمقابلتي ، وكفى أنت عن رعاية أمور جاك .. »

ـ أهذا كل شيء ؟

ـ هذا كل شيء

ـ وكيف الحالة في مزرعة البلوط ؟

ـ كل شيء هناك على ما يرام ... وان كانت جان بالطبع غير راضية تمام الرضي ... ولا سيما فيما يختص بجاك ، فكأن زوجتك قد اتهمتها بعدم الكفاءة لتربية الاطفال .

ووصلت السيارة الى رصيف الدباغين ، ولاح البيت الابيض الكبير في نهايته . ورأى الاحجار غير المستوية حيث كان يلعب البلى وهو صغير . ونزل فرانسوا من السيارة وحده ودخل البناء ، لا من الباب الخصوصي المفضي الى البيت ، بل من مدخل المكتب

ـ طاب صباحك ياسيد فرانسوا

ـ طاب صباحك يامدام فلامان
وكان فرانسوا قد نسي وجودها تمام النسيان !
اما هي فكانت محتقنة الوجه ، واضعة احدى يديها على قلبها الخافق، وهي تنظر أليه بعينين نديتين بالدمع. ولاشك انها كانت المسئولة من وجود تلك الورود فوق مكتبه

وبصوت مرتجف خاطبته قائلة :

ـ انك لن تستطيع أن تتصور كيف ارتاع كل انسان عندما وصل النبأ الينا .. أتشعر بضعف شديد ؟
فادار نحوها ظهره ثم هز كتفيه . وملأت انفه رائحة المدبغ النفاذة ، تلك الرائحة التي الفها منذ صغره . واخذ يتطلع الى جدران المكتب . فوقع نظره على اطار به صورة مؤتمر الدباغين بباريس . وفي تلك الصورة وقف والده معقود الذراعين فوق صدره وبعد برهة صمت ، قال لاخيه :

ـ هل دفعت شركة نانسي دينها يا فليكس ؟
ـ لقد اقتضى الأمر منا كفاحا ، ولكنهم دفعوا في النهاية

وكانت هذه هي الحجرة الوحيدة في البيت كله التي لم يطرأ عليها تغيير . ففي خارج هذه الحجرة غير الاخوان كل شيء ، تلبية للتطورات العصرية ، أما هذه الحجرة فبقيت على حالها من أيام والدهما . وظلت الجدران مبطنة بورق أصفر من القدم . والمكتب الذي يجلس اليه فرانسوا كان مكتب أبيه من قبل ، وهو مبطن بجلد أخضر داكن انتشرت فوقه بقع من الحبر البنفسجي .
وفوق المكتب أرفف مقسمة الى خانات .

وعلى الجدار المواجه لمكتبه صورة فوتوغرافية مكبرة لوالده بشاربه الطويل وشعره الغزير ، وياقته البيضاء المنشاة ، ورباط عنقه الاسود ، كأنه صانع يرتدى الثياب يوم الأحد .

وكانت هذه الصورة فيما مضى معلقة مع صورة والدته فى حجرة نومه ، الى أن جاءت بيبى لتقيم فى هذا البيت وتحدثت عن أدخال التعديلات العصرية عليه . والآن ها هى امه أيضا وقد علقت صورتها فى حجرة المكتب ، على الجدران الآخر المواجه لمكتب فليكس

وفغمت أنفه رائحة أخرى الفها فى هذا المكتب . وسمع صوت مدام فلامان .

ـ وضعت خطابا شخصيا فوق مكتبه .

وكانت هذه الرائحة النفاذة هى رائحة مدام فلامان سكرتيرته . وهى أمرأة ذات شعر أحمر وعينين لامعتين، وفم كالثمرة الناضجة وجسم بض التكوين ، ولكنه يفرز العرق بسخاء .

أليس بسببها ، فى البداية حدث . . .

وعدل عن الاسترسال فى التفكير ، الى النظر فى الخطاب الشخصى . فاذا به يحمل خاتم بريد دوفيل ، وهو بخط أولجا جاليبر ، فلم يجد فى نفسه لهفة لفضه. وفى هذه الاثناء كان فليكس جالسا الى مكتبه يفض بريد المؤسسة .

وفى يوم مثل هذا ، بعد زواجه بشهرين تقريبا ، حضرت بيبى فى ثوب خفيف من الحرير الى المكتب على غير انتظار ، وسألت عند الباب :

ـ هل أستطيع الدخول

وكان فليكس فى الخارج . ومدام فلامان جالسة الى مكتبها ، فأسرعت بالنهوض كي تنحنى امامها ، ثم اتجهت نحو الباب . فسألها فرانسوا :
ـ اين انت ذاهبة ؟
فأجابت مدام فلامان متلعثمة
ـ ظننت ...
ـ لاداعى لخروجك ...
والتفت الى زوجته ، وسألها :
ـ ما المسألة ياعزيزتى ؟
ولم يكن لبيبى سابق عهد بالمكتب ، فكانت منصرفة الى دراسة جميع التفاصيل بنظرها ، وقالت :
ـ جئت للتحية فقط ... آه ! هنا اذن وضعت الصورتين ؟
ثم فطن إلى اجفالها عندما مرت بقرب السكرتيرة . وكان ذلك بسبب الرائحة النفاذة بالطبع
وفى الظهر ، حينما جلسا لتناول الغداء حول المائدة المستديرة ، سألته :
ـ هل هذه الفتاة من المحتم بقاؤها فى مكتبك ؟
ـ مدام فلامان امرأة متزوجة ... وهى سكرتيرتى منذ ستة أعوام ... وأصبحت لها خبرة تامة بجميع اشغالنا .
فقالت بيبى بلا تردد :
ـ لا أدرى كيف تستطيع تحمل رائحتها ؟
ولعل أضخم عناصر المشكلة نجم عن اعتقاده الراسخ أن زوجته لا تقول شيئا ، ولا تفعل شيئا ، الا اذا فكرت فيه مليا . فهى تتكلم دائما بهدوء تام ، وتنظر فى عينيه

نظرات ثابتة مستقيمة ... ولما رأته ساكتا لا يجيب ، اسخطته بقولها :

ــ ولكنك على كل حال أعلم مني بما يصلح لك

فأجابها باقتضاب قائلا :

ــ طبعا !

وانه اذ يعيد التفكير في ذلك الآن ، يذكر انها حملت فليكس على مصاحبتها كي تشاهد جميع اجزاء المصانع ، حتى ألمت بدقائق العمل وكلياته . وبعد ذلك ببضعة أيام ، كان جالسا بمفرده يوم احد ينجز عملا عاجلا في مكتبه ، فدخلت مرتدية ثوبا من الحرير المطبوع ، وقالت له :

ــ هل يضايقك وجودي ؟

وراحت تتنقل في الحجرة . وكان يلمح بين الحين والحين أظافرها البراقة التي تقضي نصف ساعة كل يوم في تجميلها وطلائها . وفجأة سمعها تقول :

ــ خبرني يافرانسوا

ــ نعم ؟

ــ الا تظن اني استطيع أن أساعدك ايضا ؟

فنظر اليها مقطبا ، وسألها :

ــ وأي عمل تريدين أن تقومي به ؟

فقالت بكل هدوء ، وببساطة :

ــ الاعمال المكتبية هنا معك

ــ أتعنين بدلا من مدام فلامان ؟

ولم تطرف عيناها أمام نظرته الثاقبة ، وقالت :

ــ ولم لا ؟

ولما وجدته صامتا لا يجيب استطردت :

ـ وان كنت غير مطمئن الى درايتى باستعمال الآلة الكاتبة ، ففى استطاعتى أن أتمرن عليها بسرعة فائقة ، فقد كانت عندى فى اسطنبول آلة كاتبة صغيرة من الطراز الذى يحمل فى الاسفار وكنت أكتب عليهـــا جميـــع خطاباتى . . .

وخطر بباله أنها ستأتى فى كامل زينتها ، بأظـافر حمراء ، وثياب فاخرة خفيفة ملونة كأنها جناح الفراشة. وطبعا لن يكون ذلك قبل العاشرة أو الحادية عشرة ، تتضوع منها عطور الحمام ومستحضرات الزينة الفاخرة. فهى اذن تتقد غيرة من مدام فلامان !

ـ هذا مستحيل ياعزيزتى . وستقضين ســنوات وسنوات الى أن تتعلمى جميع دخائل المهنة . ثم هـذا ليس مكانك الطبيعى

وبنفس الهدوء قالت :

ـ انى آسفة . . . لن أثير هذا الموضوع مرة اخرى

وكان فى مقدوره أن يقول لها بضع كلمات لطيفة كى يسعدها وتخرج راضية . ولكنه لم يفعل . مع أنه هم أن يناديها عندما رآها خارجة وقد تصلبت رقبتهـــا قليلا من الاستياء . الا انه قال لنفسه :

ـ لا ينبغى أن أقابل هـذه الاعمال الطفيليـة باللين والهوادة والا استمراتها واصبحت الحياة لا تطاق .

وبعد ربع ساعة سمع خطواتها وهى تسير فى حجرة نومهما متنقلة فى أرجائها . ترى ماذا كانت تصـنع ؟ لعلها تأخذ مقاييس الحجرة ، فهى مشغولة الذهن بتغيير الاثاث . ومن مراحل هذا التغيير نقلّ صورتى والديه من حجرة النوم . وكل مساء يجد حولهـا عينـــات وكتالوجات . وتسأله ؟

ـ ماذا ترى يا فرانسوا فى هذا الصوين الاخضر ؟
ـ جميل جدا
... ولكنه غالى الثمن جدا ، ومع هذا لم أجد قماشا آخر يصلح للغرض
ـ اشتريه أن شئت . فأنت تعلمين اننى لا أدقق فى هذه الأمور
ـ ولكنى أحب ان اعرف رأيك

رأيه ؟ ان رأيه ان يبقى البيت على ما هو عليه . فهل تراه اخطأ لأنه لم يقل لها ذلك بصراحة ؟ ولكن كان الدافع الى الصمت انه آثر أن يترك لها الحرية كى تتسلى بهذه الصغائر الطفيلية وتدعه لشأنه فلاتزعجه بامورها

وكان لا يحب أن يراها منصرفة الى التفكير . اذ كان يصعب عليه فى هذه الحالة أن يلاحظها . ثم أنه يكره التعقيدات ، وهى مغرمة بتعقيد كل شىء لغير سبب ظاهر . فمثلا ، فى الاسبوع الثالث بعد عودتهما من رحلة العسل فى كان ، كان أثاث البيت على ماهو عليه . وكانا ينامان فى فراش والديه الكبير العتيق . والورق الذى يبطن جدران المخدع هو بعينه الورق العتيق الذى كان فى عهد أبويه . وذات صباح أستيقظ فرانسوا فى ساعة مبكرة جدا على صياح ديك ، واحس احساسا غامضا بشىء غير عادى . وظل راقدا لا يتحرك برهة ثم فتح عينيه ، فاذا به يرى بيبى جالسة فى الفراش الى جواره ترقبه بانتباه شديد ، فسألها :
ـ ماذا تصنعين ؟
وبهدوء تام اجابته :
ـ لا شىء ... كنت اصغى الى تنفسك ... فوجدته

أعلى وأنت راقد على جانبك الأيسر ، مما هو وأنت راقد على جانبك الأيمن

ولم يجد فى ذلك ما يشرح صدره ، فقال باقتضاب :

ــ لقد كنت دائما سيء النوم على جانبى الأيسر ...

ــ اتدرى فيم كنت أفكر يافرانسوا ؟

ــ .. .. .

ــ كنت أفكر فى اننا من الآن فصاعدا سنعيش باستمرار معا . وسنصل الى الشيخوخة معا . وسنموت معا

وكان يبدو عليها الجد التام وهى جالسة على تلك الصورة فى قميص نومها . وكانت الساعة لم تتجاوز الخامسة صباحا ، وبه رغبة شديدة فى استئناف النوم. ولكنها استطردت تقول :

ــ وكنت افكر أيضا فى أنها خسارة كبرى لى لأنى لم أعرف والدك

فقال فى نفسه :

ــ وهل هى خسارة كبرى حقا ؟ أو خسارة على الاطلاق ؟ بل انها نعمة ! فكيف كان دونج الكبير يتقبل زوجة ابن مثل بيبى ؟ الم يخطر ذلك ببالها ؟ ألم تدرك ذلك من صور هذا الدباغ بشاربه الكبير وذراعيه القويتين المعقودتين على صدره ، شأنه فى جميع صوره ؟

وحسبته لشروده فى تلك الافكار نائما فسألته :

ــ هل نمت يافرانسوا ؟

ــ كلا

ــ هل يضايقك كلامى ؟

ــ كلا

ــ أحب أن أسألك شيئا آخر

ــ نعم ؟

ــ أريد منك أن تعدني بشيء . ولكن لا تعدني أن لم يكن في نيتك أن تبر بذلك الوعد حرفيا

ــ أي وعد تعنين ؟

ــ عدني ، مهما كانت الظروف ، أن تكون على الدوام صريحا معي كل الصراحة ... عدني أن تخبرني دائما بالحقيقة ، حتى وان اعتقدت انها ستؤلمني ... أفهمت ما أريد يافرانسوا ؟ ... ما أقبح أن نعيش حياتنا كلها معا جنبا الى جنب في جو من الغش والخديعة ... فان شعرت أني خيبت آمالك ، فلتصارحني بذلك ، وان أحسست يوما ما انك لم تعد تحبني ، يجب أن تصارحني بذلك أيضا ، فيمضي كل منا في طريقه ... واذا خنتني ، لن أغضب ... ولكني أريد دائما أن أكون على علم ... فهل تعدني يافرانسوا ؟

ــ ان لك لافكارا غريبة هذا الصباح

ــ بل اني ظللت أفكر في هذا مدة طويلة . منذ تزوجنا . فهل تعدني ؟

ــ طبعا

ــ أنظر في عيني ، حتى أشعر أنك جاد صادق

ــ أعدك . والآن نامي

ولعلها لم تستسلم للنوم في الحال . ولكنها حتى العاشرة من ذلك الصباح ظلت نائمة نوما اهدأ واهنأ من المعتاد

الفصل الثالث عشر :

لا تكذب

ولما وصل فرانسوا وهو جالس على مكتبه لاول مرة بعد خروجه من المستشفى الى ذلك الحد من استعادة ذكرياته ، نادى فجأة :

ــ يامدام فلامان !

ــ نعم ياسيد دونيج ؟

ــ اتصلى بمدير الادارة ، واطلبى منه أن يضع مكتبك فى الحجرة المجاورة

ــ فى حجرة مخزن أدوات التنظيف ؟

ــ يمكنك نقل أدوات التنظيف الى موضع آخر ، فى حجرة بالحديقة مثلا ، أو فى خزانة تحت السلم

ورأى شفتها السفلى تبرز الى الامام وتهم أن ترتجف ، وكان المفروض أن تخونه أعصابه أمام هذه الشفة الناضجة ، ولكنه غض بصره ونظر الى الازهار الموضوعة فوق مكتبه برهة ، وعندما رفع بصره مرة أخرى ، كانت نظرة عينيه أشد برودا من ذى قبل . وبجفاء ثبت عينيه فيها ، فسألته وهى تتشبث بخيط أخير :

ــ الآن ؟ حالا ؟

وبصوت ماض كحد السيف قال :

ــ الآن . حالا !

فاحتقن وجهها ونبض الألم فى نظراتهـــا ، وهى تسأله :

ـ هل فعلت شيئا اغضبك ؟

فازدادت نظرته جمودا وقسوة ، وأحست مـدام فلامان على الفور أنه فى حالة غضب مخيفة ، ولاسيما عندما سمعت صوته هادئا خافتا تقريبا ، وهو يقـول لها :

ـ لم أقل انك فعلت شيئا اغضبنى ، هيا قومى وأطلبى من مدير الادارة أن يعجل بنقل مكتبك من هنا

ونهض واقفا فاتجه الى النافذة فوضع جبهته على زجاجها البارد ، واخذ يتطلع الى رصيف النهر بعينى طفولته ، فهنا قضاها لاهيا لاعبا مع الرفاق

وعاد ذهنه الى الوراء ، وحار فى تحديد زمن نشوء تلك الفكرة الجنونية لدى بيبى ، فهناك حديثها اليه فى الفراش وذلك الوعد ، وهناك رائحة مدام فلامان النفاذة، ثم رغبتها فى أن تعمل سكرتيرة لزوجها بدلا من مـدام فلامان

انه يدرك الآن غيرتها ، لم تكن غيرة من النســـاء فحسب ، بل غيره من العمل أيضا ، ومن كل شىء فى حياته عداها ، هذه هى الحقيقة أخيرا ! فهى متحسره لانها لم تعرف والده ، تكاد تغار من الموت ، وتغار من أبيه، وتغار من ذكريات صباه كلها

وبعد تلك المحاولة بشهرين على الأقل ، قالت جان شقيقتها انها تنتظر مولودها الاول ، وكانت جان لا تخلو من أسف لأن الحمل سيفسد قوامها . ولكن فليكس كان سعيدا غاية السعادة ، فهو رجل بسيط ليس فى

حياته تعقيدا ، وحماته تحبه كل الحب ، أما فرانسوا فتنظر اليه نظرة من خاب أملها

وفى احدى امسيات الخريف كان فرانسوا وبيبى يتمشيان على الرصيف امام الدار ، وكان الجيران يتنزهون أيضا مثلهما ازواجا او جماعات بعد غروب الشمس ، فتلك هى عادة سكان ذلك الشارع كل ليلة قبل الايواء الى مخادعهم

وبعد فترة صمت طويلة وضعت بيبى يدها على ذراع زوجها وتنهدت :

ــ هل انت ساخط على ؟

فأدهشه السؤال ، وسالها :

ــ ولماذا أسخط عليك ؟

ــ بسبب ما طلبته منك

فازدادت دهشته ، لأن ذهنه كان خاليا تماما من اى طلب لها وسألها :

ــ وماذا طلبت منى ؟

وخيل اليه انها تريد أن تفتح موضوع مدام فلامان، فكان ذلك كافيا لاشعال غضبه :

ــ الا تذكر ؟ لقد طلبت منك ان تنتظر سنتين أو ثلاثا قبل ...

وتلعثمت وسكتت ، كأنها ارتدت طفلة صغيرة ، وهى التى تتكلم على الدوام بدقة ووضوح ، فأكمل لهـا عبارتها قائلا :

ــ قبل ان ننجب طفلا ؟ .. أليس كذلك ؟

فبلعت لعابها ، وقالت :

ــ طبعا يا عزيزى ... واريد ان اوضح لك موقفى ،

لم يكن طلبى هذا عن انانية أو رغبة فى الاستمتاع بتلك السنوات ، بل لأنى خائفة يافرانسوا

ــ ومما تخافين ؟

ــ يخيل الى أن العلاقة بيننا لن تكون فيما بعد ولادة الطفل كما كانت قبل ذلك ... ولكن اذا كنت متلهفا ...

فضغط على اصابعها فى حنان حقيقى ، اذ ادرك انها فريسة وهم وصراع بسبب هذه المسألة ، مع أنه لا يعلق اهمية كبرى عليها ، انه يريد أطفالا ، ولكن ليس بهذه السرعة ، وعادت تقول :

ــ اتمنحنى سنتين اخريين ياعزيزى ؟

يمنحها ؟ وهل هو رب العالمين ؟

طبعا طبعا ياعزيزتى ، سنتين أو أربع سنوات ... وما شئت ولكن ماذا بك ياعزيزتى ؟

ــ أظن ان الجو بدأت تسرى فيه البرودة

ــ انك لا تحملين معك أبدا شيئا تتقين به البرد

ــ آسفة ياعزيزى

وكانت تعلم أن الشاطىء تزداد فيه البرودة بعد الغروب ، وكانت تعلم أيضا انه يحب تلك الساعة من النزهة على الاقدام على رصيف النهر ، فلماذا لبست هذا الثوب الذى يحاكى فى رقته نسيج العنكبوت ، ولم تضع شيئا على كتفيها يبعث فيهما الدفء

وكانت لديها عادة أخرى تثير اعصابه ، انها كلما حضرت الى مكتبه لتطلب نقودا او لأى سبب آخر ، تصر على طرق الباب قبل أن تدخل ، وقد لاحظت فلامان ذلك المسلك ، فكانت ترمق فرانسوا بنظرة ذات معنى

ثم حدث فى ليلة من ليالى الشتاء انهما ذهبا لمشاهدة فرقة تمثيلية متجولة على مسرح المدينة ، وكانت مدام دونفيل وفليكس وجان هناك أيضا ، وبعد مشاهدة الرواية قضوا برهة من الوقت فى المقهى المركزى ، ثم ذهب فرانسوا وبيبى الى بيتهما سيرا على الاقدام ، وقرب القنطرة المقامة فوق النهر مرا برجل وامرأة وقد التصقا بالحائط فى عناق عنيف حتى خيل اليهما أن الاثنين جسد واحد . وعندئذ مالت بيبى بثقل جسمها كله على ذراع زوجها ، وبعد مسافة قصيرة ، على بعد مائة خطوة من بيتهما شعر بها تلتصق به التصاقا تاما ، وأحس بجسمها يختلج ، فاحتضنها وقبلها ، وكم كانت دهشته عندما وجدها تنكمش فجأة وتسرى البرودة فى اطرافها ، فسألها :

ـ ماذا جرى ؟

ـ لاشىء

ـ انك منذ لحظة واحدة ياعزيزتى كنت ...

فتركت ذراعه ومشت بسرعة ثم وقفت عند الباب تنتظره كى يفتح لها ، وما ان فتح الباب حتى اندفعت صاعدة الى حجرتها ، فلحق بها ، وسألها :

ـ الا تريدين أن تقولى لى ماذا جرى ؟

فرشقته بنظرة سريعة حادة ولم تجب

ـ الا تريدين أن تخبرينى ؟

وخلع سترته . وجلس بجوارها على الفراش

ـ اسمع يافرانسوا ... هل تذكر الوعد الذى قطعته على نفسك ذات صباح فى هذا الفراش أن تخبرنى بكل شىء مهما كانت النتائج ؟ .. فهل انت مستعد للبر بهذا الوعد ؟

وتملكه فجاة شعور عميق بعدم الارتياح ، وقال :
ـ انا لا افهم ماذا تريدين ان تقولى ؟

ـ لماذا تكذب يافرانسوا ؟ الم نتفق على انه لا محل للاكاذيب والغش فيما بيننا ؟

ولم يكن صوتها مرتفعا بل كانت هادئة متماسكة للغاية وهى تستطرد :

ـ انك حقا كذبت على ، فهل انت لا تدرى لماذا دفعتك بعيدا عنى وانت تقبلنى ؟ اذن تناول سترتك ، وانظر فيها ، شمها ! فانه لم يتسع لك الوقت كى تغيرها بعد عودتك من المكتب .

ولم يخطر بباله فى تلك اللحظة ان حياتهما كلها فى كفة الميزان ، وكان جالسا على حرف الفراش يقلب الامور فى ذهنه ، ويرقب بيبى ويعجب من رباطة جأشها ، ويشعر نحوها باعجاب شديد لهذه القوة .

ـ لقد اخبرتك من بداية الأمر يافرانسوا انى لست غيورا وكل ما هنالك انى أريد أن أعرف كل شىء ، وسأستمر بعدها زوجة مخلصة كما كنت ، وستعتبرنى صديقة تفضى اليها بجميع شئونك ، كما تفضى بها الى فليكس مثلا ، المهم أن أعرف عنك كل شىء فلا اكون مخدوعة .

واخذ يحملق فى المدفأة الجديدة اللامعة ولا يدرى ماذا سيكون جوابه عندما تلقى سؤالها الحاسم :

ـ هل مدام فلامان عشيقتك منذ زمن طويل ؟

فمر بيده فوق جبينه ، وخلال شعره ، ثم فوق انفه ، ونهض ثم وقف جامدا فى وسط الحجرة .

ـ أجب !

ـ بيننا علاقة منذ سنوات ، ولكن هذه العلاقة الجسدية ليست بالضبط علاقة عشيق بعشيقة .

وساد الصمت ، وكان ظهره اليها فلم يستطع ان يراها، فدار على عقبيه ليراها ، فوجدها لم تتحرك ولم تهتز ، وواجهت نظرته المتسائلة بابتسامة صغيرة ، وقالت :

ـ أرايت ؟

ـ ما الذى رأيت ؟

ـ لا شيء .. لقد كنت دائما أعتقد أنها من ذلك النوع من النساء الذى تميل اليه ..

فأجابها بغلظة :

ـ هذا يتوقف على الغرض الذى أريدها من اجله

ـ بالضبط ، انا أتكلم من هذه الناحية ، وقد شعرت بذلك التآلف الجسدى بينكما من اول الأمر ، ولذا كنت أطرق باب المكتب دائما قبل أن ادخل عليكما

ـ سأتخلص منها ان أحببت

ـ ولماذا ؟ الذنب قبل كل شيء ليس ذنبها ، وثانيا ستحتاج الى سكرتيرة أخرى بدلا منها

وكانت بيبى هادئة غاية الهدوء ، وأحس فرانسوا انها أطلقت سراحه حين صرحت له باستبقائها

وسألته ، وقد شرعت تستعد للنوم :

ـ وهل فليكس يعلم انك تعاشر مدام فلامان احيانا ؟

ـ لعله يرتاب فى الأمر ، ولكننا لا نتكلم ابدا فى هذه الموضوعات

ـ آه ! وزوجها ؟ الا يعلم ؟

فشعر فرانسوا بعدم الارتياح يعود اليه ، فهذا

الزوج موظف فى شركة التليفون ، وهو رجل طيب قوي له شارب طويل مثل دونج الكبير ، وكان يحضر احيانا لاصلاح التليفون ، فكان ينصرف الي الاصلاح فى حجرة المكتب التى بها زوجته وفرانسوا ، ومتى فرغ يقول :

ــ لقد تم اصلاحه ياسيد دونج ، واظنه سوف لا يعطب هذه المرة !

ثم يمد يده الكبيرة ليصافح فرانسوا ، ويتجنب أن يحيى زوجته باللفظ أو اليد ، ويكتفى بنظرة سريعة

ادار فرانسوا هذه الخواطر فى ذهنه بسرعة ، ثم قال لبيبى :

ــ كلا انه لا يعرف

ــ وأنت ؟ الا يزعجك وأنت تصافحه انك فى الليل، فى فراش ذلك الرجل نفسه ، تعاشر امرأته ؟

ــ ليس الأمر على هذا النحو ، وليست له هذه الاهمية التى تتصورينها ، فلو قلت لك الحقيقة ...

ــ ماذا ؟

ــ لا شيء ، مسألة مضحكة وسخيفة للغاية

ــ يمكنك أن ترويها لى ، مادمنا منذ الآن صديقين

ــ تصورى اننى لم انادها باسمها المجرد ولا مرة واحدة حتى الآن ، فأنا فى الواقع لا أعرفها ، ولا أقابلها اطلاقا خارج المكتب ، ولكن أحيانا أثناء املاء خطاب تجارى تنتابنى الرغبة فجاه ... وبمجرد انقضاء الأمر لا أترك لها مهلة لاسترداد أنفاسها ، واستانف املاء الخطاب من حيث توقفت ، فهى دائما مدام فلامان بالنسبة الي

وضحكت بيبى . لم يرَ وجهها وهى تضحك لأنها كانت تبحث عن شيء على مائدة الزينة ، ولكنه سمع ضحكتها فابتسم وخلع حذاءه وقال :

ـ ها أنت ترين ياعزيزتى ان المسألة تافهة للغاية

ـ وخصوصا وأنا لست من ذلك النوع من النساء الذى يطيب لك . أعترف بذلك يا فرانسوا !

ـ هذا يتوقف على ما أريده من المرأة . . . ومما لاشك فيه انك لم تكونى ولن تكونى امرأة فراش . . . ولكن ليس هذا هو المهم فى حياة البشر . . . هل غضبت ؟

ـ ولماذا أغضب ؟ لقد كنت صريحا

ـ ألست أنت نفسك أردت ذلك ؟

ـ طبعا

واخذ يتساءل فى تلك اللحظة هل اقترف خطأ ، ولنفرض ذلك ، أليس هذا هو ما أرادته ؟

ولما دخل الفراش سألها :

ـ فيم تفكرين ؟

ـ لا شيء ، أفكر فيما قلت لى

ـ ألا تشعرين بخيبة أمل ؟

ـ ولماذا ؟

ـ اذا كان ذلك يضايقك ، فلن أفعله مرة أخرى ، وثقى انه قد تمر أيام متوالية ، وأحيانا أسبوع ، من غير أن أمسها

ـ فهمت فهمت !!

ـ لا يمكن أن تفهمى ، فانت لست رجلا

ونهضت فدخلت الحمام ، ولبثت هناك مدة طويلة ،

فبدأ يساوره القلق ، وظنها مختلية بنفسها كي تبكى ، وفكر فى الذهاب اليها ، ثم تردد خوفا من انفجار الشجار بينهما اذا اكتشف دموعها

وأخيرا صنع اذ لم يذهب اليها ، فعندما عادت كانت نظراتها هادئة وأساريرها ساكنة

ــ طابت ليلتك يافرانسوا ....

وقبلته فوق جبينه كعادتها كل ليلة ، ثم اطفأت النور

وعندما وصل فرانسوا بذكرياته الى ذلك المدى وهو يطل من النافذة ، سمع حركة خلفه ، فنظر ليرى كبير الخدم يحمل مع مدام فلامان مكتبها وآلتها الكاتبة ، فنظر اليهما كأنه ينظر الى جمادات ، ثم طالعته نظرة تساؤل من فليكس ، فأشاح بوجهه ولم يجب .

الفصل الرابع عشر :

رســـالـــة

ولم يكن فى استطاعة فرانسوا أن يترك الصـــمت الثقيل قائما بينه وبين أخيه ، فقطه بســــؤال يدارى به الحرج :

ــ ماذا يافليكس عن العقد الذى شرعنا فى المفاوضة فيه مع شركة الفنادق الاوروبية الكبرى ؟

ــ لقد وقعته فى الاسبوع الماضى ... واضطررت أن ادفع عشرة آلاف فرنك للمدير

ــ خمسة آلاف كانت فيها الكفاية

وكأنما أراد بهذا الانتقاد أن يصب انتقامه على أحد، ولو كان هذا الأحد هو فليكس ... وبطريقة آلية مزق غلاف رسالة أولجا جاليبر ، فوجدها على هذه الصورة :

« عزيزى فرانسوا

« انى أكتب اليك الآن من فنـــدق رويال ، ومن الحجرة رقم ١٣٢ بالذات ... الا يذكرك هذا بشىء ؟. .. ولولا وجود ابنتى جاكلين معى هنا لكنت خففت اليك لالقاك ساعة خروجك من المستشفى »

وكانت لأولجا جاليبر ابنة فى الثالثة عشرة من عمرها، منطوية على نفسها حادة الذكاء ، تنظر الى فرانســـوا

نظرات الكراهية والحقد ، كأنها مدركة ماهناك ... ومن يدري ؟ لعلها مدركة فعلا ، فان أمها لا تكاد تحاول التستر امامها !

« وعندما سمعت بالكارثة عرفت أن خير ما أصنعه هو الابتعاد عن الميدان فترة من الوقت ، ولما كانت هذه الايام توافق موسم الاجازات ، فقد وافق جاستون على الفور على السفر ... انه لم يقل شيئا صريحا ، بطبيعة الحال ، بيد انى شعرت انه كان قلقا ، وانه ينوى زيارتك ، وقد تلقيت منه الآن خطابا يبلغنى فيه أن صحتك تتحسن بسرعة ، وأن كل شيء يتجه فى الاتجاه الصالح للجميع

« ومع ذلك فانى لا استطيع ان اتغلب على دهشتى لاقدام بيبى على عمل كهذا ... ولكن تذكر ياعزيزى ما قلته لك عندما أخبرتنى انها تعرف حقيقة علاقتنا ... فأنت يارجلى العزيز لا تعرف شيئا عن نفسية النساء ، ولا سيما الفتيات الصغيرات ... وبيبى فى الحقيقة لم تزل فتاة صغيرة

« وعلى كل حال ، فزعت جدا لما حدث ، خوفا عليك ، وخوفا على الجميع ، ففى مدينة صغيرة مثل مدينتنا لا تستطيع أن تتصور مدى انتشار وتضخم اية فضيحة من الفضائح

« وقد اخبرنى جاستون فى رسالته الأخيرة انك ستبارح المستشفى قريبا ، وربما وصل هذا الخطاب الى يدك وقد خرجت بالسلامة فعلا ، ولهذا جعلت العنوان على البيت .

« وأملى أن تجد لديك متسعا من الوقت للحضور

الى كان لنقضى بضعة أيام معا ... وفى هذه الحـــالة اتصل بى تليفونيا قبل قدومك كى أرسل جاكلين لقضاء ايام لدى بعض الاصدقاء

« لدى أشياء كثيرة جدا اريد أن أقولها لك ، فاني افتقدك ، ومن الافضل أن تتصل بى تليفونيا فى أوقات الطعام ، ولا تذكر اسمك لعاملة التليفون بالفنـــدق طبعا ، حتى لا يصيحوا به فى غرفة الطعام وهم ينادوننى

« لا أطيق صبرا عن الارتماء بين ذراعيك ، أعبدك »

جبيبتك أولجا

وما فرغ من قراءة الخطاب حتى صاح :

ـ يافليكس !

وكان فليكس قد عرف بغير شك الخط الذى كتبت به الرسالة التى لم تزل فى يد فرانسوا

ـ ابك حاجة لوجودي معك بعد ظهر اليوم يافليكس؟

وظهر على الفور العتاب فى نظرات فليكس ، ولعلها اول مرة يظهر فيها اعتراضا على مسلك لأخيه الأكبر ، فابتسم فرانسوا ابتسـامة كبيرة ، وقال :

ـ انى افكر فى قضاء هذه الليلة بمزرعة البلوط ، لأنى لم ازل أشعر بحاجتى الى الراحة ، فهل من رسالة احملها الى زوجتك ؟

ـ لا شيء ذو اهمية ... فأذهب الى هــــناك يوم السبت وأبقى حتى صباح الاثنين ... انتظر ! اظنهـا طلبت منى أن احضر زبدا حلوا

ـ سآخذه معى

وفجأة وضـــع فرانسوا يده على عينيه ، فهتف فليكس :

ـ ماذا بك يافرانسوا ؟
وقال :

ـ لا شيء ، لا تقلق

وترنح فرانسوا كأنه يوشك أن يقع مغشيا عليه :
ـ انك لم تزل ضعيفا

ـ نعم ... قليلا ، الى اللقاء غدا
ـ اتذهب قبل تناول الغداء ؟
ـ ساجد هناك ما آكله

ـ اتظن انك قادر على قيادة السيارة ؟
ـ لا تقلق ! ... أما بخصوص العشرة آلاف فرنك

ـ انى آسف ، فقد ظننت أن هذا هو القدر اللائق
ـ وانا أظن ذلك ايضا ، لعلك كنت على حق

وسمع كلاهما صوتا غير مألوف لم يدركا مصدره ، واخيرا اتجها نحو باب الحجرة الداخليـــة التى كانت تستخدم مخزنا لادوات النظافة ، وهناك كانت مـدام فلامان تبكى وحدها بنحيب مكتوم منتظم ، وقد عقدت ذراعيها فوق آلتها الكاتبة ودفنت وجهها بينهما

الفصل الخامس عشر :

ميمي

واندفع فرانسوا يقود سيارته من شـــارع الدباغين الى مزرعة البلوط بسرعة فائقة ، وكأنه يطير الى موعد غرامي ، ولما اقترب رأى أمام باب الحديقة سيارة صغيرة بيضاء ذات سقف متحرك ، فأبطأ على الفور من سرعته

من الذى يمكن أن يكون فى زيارة مزرعة البلوط الان ؟

ووجد البوابة مغلقة ، فتجهم ونزل ليفتحها ، ونظر فى اتجاه البستان ، فرأى تحت المظلة البرتقالية اللون شقيقة زوجته ، مستلقية فى مقعد هزاز كعادتها ، وقبالتها جلست امرأة أخرى على رأسها قبعة ، ولم يعرفها فرانسوا على الفور لبعد المسافة ، ولكنه فى طريقه الى الجراج مر بجوار المظلة، وعنـــدئذ نهض من الارض لينبحه كلب دانمركى أبيض ضخم به نقط سوداء ، فعرف فرانسوا على الفور ان الزائرة هى ميمى لامبير التى قفزت فجأة من مقعدها ، ولابد انهـا قالت لجان :

ـ لا اريد أن اراه !

فلما عاد فرانسوا من الجراج من غير أن يغلق أبوابه ، وسار فى اتجاه المظلة البرتقالية اللون ، رأى شقيقة زوجته

مستندة الى البوابة البيضاء ، وميمي لامبير جالسة خلف عجلة القيادة في السيارة المفتوحة ، وقد جثم بجوارها على المقعد الامامي كلبها الدانمركي الضخم

وبنظرة خاطفة لمح فرانسوا على المنضدة الصغيرة كأسين من البلور بهما بقايا شراب مثلج ، وشطائر من الليمون في القاع ، مما يدل على ان السكوكتيل هو الذى شربته السيدتان في تلك الجلسة الصباحية

وأقبلت جان نحوه ومدت اليه يدها بطريقة عادية جدا ، وقالت :

ـ مرحبا بك يا فرانسوا ، أأنت الآن على مايرام ؟

ـ مرحبا بك يا جان ، وكيف حال الاطفال ؟

ـ بخير

ـ واين هم الان ؟

ـ ارسلتهم مع مارت للنزهة فى الغابة ، وسيعودون بعد قليل

وعادت الى مقعدها الهزاز الطويل ، فمن عادتها وهي المرأة التي تفعل كل شيء بحيوية فائقة أن تستلقي عند الراحة في وضع أفقى ، شأن جميع الحيوانات التي تتمدد مستلقية بوحى من غريزتها

وقال فرانسوا :

ـ الانسة لامبير لم تشأ أن تقابلنى ، أليس كذلك ؟

ـ لقد هربت « المسكينة » منك ! يبدو انك كنت فظا جدا معها فيما سبق

وجلس فرانسوا ، جلس تقريبا فى نفس الموقع الذى كان جالسا فيه يوم وقوع المأساة ، وصب لنفسه كأسا من

الكوكتيل راح يرتشـــفها ، وهو يداعب بعينيـه البيت والبستان والمائدة والمظلة ، وفى نظـــراته مزيج من الاناة والعمق والتلذذ ، ولعل هزاله بسبب المرض جعله أشـد حساسية من ذى قبل

انه منذ برهة وجيزة كان يقود ســيارته بسرعة فائقة متلهفا على الوصــــول ، كى يملأ عينيه من الدار البيضـاء والسقف الاحمر والحديقة ، حتى ان اصابعه كانت تقبض على عجلة القيادة بعصبية فائقة

وبعد برهة صمت قال لجان :

ـ كنت أحب أن أتحدث الى هذه « الفرس الكبيرة » !

وكان اسم الفرس الكبيرة هو الاسم الذى يطلقه الناس على تلك العانس التى بلغت السادسة والثلاثين من عمرها ، وترتدى ثيابا اقرب الى ثياب الرجال ، بقامتهــا الفارعة ، وبنيانها المتين ، وصوتها الاجش • وبيتها المسمى الطاحونة العتيقة مقام فوق قنطرة تعترض النهر ، وتربى فى حديقته الكلاب الدانمركية الضخمة وتنتج منها سلالات ممتازة

وكل شىء يتصل بميمى لامبير فيه غرابة وشذوذ ملفت للنظر ، ولذا كانت تعتزل النـــاس ، والنــــاس كذلك لايألفونها ، وقال فرانسوا :

ـ هل لى ان أسأل ماذا كانت تريد بهذه الزيارة ؟

ـ طبعا •• انها مثل بقية النـــاس ، وانت لا يمكن أن تتصور مبلغ غباوة الخلق ، فاليك مثلا تلك المرأة لامبير التى تتوهم انها مسئولة بطريقة ما عما حـدث •• وقالت كلاما لم افهمه سخطها على نفسها لانها اكترثت بسلوكك ، وقد كان من الواجب فيما زعمت الا تلقى بالا لفظـــاظتك

وتستمر في الحضور لزيارة بيبى ••• فهل حقيقة كنت فظا جدا معها ؟

وكانت هذه هي الحقيقة فعلا فان ميمى لامبير كانت قد تعلقت ببيبى تعلقا علم به الجميع ، حتى لقد شـــاع على الالسنة أن ما بينهما يتعدى حدود الصداقة البريئة •

ولم يكن فرانسوا غيـورا ، ولكن ما يسخطه حقـا انه اذا ذهب الى البيت فى أية ساعة من ساعات النهار ودخـل حجرة زوجته ، فهو على يقين من وجود الفرس الكبيرة فى داخلها ، وكانت لا تكاد توجه اليه تحية ، بل تتعمـد أن تشعره بأن وجوده معهما غير مرغوب فيه ، وكان يبدو على المراتين انهما تنتظران خروجه ، فاذا ظهر على فرانســـوا التصميم على البقاء ، نهضت الانســة لامبير وقبلت بيبى فوق جبينها ، وقالت لها :

ــ ســــأنصرف الآن ••• الى الغد اذن ياحبيبتى ••• وسأحضر ما وعدتك به

فاذا سأل فرانسوا فيما بعد :

ــ ما الذى وعدت باحضاره ؟

كانت بيبى تقول دائما :

ــ لا شيء ذو أهمية

واستمر الحال على ذلك المنوال أربع سـنوات تقريبا ، فكانت رائحة السجائر القوية لا تكاد تفارق حجرة بيبى

وذات يوم ، منذ ستة أشـــهر تقريبـا ، بلغ الغيظ بفرانسوا غاية مبلغه ، وأظهر ذلك بوضوح ، فانفجر فجأة مرجل غضبه على طريقته الخاصة به ، اذ التفت الى الانسة لامبير ، وقال لها وهو يحملق فيها بنظرة باردة :

ـ هل يثقل عليك أن أطلب منك فرصة للانفراد بزوجتي بين حين وآخر ؟

فنهضت وانصرفت من غير أن تنبس ببنت شفة ، ولم يرها بعد ذلك في بيته أبدا

وكانما لحظت جان شروده بافكاره الى بعيد جدا ، فقالت له :

ـ أؤتم لك حديث ميمى لامبير أم أنت شارد الذهن ؟

ـ بل أرجوك أن تتميه

ـ كنت أقول لك ـ ولكنك لم تكن مصغيا ـ ان ميمى لامبير ليست حقيقة من طراز سيىء ··· ولكنى أظنها خيالية عاطفية للغاية ، شأن جميع العوانس المتقدمات فى السن ، وقد جاءت اليوم ـ على حد قولها ـ لتخلص ذمتها وتريح ضميرها ، فصداقتها لبيبى كانت أكثر من عون أدبى لها ، لانها نجحت ـ على حد قولها ـ فى اضفاء معنى على حياة بيبى ·· وكان ينبغى عليها ألا تنهزم امام اهانة من رجل وتتخلى عن بيبى ··· لماذا تبتسم ؟

ـ أنا لا ابتسم ، استمرى

ـ انها تريد أن ترى بيبى وترفه عنها ·· وقد حدثتنى عن رغبتها فى طلب تصريح بالزيارة ، وقد نصحتها أن تترك بيبى وحدها فترة من الزمن ، ومن الغريب ان الناس جميعا يتحدثون بغباوة فائقة عن بيبى ، فبالامس مثلا حضرت مدام لورتى ، الا تعرف لوريت لورتى زوجة صانع البيرة ؟

وكان يعرف جميع الناس فى المدينة بصورة غامضة ، فلم يكن الناس فى نظره سوى صور مبهمة ، والصورة التى لديه عن لوريت لورتى انها امرأة بدينة ذات ذقن متراجعة

الى الخلف

واستطردت جان قائلة :

ـ كنا قد تقابلنا في مؤسسة نقطة اللبن ، فزعمت انها تريد أن تجتمع بى لتشاورنى فى شئون تلك المؤسسة ، واذا بها تحضر معها ـ كأنما ذلك بطريق الصدفة ـ الآنسة فيلار ، بنت أخت الاستاذ بونيفاس ، وقد استقبلتهما ها هنا في الحديقة ، وكان من الضرورى طبعا أن أقدم اليهما الشاى ، وأعتقد ان بونيفاس أرسل بنت أخته عمدا ليعرف وجهة نظرنا فى القضية ، فأحسست ان هذه الزيارة تخفى نوعا من المؤامرة ... وبصورة شبه طبيعية تطرق الحديث الى « المسكينة بيبى » ، فاذا بالآنسة فيلار تقول : « البعض يزعمون انها عندما كانت فى تركيا ادمنت تعاطى المخدرات، ولما عادت الى فرنسا كانت تتعاطاها حين تختلى بصديقة لها » .

ولمعت عينا جان ، وهى تعلق على ذلك بقولها :

ـ وهذه الصديقة المقصودة هى ميمى لامبير طبعا ، فتصور قولهم ان بيبى أدمنت المخدرات فى سن السادسة عشرة ، لانها كانت في السادسة عشرة عندما عدنا من تركيا الى فرنسا .. ثم تتم المهزلة فصولا بقولهم انك لابد قد لاحظت ذلك الادمان فمنعت صديقتها من زيارتها وحلت بينها وبين تعاطى المخدرات .

وكان فرانسوا قد كف عن الاصغاء ، وشرد بخواطره الى بعيد ، وران على نفسه الحزن ، وساوره الحنين الى المستشفى وما فيه من هدوء وطمأنينة ، وتذكر رقة الراهبة الاخت آدونى وقد عقدت يديها فوق معدتها وهى واقفة تحدثه ، أو تؤنسه وسوسة مسبحتها وهى تمشى فى

الدهليز أو في الحديقة ، انه لم يكد يغادر ذلك المستشفى ولكن ها هو يحن اليه .
والتفت بحركة الية نحو البوابة ، وقال :
ــ لم يعد الاطفال بعد
ــ ان الوقت غير متأخر
وكان الظهــــر قد حان ، ولو كانت بيبى موجودة لكان الاطفال جالسين الان الى المائدة فعلا ، اما مع جان ، فلابد من حصول التراخي في كل شيء بالبيت ، ونهض فرانسوا فسألته :
ــ الى اين يا فرانسوا ؟
ــ سأصعد الى الطابق العلوى قليلا
واوشك ان يقول :
ــ سأذهب الى حجرة بيبى
فتلك كانت هي الحقيقة ، لانه بحـــاجته الى تجـديد الصلة بها بعيدا عن هذيان الاشاعات ولغط الاحاديث
وبدأت هذه الصلة بدخوله قاعة المائدة ، فذلك الضـــوء الخافت ، ورائحة الفاكهة الناضجة ، ولمعان الاثاث ، أليس ذلك كله ترتيب بيبى ، ونظـــــام بيبى ، وهدوء بيبى ، يستعيدها من جديد ؟
ان بيبى هى التى نسقت وزينت البيت ، فألوان أوراق الجدران اللطيفة ، والستائر الحريرية التى تسلسل الضوء وتكسر من حدته ، وتلك الزخارف فى كل مكان ، من صنع يدها أو ابتداعها ، فالقاعة كلها ذات جـو أثيرى يحمــــل طابع بيبى ، وترجع هذه الاعمال الى السنوات الثلاث التى قضتها بعد النقلة من البيت القديم متفــرغة للتعـــــديل والتنسيق ، وكان هو فى تلك السنوات منصرفا بكليته الى

تنمية أعماله ، ويكثر من الاسفار وحده أو مع فليكس ، وكان في حماسته مملوء النفس بالاعتقاد انه مجدود موفق في كل أمر يهم به ، وكان موفقا فعلا في جميع مشروعاته

الم يكن جديرا ببيبي أن تكون سعيدة بذلك التوفيق ؟ انه كلما عاد الى البيت كان يجدها مع أمها أو أختها ، فيقبلها ، أليست هي التي أرادت أن تكون صديقة زوجها ؟ أجل لم يكن لديه متسع من الوقت للعناية بها ، وكلما وجدها ساهمة أرجع ذلك الى ضعف صحتها

وعندما اشتروا مزرعة البلوط ، وبدأ العمل في اعدادها للاقامة قالت :

ـ أحب أن أطلب اليك شيئا يا فرانسوا .. هل يضيرك لو أنجبنا طفلا على الفور ؟

وقطب جبينه لاول وهلة ، لانه لم يكن يتوقع طلبا كهذا ، أو على الاقل لم يكن يتوقعه بهذه الصورة المباشرة الرزينة ، كأنه مشروع صفقة تجارية

ـ وهل تريدين طفلا ؟

ـ أتمنى ذلك

ـ اذن في هذه الحالة ..

ولما اعاد النظر في الموضوع سره أن تجد بيبي في ذلك الطفل ما يشغل وقتها ، فلا تشعر بالوحدة الكاملة عندما يغيب عنها بضعة أيام

وتراءت بيبي لعينيه كما كانت في تلك المدة ، حبلى ، أشد شحوبا من المعتاد ، تشرف على أعمال البيت ، فظن من واجبه أن يأتيها بالازهار والحلوى ، ولما تم تشييد الحجرات الثلاث واعدادها في فصل الخريف ، أصرت على تمضية فصل الشتاء في مزرعة البلوط

وأفزعه من خواطره صوت يقول :

ـ مائدة الغداء جاهزة !

وكانت مارت قد فتحت الباب ووجدته جالسا على فراش زوجته

ـ هل عاد جاك ؟

ـ الجميع على المائدة

فنزل ، ولم ينهض ابنه لاستقباله ، بل نظر اليه فى شيء من الاستطلاع ، ثم رفع خده اليه ، ورد على قبلته بقبلة شاردة داعبت اذن أبيه ، وكان طفلا جان هناك أيضا وقد ربطا حول عنقيهما منشفتين ، فقالت لهما أمهما :

ـ ماذا تقولان للعم فرانسوا ؟

ـ أهلا بك ياعم فرانسوا

فأشاح بوجهه كى يخفى مشاعره ، ثم جلس فى مواجهة ابنه ، وكان قد خامره احساس غريب حين انحنى فوق وجه جاك ليقبله فقد خيل اليه برهة انه ينحنى فوق بيبى ، فثمة ذلك البياض الشاحب ، والبشرة الشفافة ، والانفصالية عن كل شيء ، كأنما هناك حياة خاصة بها خارج الحياة

ولماذا ظل سنوات كلما حدثها عن الصبى كان يقول لها دوما ومن غير تفكير :

ـ ابنك ٠٠ ؟

ومع ذلك لا يمكنه أن ينكره ، والفضل فى ذلك لانف آل دونيج ، ذلك الانف الطويل المدبب الذى يبدو كالنغمة النشاز بين ملامح ذلك الطفل

ولكن لا يسع احدا حين ينظر الى جاك أن يعتقد انه أمام

ابن رجل ، فالصبى كان ابن امرأة من جميع الوجوه ، فيه رقة الانوثة وضعفها وانطواؤها ورشاقتها

وكان جاك كثيرا ما يتـــأمل والده في جد كما يتأمل الانسان غريبا عنه ، واحيانا اخرى كان يخرج الى الحديقة أو الجراج ليبحث عنه ولكنه لا يفعل ذلك الا حينما يريد منه تهيئة شص الصيد أو اصلاح لعبة عطبت ، فلم يـكن بينهما ابدا ذلك الافضاء الحميم ، ولا ذلك الحنين الجسدي الذي يوجد بين الطفل وأمه

فهل هذا هو السبب فى أن فرانســـوا كان قليـــل الاهتمام به ؟

ان فرانسوا بطبعه يكره الضــــعفاء ، وان اردنا الدقة التامة قلنا انه يتجاهل وجودهم ، ويلغيهم من غير تفكير ، ولذا كان كثيرا ما يلاعب أولاد أخيه ، ولا يفكر فى ملاعبة ابنه ..

وغمغمت جان من غير حماسة :

ــ كل ياجاك ، فأنت تعلم ان ماما لن تكون مسرورة اذا رأتك تأكل بهذه الصورة المتراخية

فرمقها الصبى بنظرة سوداء ، ثم نظر الى أبيه برهة ، وعاد الى الطعام ، ولكن في شيء من المضض ، وصاحت جان:

ــ الى أين أنت ذاهب يا فرانسوا ؟

وكان فرانسوا قد نهض عن المائدة قبل ختام الطعـــام بفترة طويلة وأخذ يصعد السلالم ، فقد استولت عليه لهفة أليمة جعلت صدره يخفق ويديه ترتجفـــان ، فلابد من العـــزلة ، ولابد له من البحث عن بيبى فى كل شيء مما حوله ، لابد ، لابد

كيف أمكن أن يستعصي عليه فهمها ؟

وأخذ يتمشى في الحجرة شأن رجل ماتت عنه زوجته ، حتى لقد أوشك أن يفتح دولاب بيبى ليلمس بيديه نعومة أثوابها ، ويقبل بشفتيه هدب وشاح من أوشـحتها التى كانت مولعة بها

انه لم يستطع ان يفهم شيئا ! وقد بدأ عجزه عن فهمها من أول يوم ! بدأ ذلك في رويان ! بدأ ذلك في كان ! بل بدأ ذلك قبل رويان وكان بزمن طويل ، بدأ بطفولته هو ، حينما كان يرى أمه تطوف أرجـاء البيت في همس كأنها النملة الشغالة ، والتى كانت تقول له دائما بتهيب ظاهر :

ــ احذر ! فها هو والدك قادم !

فهل كان هناك سبب يدعو الى معاملتها بغير ما عوملت به امرأة الدباغ دونج ، لان اسمها يوحي بالاصل النبيل ، ولانها نشأت في أرقى أحياء اسطنبول ؟

ان الحياة ليست عواطف خيالية كما تتوهمها الفتيـات الصغيرات في أحلامهن ، بل هي وقائع صلدة ، لابد لبيبى ان تروض نفسها على الواقع مثل أى انسان ، وأن تكف عن مراقبة الدنيا بعينى غزال وحشى نافر !

وكان عند زواجه في ابان عنفوانه وتقدمه نحو النجاح ، فهل كان لديه متسع من الوقت ليعنى نفسـه بما يخطر ببال طفلة مثلها ؟

وهل كان من المفروض ، لانهـا مجردة من كل رغبة جسدية ، أن يقضي البقية الباقية من عمره محـروما من رغبات الحب ولذات الحس ؟

فهل فهمت الوضع ؟ كان ذلك خير ما صنعت ! فانها

على كل حال لم تكن خيالية كما يبدو عليها ، اذ اختـارت أن تكون صديقته فحسب !

لقد اعطاها كل شيء رغبت فيه ، هل حجرة نوم والديه في شارع الدباغين ذات طراز عتيق لا يروقها ؟ وهو كذلك يا فتاتي ! غيريها ! فمادمت لاتتدخلين في أعمالي

وصورة الاب دونج وصـــورة الام دونج على جـانبي الفراش ؟

لا بأس ! يمكن ان نجد لهما مـكانا على جدران حجرة المكتب

انها بهذه الطريقة لم تحاول ان تعقد الحياة ، الا عندما تعرضت لموضوع مدام فلامان ! ٠٠ وما شأنها هي ؟ وماذا يضيرها من اجتماعه بمدام فلامان بصورة عارضة كلمـا راق له ذلك ، ما دامت هي شخصيا مجردة من اية فـكرة عن اللذات الحسية ، ورغبات البدن ؟

كان يجب أن تتعود ذلك كمـا تعودته جميع الزوجات الاخريات ! وذلك اجدى عليها في النهاية !

أما عن محاولة الاتصال بالعمـل بحجة المعاونة فيه ، فحاشا لله ثم حاشا ! فالمرأة التي تقضي كل صـباح ثلاث ساعات امام مائدة الزينة ، وتصنع من زلال البيض معاجين تلطخ بها خديها كل ليلة للاحتفاظ بنضرة بشرتها وبياض لونها ، وتلف يديها بالمناشف المبـلولة لتحفظ عليهمـا بياضهما ، لا يمكن أن تصلح للعمل بأي حال من الاحوال !

وعندما كان يعود من المكتب كان يسألها :

ـ هل كل شيء على مايرام يا عزيزتي ؟

ـ على ما يرام

ـ هل قضيت يوما لطيفا ؟
ـ ليس سيئا !
فلماذا لم تكن تقول اطلاقا انها قضت يوما لطيفا ، ولو لتدخل السرور على قلبه ؟
ثم لماذا كل هذه التعقيدات من قبيل :
ـ هل يضيرك ألا ننجب طفلا مدة سنتين أو ثلاث ؟
ـ الست غاضبا ياعزيزى بسبب ما قلته لك ذلك اليوم؟
ثم فجأة ، تقول له كأنها تتكلم فى صفقة تجارية :
ـ أتمنى أن أنجب طفلا على الفور

أما اختها جان فانجبت طفليها من غير تفكير ، كأنهـــا تأكل الفطائر وهى تثرثر أو وهى شاردة ، ثم ان فليكس لم يجرب تلك النظرات المريبة التى كانت تلقاه بها بيبى كلما عاد الى البيت ، حتى انه كان يظن أحيانا انه عدوها اللدود ، أو على الاقل متطفل ثقيل على حياتها .
واذا اتفق عند دخوله أن كانت تكتب شـــيئا ، كانت ترتب الاوراق بسرعة حتى لا يتمكن من قراءة ماكتبته

ـ ماذا كنت تكتبين ياعزيزتى ؟
ـ لا شيء
ـ هل أنت متضجرة ؟
ـ كلا ... وأنت هل قمت بعمل كثير ؟
ـ نعم ... كثير جدا
ـ هل قابلت اناسا كثيرين ؟
ـ كل من يتحتم على مقابلتهم بحكم العمل
ثم تبتسم ابتسامة عريضة ، بشـــفتيها الرفيعتين ، فكانت تساوره الرغبة أحيانا فى أن يصفعها ، أو أن يغادر البيت قائلا :

ـ سأعود عندما تتعلمين كيف تستقبلينني

وهناك أيضا ما هو أسوأ من ذلك ، هنـــاك اليوم الذى جعلته يحمر أحمرارا شديدا ، وقد احمر وجهه الآن وهو يذكر ذلك الموقف ، وكان ذلك عندما طلبت منه أن تنجب طفلا ، وإثار غضبه طريقة طلبها ، فشرع بنوع من المكايدة يجيب طلبها ، ولم تعارض ، ولكن سألته بلهجة عادية جدا :

ـ اواثق أنت من خلوك من العوائق الصحية ؟

وهذا طبعا لان له عشيقات ، ولانه يخالط النساء حيثما اتفق ، ويعاشر مدام فلامان بين حين وآخر ، ولا يتحرج من أية معاشرة عارضة تسنح له أثناء أسفاره الكثيرة .

ـ ان حالتى الصحية على خير ما يرام ، فلا تقلقى

فكان جوابها ، بذلك الصـــوت الرتيب الخفيض الذى يثير نفسه :

ـ اذن ، لا بأس !

الفصل السادس عشر :

هل أنا زوج طيب !

ومن هذا الاتصال العملي الفاتر ولد ابنهما الوحيد !
وفي يوم ولادته ساورت فرانسوا الرغبة في أن يقول لها :

ـ والآن ها هو ابنك الذي طلبته بنفسك ! وعسى أن تصبحي بعد ذلك امرأة سوية !

وفجأة ، وهو في حجرة النوم الخضراء اللازوردية اللون ضرب الحائط بقبضة يده ضربة كادت تحطم يده ، وهو يصيح بغيظ وغضب :

ـ ابله ! ابله

وكان يرمي بهذه الصفة نفسه ، فمن البلاهة أن يظل الاثنان يعيشان سنوات طويلة جنبا الى جنب ، سنوات تصل الى العشر هي خير سنوات العمر ، معاشرة خاطئة ، وكأنما كل منهما مسلط على نفسه وعلى صاحبه ، يتقارضان الأذى صباح مساء ! وانها لبلاهة أن يعيش رجل وامرأة خير سنوات العمر يضمهما فراش واحد ، ويتجنبان من اتصال جسديهما غلاما ، ويعجزان عن التفاهم !

كان عليه أن يعود الى مزرعة البلوط كي يبني الصورة الحقيقية لبيبي ، وحينمـــا وجد تلك الصـــورة في كل ما حوله ، استولى عليه شعور طاغ بالاســتنكار والسخط على نفسه

نعم لماذا ؟ ما الذي حال بينه وبين الوصــــول الى فهم حقيقتها ؟ هل هو وحش كما تصورته زوجته ولا ريب ؟ هل هو أشد أنانية وأشد عماية من كل رجل سواه ؟

أليس رجلا كسائر الرجال ؟

لقد مرت به أيام ، يذكرها الآن تماما ، أبغضها فيها بغضا صريحا وكم من ليلة كان يمكنه أن يعود الى هذه الدار ، فتردد في اللحظة الاخيرة ، لا ليجتمع بامرأة أخرى، بل ليتجنب نظرتها القاسية التي تحاكمه وتدينه ، وكان يقضي تلك الليالي وحده في بيت شارع الدباغين ، يطــالع الى أن يغلبه النعاس .

وعندما تراه في اليوم التالي كانت تسأله :

ــ هل كان لديك عمل كثير جدا بالامس ؟.

ــ كثير جدا .

وكانت لا تصـــــدقه ، بل كانت موقنة انه قضى الليلة في غرام جديد ، وهو واثق الآن انها كانت تتشـممه عندما يعود الى البيت ، تتشـمم ثيابه ، وتتشـمم أنفاســـه ، وتحاول أن تعثر على رائحة غريبة فيها .

انه قادم من الخارج ، يحمل معه هواء فيه الحيوية الى ذلك البيت الهادىء المطمئن ، كأنه دير من الأديرة ، حيث تعيش بيبي عاكفة على طفل عليل ، وكان يقول لنفسه دوما :

ــ انها تضيق بحيويتي وتعرض عنها ! بل انها تحسـدني على حيويتي ويسخطها أن تلوم هذا الريف بسـبب ضعف

صحة طفلها ولكن أليس هذا هو مصير ملايين من النساء في العالم ؟ وأمي ؟ هل كان لها غير ذلك المصير ؟ أم لأنها سليلة دونفيل ؟.

وما من مرة وجهت آليه كلمة تأنيب أو عتاب ، فهي اعظم كبرياء من أن تعاتبه ، بل انها على العكس ، كلما ازدادت كراهيتها له ، وكلما ازداد ارتيابها فيه وحقدها عليه ، زادت عنايتها بتهذيب سلوكها نحوه ، ولعلها كانت تريد أن يقال عنها في المدينة :

ـ ان بيبي دونج هي حقا مثال المرأة ، والزوجة ، والأم .

فاذا عاد الى البيت بالسيارة كانت تذهب الى الجراج للقائه ، ممسكة جاك من يده ، وتقول له :

ـ قل مرحبا بك يا أبي

فيقول الطفل :

ـ مرحبا بك يا أبي .

فتبتسم ابتسامة سرور فاتر ، وتقول :

ـ هل كان لديك عمل كثير ؟.

ـ كثير جدا .

وبذا يتبين في كل ما تقوله معنى مزدوجا ، فسؤالها : « هل كان لديك عمل كثير » معناه الحقيقي :

ـ لقد كنت تستمتع بوقتك ، أما أنا ففي وحدتي هنا .

فهل كان ذنبه أن تكوينها ضعيف وأن طفلهما نشأ على غرارها طويلا شاحبا مثل النباتات المتسلقة ؟ هل يتحتم عليه ان يتنازل عن الحياة ، وينزل عن مشروعاته الجديدة وممارسة وجوه النشاط التي خلق لها ؟.

اذن كانت غيرى ، غيرى من كل شيء ، من النساء ،

ومن مكتبه ، ومن أعماله ، ومن المقاهى ألتى يتردد عليها ، ومن السيارة التي يقودها ، ومن حريته في الذهاب حيث يشاء ، ومن الهواء الذي يتنفسه ، ومن قوته وصحته ..

وفي ذات يوم ، وقد استبد به الضيق وهو يقود سيارته عائدا الي المدينة خطر له انها انما تزوجته لانها كانت غيرى من شقيقتها ومن انسجامها مع شقيقه فليكس في دويان وسيرهما معا ، فلماذا لا يكون لها أيضا زوج تستنير معه على ذلك النحو ؟ هل ستبقى وحدها مع امها ؟ وكم عاما ستمضي في أذيال امها من مصيف الى مشتى ، ومن مرقص الى مقصف ؟.

لقد تزوجته لتظفر بحياة على هواها ، فلماذا لا ينظم حياته على هواه ؟ انها تقضي وقتها لاهية بمستحضرات زينتها كما تلهو الطفلة بالدمية ، وتلهو بطفلها وادارة بيتها وتغير فيه وتبدل باستمرار .

انها في غاية الكياسة في سلوكها ، ولكنها لم تتحدث اليه اطلاقا عن نفسها ، فلماذا يحدثها هو عن نفسه ؟ انه يحضر الى مزرعة البلوط فيغير ثيابه ويتمشى في الحديقة ، ويمهد ملعب التنس وينتظر حضور فليكس ليلعبا معا ، فهل كانت غيرى من فليكس أيضا ؟ أليس هو وفليكس آل دونج في مقابل آل دونفيل ؟.

هناك شخص واحد فهمه على حقيقته وهو اوليجا جاليبر ، ولم تكن ذكية ولكنها كانت صادقة الالهام حين قالت له :

ـ من سوء حظك ان لك زوجة ليست امرأة ، بل هي فتاة صغيرة ، وادهى من ذلك انها ستظل فتاة صغيرة على الدوام ، فهى عاجزة عن مسايرتك في عالم الواقع ، وكل حلمها أن تركب زورقا طول حياتها في ضوء القمر

وتهمس بالعبارات العاطفية للرجل الذى يجدف معها !.

اما اولجا فكانت امرأة واقعيــة ، تفهم ما الحب ، وتفهم قبل كل شيء ما الرجال ، ولذلك كانت تقدر نجاحه وتدرك قوته وتؤمن بازدهاره فى أعماله ، وذات يوم قالت له ، وقد جلست أمامه فى الفراش عارية تدخن سيجارة وتداعب شعره :

ـ لو التقينا فى الوقت المناسب لتزوجتك ، فان زوجى جاستون لا يستطيع أن يعمل شيئا ما لم يوجد شــخص يدفعه دفعا ، أما أنت ففيك القوة والاقدام ، وكنا معا خليقين أن نفعل شيئا عظيما .

فهل عرفت تيبى رائحة اولجا جاليبر ؟ هذا محتمل جدا ، ومن المحتمل جدا أيضا انها كانت تتشمم جلده بعد أن ينام ، ولذلك قالت له ذات يوم :

ـ اريد أن أقدم لك نصيحة يا فرانسوا ... لا تظننى غيرى ، ولكن ينبغى أن تكون على حذر مع مدام جاليبر ... قد أكون مخطئة ، ولكنى أحس أنها تريد أن تورطك بسبب هذه العلاقة .

فهل كانت ذات أنف دقيق فى ميدان الاعمال ايضا ؟ ان أولجا فى اليوم السابق لذلك الكلام كانت قد فاتحته فى مشروع المستشفى الخاص الذى يبنيه زوجها ، وتريد أن يكون من أكبر المساهمين فى تمويله !.

وقد قال يومئذ لبيبى ، وهو مبهوت :

ـ لا تنزعجى ... فأنا ادرى ماذا اصنع .

وعلى سبيل التحدى قام بتمويل الجانب الاكبر من ذلك المستشفى .

وماذا يمكن أن يعيب عليه الناس ؟ لقد كان يعطى

زوجته كل ما تطلبه واعماله كانت فى غاية الازدهار ، وكان يذهب الى مزرعة البلوط كلما استطاع ، ورغباته الشخصية محدودة ، فلا مقامرة ، ولا ادمان ، ولم تثر اية فضيحة حول علاقاته الغرامية ، وعندما يعود الى مزرعة البلوط كان يصلح ما يصيب الادوات من عطب ، ويستيقظ فى السادسة صباحا ، وتظل ستائر حجرة نوم بيبى مسدلة الى الحادية عشرة ، ولا تهبط الى الحديقة الا وهى فى اتم زينتها ورشاقتها ، وعلى شفتيها ابتسامة مرسومة ، فتجده لم يزل فى بيجامته يعمل فى الحديقة ، فتقول له :

ــ ألم ترتد ثيابك بعد يا فرانسوا ؟ سيكون الافطار جاهزا بعد لحظة .

وسمع صوتا يقول له من خلفه :

ــ ماذا تصنع ؟.

فتبين انه واقف فى وسط الحجرة ، وكان يذرعها طول الوقت بهمة لا تفتر ، وعادت جان تسأله فى شىء من الفزع :

ــ ماذا بك يا فرانسوا ؟.

ونظر فى المرآة المثلثة فطالعته سحنته مكفهرة ، ورأى شعره مشعثا من عبثه به ورباط عنقه مفكوكا ، واستطردت جان تقول :

ــ لا أدرى هل كان من الحكمة حضورك الى هنا للراحة ، كان من الافضل ان تستريح فى البيت مع فليكس ، فانت هنا تكثر من التفكير .

فنظر اليها وابتسم ابتسامة شاحبة ، وقال :

ــ جان ! أريد أن تقولى لى شيئا ، أجيبينى بصراحة ... هل ابدو فى نظرك زوجا سويا ، زوجا طيبا ؟.

ـ ولكن ...
ـ اجيبي !..
ـ طبعا يا فرانسوا
ـ هل انت مقتنعة بأنني زوج طيب حقا ؟.
ـ فيما عدا بعض مغامرات تتناقلها الاشاعات ... ولكن ذلك ليس ذا اهمية ! فانا متأكدة من ان فليكس ايضا له مغامراته ... وما دمت لا اعلم شيئا ، وما دامت المغامرات لا تحدث تحت سقفي ..

ـ انت مخطئة يا جان ! فانا وحش ضار ... ابله ... سفيه ... اتسمعينني ؟.. انا المسئول عن كل ما حدث ؟.

ـ اهدأ يا فرانسوا من فضلك ! فالاطفال تحتنا مباشرة يتناولون الشاى ، وجاك بالامس فقط سألنى مرة أخرى ما هى الجريمة التى اقترفتها أمه ... فلم ادر بماذا اجيبه .

ـ اتريدين أن تعرفى بماذا تجيبينه ؟.. قولى له ان جريمة أمه الوحيدة انها أحبت أباه أكثر مما ينبغى ؟.
ـ فرانسوا ؟.

ـ لا تخافى ... لست مجنونا ... انا ادرى ماذا اقول ... اذهبى الآن من فضلك ... امهلينى بضع دقائق اخرى ... وبعد قليل ساهبط اليكم ، كامل الهدوء ... ولا تقولى شيئا لجاك ... فيوما ما سأقول له كل شيء بنفسى ... آه لو علمت يا عزيزتى جان الى أى حد من البلاهة يصل البشر فى بعض الاحيان !.

ثم عاد يقول وهو يلوح بقبضته فى الهواء ويهم ان يدق بها الحائط بعنف مرة أخرى :
ـ بلهاء ! بلهاء ! بلهاء !

أرخى الليل سدوله وبدأ القمر يفضض ذؤابات الاشجار ، والهواء العليل يهب من النافذة المفتوحة ، وسكون الليل لا يعكره ، بعد أن أوى الاطفال الى فراشهم ، سوى اقبال الخادمات على غسل الاواني التي استخدمت في العشاء ، ولم يكن ظاهرا للعيان من جان وهي مستلقية في المقعد الوثير الا شبح باهت غامض ، وطرف سيجارتها المتقد ، ورائحة دخانها تختلط بنسمات الليل .

وقال لها فرانسوا في الحاح :

ـ حدثيني عن أبويك وكيف كانت حياتهما معكما في اسطنبول .

ـ هل لابد من ذلك حقا ؟ فليس في حياتهما شيء يثير اهتمامك ، وانما هما زوجان حاولا جهدهما أن يظفرا بالسعادة ، مثلكما ومثلنا ، ومثل جميع البشر ، والآن مات والدنا كما تعلم ، ونزحنا مع أمنا الى فرنسا ، وقد انتاب الروماتيزم أمنا ، فهي تمشي في شوارع كان ، من الفندق الى الكازينو ، متوكئة على عصا ، وذلك يضفي عليها مهابة ، فكأنها سيدة عظيمة تعيش في المنفى ... والحق أن والدتي حينما تكف عن لعب البكاراه ، تبدو من وجوه كثيرة وكأنها ملكة .

وكان فرانسوا جالسا في مكانه لا يتحرك كأنه التمثال ، لا يدخن ، ولا يخرج من شفتيه أدني صوت ، وقد ارتدى ثيابا قاتمة فلا يكاد يميز الانسان وجوده لولا وجهه الشاحب .

ـ الا تظن يا فرانسوا من المستحسن اغلاق النافذة وأنت ضعيف ؟.

ـ لا اشعر ببرد .

والواقع انه كان متدثرا بغطاء مما يستخدمه المسافرون

على ظهر عابرات المحيط ، وقد أصرت جان على تذكره به لانه أصيب بنوبة اغماء وهو فى الطابق العلوى منذ قليل، ولكن الاغماء لم يطل ، فما كادت ترفع جان السماع لتدعو الدكتور بينو حتى كان قد ثاب الى رشده ، فقال لها :
ــ لا اريد احضوره .

فان الدكتور ليفير كان قد أعطاه فى المستشفى حبوبا يستخدمها فى مثل هذه الحالة فليس عليه الا أن يتناول حبة منها الآن ، وهو الذى أصر أن يجلس فى هذه الحجرة المظلمة ، ونافذتها مفتوحة لهواء الليل الرطب ، وصرير الجنادب الرتيب ، وضوء القمر الذى يفضض غصون الاشجار من غير أن يبدو قرصه للناظرين .
واستطردت جان تقول :
ــ لو كنت تعرف اسطنبول لاستطعت أن تفهم الأمور فى يسر ، فالجالية الاجنبية بأكملها كانت تعيش فوق ربوة عالية ، فى ضاحية بيرا ، وهذه الضاحية مدينة عصرية بكل معنى الكلمة ، وكان مسكننا فيها جناحا كبيرا فى عمارة ذات سبع طبقات ، بيضاء اللون حديثة البناء ، وكانت شرفاتنا ونوافذنا تشرف على سقوف المدينة الوطنية وعلى القرن الذهبى ... ألم تطلعك بيبى على ما لديها من الصور الشمسية ؟.

ولعلها أطلعته عليها منذ زمن بعيد ، ولكنه على كل حال لم يلق اليها بالا ، وقد جعلته كلمات جان يستطرد فى تفكير عميق ، ألم تقل له بيبى فى بداية عهد زواجهما:
ــ كم كنت أود لو عرفت أباك !.
وها هو ذا بعد عشر سنوات يشعر بتلك الرغبة فى الاستطلاع ، ولم تمهله جان طويلا بل أخذت تروى له ما كان فى أشد الشوق اليه :

ــ لا أظن الحياة فى تركيا الآن مثلما كانت فى أيامنا ، فعندئذ كانت الحياة غاية فى الطلاقة والمرح ، وكانت والدتنا تحفة من تحف الجمال ، فكانت تعتبر أجمل امرأة فى حى بيرا الاوروبى كله ، وكان أبى طويل القامة نحيلا ، له هيئة أستقراطية ، أو على الاقل هو ما سمعت الناس يقولونه دوما عنه .

ــ وكيف بدأت حياته هناك ؟.

ــ لقد ذهب آلى هناك ليعمل مهندسا عاديا ... آه لو علمت أمى أنى افشى لك هذا كله ! لقد كان ترقى والدى سريعا ... ويقال ــ وأنا أعتقد أن ذلك الظن صواب ــ ان والدتى هى التى صنعته ... فالسفير الفرنسى فى ذلك الحين كان أعزب ... وكنت تجدنا دائما مدعوين فى السفارة حيث كانت تقام باستمرار مآدب الغداء والعشاء ، وكان السفير يستشير والدتى فى جميع أموره ... حتى صارت فى النهاية المضيفة الحقيقية غير الرسمية للسفارة ... أفهمت ما أعنى ؟.

ــ وأبوك ؟.

ــ انى اذكر واقعة طريفة ... بمجرد نجاح مساعى والدتى فى تعيينه مديرا للترسانة البحرية ، أجبرته أمى على لبس المنوكل ، وقد أورثته هذه البدعة حركة عصبية فى احدى عينيه ..أتسألنى هل كان يعرف الحقيقة ؟. لست متأكدة من هذا ... فقد كنت صغيرة السن جدا ، وكنت أقضى معظم أوقاتى مع الخدم ، وكان لدينا ثلاثة منهم أو أربعة ، والحق أن بيتنا كان بيمارستانا حقيقيا، أمى مشغولة بزينتها وثيابها، تنثر الاوامر على كل من حولها، وهى تذرع المسكن بغير سبب ، والتليفون لا يكف عن الرنين ، والزوار لا ينقطع سيلهم ، وصراخ أمى لا ينقطع

ايضا لانها لم تعثر على قرطها ، او لان الكواء لم يحضر الثوب المطلوب في الميعاد ، وبين هذا وذاك ترفع مسماع التليفون ، وتتعقب خطوات ابى فى مكتبه او فى النادى دقيقة بدقيقة ، لانها كانت شديدة الغيرة الى درجة الجنون ، واختراع التليفون سهل عليها مطاردته أينما ذهب ، وكان والدى المسكين لا يجسر على رفع صوته ، فهو أشبه بتلك الكلاب الضخمة الانيقة الهادئة ، واذا اشتد عليه الضيق ينفس عن استيائه بتلميع المتوكل ، بينما جفنه يرتجف بحركة عصبية ، ولكنه لا ينبس ببنت شفة .

وتوقفت جان عن الكلام قليلا لتسأل فرانسوا :
ــ أواثق أنت انك لا تريد أن أغلق النافذة ؟.
ــ لا .. شكرا لك .

ــ وكانت والدتى تحتم عليه أن يأخذ معه احدانا كلما خرج لغير العمل ، وقد بدأ باصطحابى بصفتى الكبرى بين بنتيه ، فلما كبرت ودخلت القسم الداخلى فى مدرسة الراهبات ، اخذ بيبى بدلا منى ... وكنا نشعر انه مجبر على صحبتنا ، وفى أيام أجازتى المدرسية كان يأخذنا نحن الاثنتين الى النادى أو محل من محال الحلوى الفاخرة ، ثم يقول لنا : « عندى موعد هام ، سأترككما هنا ولكما أن تطلبا ما شئتما من الحلوى بشرط الا تخبرا أمكما انى فارقتكما » وكنا نطيعه ، حتى اذا عدنا الى البيت وجدنا مشقة فى مواجهة والدتنا ، لانها كانت تصر على سماع تقرير مفصل عن تحركاتنا ، ومن من الناس قابلنا ؟ وبأى الشوارع مررنا ؟ ثم تستجوب والدنا استجوابا دقيقا عن أوجه نفقاته الخصوصية ، وتدور المناقشات بينهما غالبا وهما يرتديان ثيابهما للتوجه الى

حفلة عشاء ساهرة ، وقلما كانت تمر ليلة بغير حفلة كهذه في سفارة او قنصلية أو بيت (بنكير) او ثرى من المشارقة، وابقى انا وبيبى فى البيت مع الخدم .

واشعلت جان سيجارة ، وسالت فرانسوا :

ـ الا يضرك ان أدخن ؟.

ـ كلا . وبعد ؟.

ـ والخلاصة أن أمى زادت فى غيرتها تطرفا بمرور الزمن ، ولا سيما بعد أن أدخلوني القسم الداخلى بمدرسة الراهبات ، وصارت بيبى وحدها فى البيت ، ولابد ان ابى كان مضطرا طول حياته معها للغش والخداع ، من الصباح الى المساء ، يخفى أشياء ، ويدبر مؤامرات صغيرة ، ويكذب بلا توقف ، ويبحث عن شركاء يساعدونه على التستر ، بما فيهم خدمنا ، فهو لا يكف عن توصية هذا أو تلك الا تخبر السيدة بالحقيقة ... واخيرا مات ، فظن الجميع أن أمى ستغدو سفيرة فى اسطنبول ، فتتزوج السفير الاعزب ، ولكن ذلك لم يحدث ، فعدنا الى فرنسا ... ولك ان تتصور بعدها لماذا أصبحت أمى تعيش فى هذه البلاد كالروح الحائرة ... ففى اسطنبول كانت تلقب دائما بمدام دونفيل الحسناء ، كانت ملكة ذات سلطان وأمر ونهى ... ثم اذا بها فجاة لا شىء سوى امراة بدينة نصف فى مدينة من مدن الارياف ... وفكرت يوما أن أشترى لها كلبا تتسلى بصحبته ... اتدرى ماذا قالت لى ؟.

ـ ماذا قالت ؟.

ـ قالت لى : « طبعا طبعا ! اذن انت تريدين أن أبدو من جميع الوجوه امراة عجوزا ... كلا وشكرا لك

يا ابنتي !.. عندما أصل الى هذه المرحلة سيكون من الافضل لى أن أموت » .

وسمعا من الطابق العلوى صوت جاك يتقلب فى فراشه ، ولكن ذلك لم يدهشهما ، لانه قلما ينام نوما مستقرا ، واستطردت جان فى عدم اكتراث مصطنع :

ــ وعلى كل حال يا فرانسوا ، كلنا له قصة فى طفولته، لان لكل أسرة اسلوبها فى المعيشة ، وأسرتنا كان أسلوبها ان كل فرد فيها يعيش على هواه ... ويتلاقى الافراد بالصدفة داخل نطاقها ... مثل كرة البلياردو التى يرتطم بعضها ببعض صدفة ، فتتجه فى وجهة جديدة ... والحقيقة انه متى كانت الفوضى هى النظام اليومى ، فلن تفطن اليها أو تضيق بها .

وحملق فيها فرانسوا فلم يستطع أن يتبين الا بياض ثوبها ، ومع ذلك خيل اليه انه يرى شقيقة زوجته لاول مرة ، لانه فى الواقع لم يكلف نفسه عناء التفكير فيها قبل ذلك .

وهل كان من عادته ان يلقى باله الى اى شيء لا يمسه شخصيا بصفة مباشرة ؟ لقد كان ينظر اليها دوما على أنها فتاة نشطة لطيفة تدخن السجائر ، وتخوض فى الاحاديث من غير تفكير وبصوت لا يخلو من بحة مستحبة .

وبعد لحظة تردد ، سألها :

ــ وهل كانت بيبى كتوما منطوية على نفسها حينئذ ؟.

ــ لقد كانت دائما على هذه الحالة ... والحقيقة انى لم أعرفها اطلاقا معرفة حقيقية ... لانها كانت أصغر منى بكثير ... وكانت تسرق عطورى وأدوات زينتى ، ومنذ طفولتها الاولى وبها ولع شديد بالثياب الجميلة ،

فحينما كنا نفتقدها ولا ندرى اين هى ، كنا نوقن انها فى حجرتها ، امام مرآة تجرب ثيابا وقبعات سرقتها من امها أو منى ، وهى لا تناسبها حجما ... وفيما عدا هذه اللعبة القريبة لا اذكر انها تلهو ، فلم تكن لديها دمى ... ولم يكن لها رفاق فى اللعب مثلى ... والحق انها لم تعرف فى طفولتها الا الازمات ، لانها عاصرت أسوا مراحل العلاقات بين امى وابى ... فالمشاحنات لم تكن لتنقطع بينهما فى تلك الفترة ، وبطبيعة الحال كانت تترك دائما وحدها مع الخدم .

ولاحظ فرانسوا ان جان توقفت عن الكلام ، وظهر فى صوتها التردد ، فقال :

ـ ماذا جرى ؟.

ـ اظن انه لا أهمية لشىء الآن وقد شرعت اخبرك بما كان ... ولكنى اتساءل فقط كيف استطاعت هذه الصغيرة ان تكتم ذلك السر تلك المدة الطويلة ؟. على كل حال اليك الموضوع ... منذ خمس سنوات تقريبا ، جاءت بيبى لزيارتى ومعها جاك وكان قد تعلم المشى حديثا ، فوجدتنى انسق بعض الصور الفوتوغرافية القديمة ، وبطبيعة الحال اطلعتها عليها واحدة واحدة ، واخذنا نتذكر الاشخاص ونراجع صورهم فى مخيلتنا ومدى الفرق بين ما فى ذاكرتنا وما فى ذاكرة الورق ، الى ان أبرزت لها صورة تمثلها ، وهى فى الثالثة عشرة ، ومعها فى نفس الصورة احدى خدمنا ، وهى فتاة يونانية نسيت اسمها ، قلت لها :

ـ من المضحك ان يفكر الانسان ان هذا كان شكلك يومئذ ، فرأيت وجهها يحمر ثم انتزعت الصورة من يدى ومزقتها بعصبية فائقة .

ـ ماذا بك يا بيبى ؟. ماذا طرأ بعقلك ؟.
ـ لا أريد ان أتذكر هذه الفتاة .
ـ هل كانت قاسية عليك ؟.
ـ آه لو علمت !.

وانى اتمثل بيبى الآن وهي تذرع الحجرة ، وقد ارتسمت المرارة على وجهها ، ثم أخذت تسرد على الحقيقة وهي ترتجف ، والواقع انى لا أدرى ماذا كنت فاعلة لو انني فى موضعها ، ولكنى أعتقد أنى ما كنت أطوى السر فى نفسي ، وكانت يومئذ فى الثانية عشرة ، وقد تركوها كالعادة وحدها بالبيت مع احدى الخادمات ، وهى تلك الفتاة اليونانية المرسومة معها فى الصورة ، ولعل بيبى كانت تلعب لعبة فردية حين اختفت فى ركن من حجرة الغسيل ، وبعد قليل جاءت الفتاة اليونانية ومعها عشيقها ، وهو جندى تركى ضخم الجثة له شارب مخيف ، ولك أن تتصور مشاعر فتاة دقيقة حساسة مثل بيبى وهى ترى ذلك الجندى الضخم يعاشر الفتاة اليونانية بصورة مبتذلة فوق مائدة الكى ، فتسمرت المسكينة فى مكانها لا تجسر على الحراك ، وفجأة قال الرجل :

ـ أظنني سمعت تنفسا .

فأجابته الفتاة الفاجرة :

ـ لا عليك ، ليس فى البيت الا الطفلة ، فان كانت رأتنا فليس فى التستر فائدة ، بل سيعفينا ذلك من الاحتيال للاختفاء عن عينيها كل ليلة !.

ومرضت بيبى وجعلت تتقيأ بضعة أيام من شدة التقزز والارتياع ، ولكنها لم تبح بكلمة واحدة لأمى أو لأى انسان .

وعلى الفور قفزت الي مخيلة فرانسوا صورة زوجته حين اختلى بها لاول مرة فى حجرة فندق رويال بمدينة كان ، وتركها ليدخن سيجارة عند الشرفة وخيل اليه انها تبكى .

وتنهدت جان ، وقالت له :

ـ لا يحضرنى شىء عن اسطنبول غير ذلك ، من الأوفق أن أذهب الأنام .

ـ لا تذهبى الآن !.

وكان صوت فرانسوا حارا ، والحقيقة أنه لم يشعر أن شقيقة زوجته قريبة الى نفسه كما هى فى تلك اللحظة، حتى لقد خيل اليه اذا اكتشفها الآن فقط ، فصارت له منذ تلك اللحظة صديقة وسالها :

ـ هل تحدثت اليك عنى ؟.

ـ من اية ناحية ؟.

ـ لا ادرى ... لعلها تكون شكت اليك منى .

ـ هل كنتما تتشاجران أحيانا ؟.

ـ اطلاقا .

وكانت جان هذه المرة هى التى استغرقت فى التفكير، ثم قالت :

ـ ما أغرب الحياة ، فهناك مثلا تلك الفروق بين الاخوين ، او بين الاختين ... كنت تبدو انت وبيبى زوجين سعيدين عاقلين لا يميلان لتعقيد الحياة ، أما أنا وفليكس فسعيدان حقا ، أنا أروح وأغدو ، وهو يروح ويغدو ، نشعر بالسعادة . ونحن معا ، اذا افترقنا لم نشعر بالشقاء ، وما جدوى أن يعذب الناس انفسهم بالتنقيب داخل مشاعرهم ؟ اننا نبذل غاية وسعنا لنسعد ،

وكذلك فعل آباؤنا ، وكذلك سيفعل ابناؤنا ، والآن هيا، فأظن الوقت قد حان لتأوى الى فراشك .

فقال فرانسوا من غير أن يتحرك :

ــ انت سعدت ، أما بيبى فشقيت كثيرا .

ــ هذا بسبب نظرتها الى الحياة ! فكلنا نصنع بأيدينا سعادتنا أو شقوتنا .

ــ أو يصنعها لنا الآخرون !.

ــ ماذا تعنى ؟ أتظن انك انت الذى أشقيتها ؟. اتعتقد انها شقيت بسبب أولجا جاليبر ؟. أتظن انها أقدمت على فعلتها عندما اكتشفت علاقتك بهذا ؟.

ــ كلا !.

ــ اذن ماذا ؟. وهل تظننى اسأل فليكس ماذا صنع عندما يأتى الى البيت بعد رحلة من رحلات الاعمال الكثيرة ؟ أنا لا أريد أن أعرف شيئا عن هذه الامور !. وقد قلت له ذات مرة بكل صراحة ، ما دمت لا ارى بعينى ، وما دام ذلك لا يحدث تحت سقفى ، وما دام.

فقاطعها فرانسوا قائلا :

ــ انت تكذبين !.

ــ لست كاذبة !.

ودقت الارض بقدمها فى غضب ، ولكنه لم يعبأ ، وقال لها :

ــ انت تعلمين تمام العلم انك كاذبة !.

ــ وماذا تريدنى أن أصنع ؟. هل قضيت حياتك أنت وبيبى فى استجوابات ونبش للدفائن على هذه الصورة ؟.

ــ كلا ، وهذا هو سبب البلاء !.

ــ سبب البلاء ؟ ماذا تعنى ؟.

ـ أعني أن بيبي عاشت طول الوقت في عزلة عاطفية وعقلية .
ـ أليس كل انسان يعيش بمعزل وحده ؟.. قم الآن ... انهض ... والا اغمي عليك مرة أخرى .
واتجهت الى النافذة فأغلقتها في حزم ، ثم أضاءت الانوار ، وفي الضوء المفاجيء تحاشى كل منهما أن ينظر الى الآخر ، وساد الصمت الثقيل برهة ، ثم قالت له :
ـ الا ينبغي أن تأخذ حبة منومة ؟.
ـ لا أدري .
ـ أواثق أنت أن شرابا ساخنا لا يمكن أن ينفعك ؟.
فهز رأسه سلبا ، فقالت :
ـ كما تشاء ، هذه آخر فرصة لان الخدم سيذهبون الآن الى الفراش ...
وجعلت تتحرك في مرح مفتعل كأنها تريد أن تستعيد سجيتها المعتادة ، ثم تناولت يده ، وقالت له :
ـ هيا قم يا فرانسوا ... وفي الغد متسع للتفكير !
ترى لماذا سخر من بيبى ، عندما كانت حديثة العهد جدا بداره في شارع الدباغين ، ورفعت عينيها الى صورة دونج الكبير بشاربيه المعقوفين ، ثم قالت في وداعة ، أو على الاقل في خجل :
ـ ليتني عرفت أباك !.
انها لم تكن عبارة فضولية من قبيل حشو الكلام ، فبيبى على خلاف شقيقتها لم يكن من عادتها اطلاقا ان تبدى ملاحظات لا معنى لها ، ولم تكن أيضا تقصد مجرد المجاملة الجوفاء .
كلا ، بل شعرت بيبى بالواقع ، وهو أنها جاءت من بعيد جدا ، وانها جلبت معها ، في دخيلة نفسها ، شيئا

من طباع أبيها ، ذلك الاب الذى كان مضطرا الى طلب معاونة الخدم وتواطئهم ، وجلبت معها ، وفى دخيلتها أيضا ، شيئا من أمها ، وقصر نظرها ، وحبها للأبهة والسمت ، وشيئا من ضاحية بيزا باسطنبول ، وما ترفل فيه من احتفالات وترف .

لقد عاشت ثمانية عشر عاما وذهنها الصغير يعمل وحده بمعزل عن الناس ، وبمعزل عن الناس أيضا حاولت أن تمحو من نفسها تلك الذكرى القبيحة ، ذكرى الفتاة اليونانية والجندى التركي وما كانت تشاهده منهما فوق مائدة الكي فى حجرة الغسيل .

ولهذا السبب استطاعت فى رويان أن ترفع عنه الحرج وترده الى سجيته ، لانها فهمت على الفور الدور الذى تقوم به الراقصة الصغيرة ، وصارحته بذلك .

ولم يكن ما تنشده هو الزوج كما تصور بوحى من انانيته ، فقد كان أمامها نموذج واضح للزواج بين أبيها وامها ، ولم يكن بالنموذج الشائق لها ، ولم يكن ما هفت اليه نفسها هو المعاشرة الجنسية ، وهى التى بوحى تجربتها العاثرة الحظ ، كانت ولم تزل تنفر من ذلك الاتصال ويكفهر لونها .

وانما هى دخلت بيت شارع الدباغين لتلتمس رفيقا لحياتها ، يؤنس وحشتها التى طالت ثمانية عشر عاما ، ولذا تطلعت الى الجدران وحاولت أن تشعر بحقيقة الجو ، وأمام صورة الاب ، قالت باخلاص :

ــ ليتنى عرفت اباك !.

فلعلها عندئذ كانت تجد التفاهم فيما بينهما أيسر وأوضح ، ونزلت الى مكتبه فنظرت برفق وحنان الى المكان الذى يجلس فيه فرانسوا كل يوم وسألته :

ـ الا تحب أن أساعدك في عملك ؟.

ولكنه لم يفهم ! أليس مكان المرأة هو البيت ؟. فلتنصرف الى تنسيق البيت على الوجه الذى يروقها !. ولتقم بواجبات الزوجة وتدبير المنزل ، ولتتفق مع النقاشين وصناع الاثاث ، ولتصدر الاوامر الى «الطباخة» لتعد الطعام ، ولتحاول ان تنشىء العلاقات بينها وبين أهل المدينة الصغيرة وقد أوصاها بذلك فعلا ، وقال لها :

ـ متى صارت لك صديقات ـ ولابد أن يحدث ذلك في وقت قريب ـ سوف لا تشعرين بالملل بعد ذلك .

ـ لا اشعر بالملل !!.

كان ذلك يدور برأسه وهو يصعد الى مخدعه ، وفى أمومة حانية أضاءت جان مصباح فراشه ، وتأكدت من وجود ماء فى دورقه .

ـ عدنى أن تنام على الفور ، أأستطيع أن أتركك وأنا مطمئنة يافرانسوا ؟.

فراودته نفسه أن يعانقها لما وجده فيها من رقة لم يكن يظنها خليقة بها .

ـ لا تكثر من التفكير يا فرانسوا ... طابت ليلتك .

وذهبت الى حجرة جاك لتتأكد من أنه نائم ، وان الاغطية محكمة حوله ، ثم ذهبت الى حجرة طفليها ، وأخيرا سمعها وهى تغير ثيابها فى حجرتها وتلقى بنفسها فى الفراش ، حيث كان من عادتها أن تدخن سيجارة أخيرة قبل أن تستغرق فى النوم .

والآن هل يعود الى موضوع مدام فلامان مثلا ؟. ان مجرد تفكيره فى مدام فلامان جعل العرق يتصبب من

جبينه ، انه يتصور تلك المسالة الآن فيجدها فظيعة مخجلة ، وانه ليعجب كيف أن رغبة جسدية عابرة كانت تملي عليه مثل ذلك السلوك !.

وها هي أفكاره تعود به الى كان ، حيث كان يجدف في الزورق الصغير ، وهو يشعر بالحرج تحت نظرات الملاحين والنوتية في الزوارق الاخرى واليخوت .

ومع هذا كانت تلك الرحلة ذات طابع انساني ، ولا سيما بعد حفلة الزواج وما فيها من مراسم ، وما أعقبها من مأدبة تقليدية ، ولكنه كان مستغرقا في فكرة واحدة من رواسب التقاليد الموروثة ، هي فكرة الاختلاء بزوجته على الفور .

ولم يستطع ان ينام فجعل يتقلب في فراشه وهو يشعر أن جان ترهف أذنيها لكل صوت ، خوفا من أن يعاوده الاغماء ، ولكن اغماءه بعد الظهر كان بسبب الغضب والغيظ والحنق على نفسه ، أما الآن فهو ليس غاضبا ، وانما هو يحاول أن يفهم ، وأن يفهم بجد ، وبصورة شبه علوية ، فهو يبغض الغموض وانصاف الحلول ، وقد اشتهر طول عمره بانه رجل عملي ، أنه لا يفكر الآن في بيبى ، لان بيبى لم تعد هى المشكلة بل هو الآن موضوع المشكلة .

لماذا عاش معها طيلة تلك السنوات من غير أن يفهمها ؟ كيف أساء فهمها الى حد كراهيتها ؟ .

اليس قولها :

ــ ليتنى عرفت اباك ؟.

هو في حد ذاته دليل على انها قد بذلت من جانبها مجهودا كبيرا ؟. نعم اكتشف الآن الف دليل لم يستطع في حينها أن يفهم مغزاها ...

تلك الليلة مثلا عندما وجدها جالسة بجواره وهو نائم لتكتشف أنه يتنفس بصعوبة وهو راقد على جنبه الايسر ... كانت تشعر أنه رجلها ، ورفيق حياتها على المدى ، وها هو ذا نائم جسده لصق جسدها مغمض العينين ، لعله يحلم وهى لا تدرى عن أحلامه شيئا ، وحين يفتح عينيه هل تستطيع أن تتغلغل الى سريرته وتعرف افكاره ؟.

كثيرا ما قالت له :

ـ كنت افكر فى أننا سنعيش معا بقية حياتنا .

وقد رأت بعينيها أمها وأباها يعيشان معا فى جو من الخديعة والاكاذيب ، ولذا قالت له :

ـ عدنى أنه مهما حدث ستخبرنى دائما بالحقيقة .

ولكن هل كان أسلوب جان فى معاشرة فليكس هو الاصح ، وهل جان شقية بحياتها مع فليكس لانها لا تعرف دقائق تفكيره واحساسه وسلوكه ؟ وهل فليكس شقى بذلك ؟ الا ينمو طفلاهما بصورة طبيعية كما تنمو النباتات؟ أليست بيبى هى المخطئة لانها تعلقت بالمستحيل ؟ .

وبحركة لا ارادية مد ذراعه وهو راقد ، وكان مستعدا للتنازل عن اى شىء فى تلك اللحظة كى يشعر بجسد زوجته النحيل بجواره ، ذلك الجسد الذى خيب آماله بسلبيته ، وخيل اليه أنها لو كانت هنا الآن ، وتسنى له أن يحتويها ويضمها بشدة بين ذراعيه ، لنعما معا ، كلاهما ، بعناق لا يعرفه الناس الا فى الأحلام ، لأن الارواح فيه تتخلص من المادة ولواحقها .

وتفصد عرقا ، وكان يعرق عرقا غزيرا منذ وقوع الحادثة ، وكانت لعرقه رائحة قوية ، وجعل يتساءل : هل يستطيع الرجل أن يقوم بمشاق العمل وانشاء

المصانع والمزارع ، وفى الوقت نفسه يشغل نفسه بامرأته فيؤنسها ويأخذ بيدها ويدمجها فى حياته كلها ؟.

وتمثلت امامه جميع الحجج التى تؤيد وجهة نظره ، ولكنه يشعر الآن انه كان مخطئا على طول الخط !. فليس من حق رجل أن يأخذ مخلوقا رقيقا ، فتاة صغيرة بريئة تتنزه على شاطىء رويان ، ويأتى بها الى بيته الموحش ثم يتركها هناك بمفردها لتعيش فى عزلة كاملة .

وليتها كانت عزلتها التى ألفتها ، بل هى عزلة فى جو غريب ، يوشك أن يكون جوا عدائيا !.

فكيف خطر بباله لحظة أن كونها زوجته يمكن أن يكفى لامتلاء حياتها ؟.

وخطرت له ذكريات غابت عنه طويلا ، عندما كانت فى المستشفى لتضع طفلها ، فقد حدثت أمور تلقى ضوءا لا على عقلية بيبى بل على عقليته هو ، فقد ظن أن من واجبه أن يجلس معها على الاقل فى ساعات المخاض الاولى ، وكان الكرسى غير مريح ، فلم يستطع أن يركز ذهنه ويمنعه من الشرود فى أمور خارجية ، وبين موجتين من أمواج الالم سألته بلهجة التوسل :

ـ انت تحبنى قليلا ، أليس كذلك يا فرانسوا ؟.

فأجابها بغير تردد وهو واثق من صدقه عندئذ :

ـ لو لم أكن أحبك اطلاقا لما تزوجتك

فأشاحت برأسها ، ثم تقلص وجهها بموجة الم جديدة، ولما فتحت عينيها بعد بضع ساعات ، وهى لم تزل تحت تأثير المخدر ، أروها طفلها ، فكانت أول كلماتها ونظرها لم يزل مشوشا :

ـ الا يشبهك ؟.

فاندفعت الدموع من عينيه ، وعندما غادر المستشفى بعد عشر دقائق كانت الغصة تعترض حلقه من فرط التأثر ، ولكنه أخرج المفتاح من جيبه وأدار محرك سيارته ، واندفع الى الشارع المغمور بأشعة الشمس وضجة الناس ، وبعد دقيقة واحدة انتهى هذا الاحساس الرقيق وعاد سيرته الاولى : فرانسوا دونج الرجل العملى الصلب الذى يعيش فى الواقع ولا يعرف الخيال العاطفى.

كم من الوقت ظلت تناضل فى سبيل انشاء صلة حميمة بينهما بغير طائل ؟.

لقد ذكرته فى ذلك الكفاح اليائس بذبابة شاهدها ذات مساء فى مزرعة البلوط ، وقد سقطت فى جدول الماء ، ففى البداية لم تصدق الذبابة أنها تواجه مصيرها المحتوم، فجعلت تحرك أرجلها فى عنف ، وترف بجناحيها ، كأنما ذلك الجهد يمكن أن يعيدها الى الهواء الذى هو قوام حياتها ، ولكن حركاتها جعلتها تدور فى دائرة ، وكانت هناك ورقة بلوط كأنها جزيرة عائمة ، فظن فرانسوا ان الذبابة ستنجح فى التعلق بها وتنجو من الغرق .

ومرت بضع لحظات من السكون ، لعله الاعياء ؟. لعله الحذر ؟. لعله الاقتصاد فى المجهود كى تبقى منه بقية مدخرة للمجهول ؟. ثم نشطت للكفاح فى مجهود يائس ، فانتشرت الدوائر كالحلقات المتداخلة فوق وجه الماء ، بيد أن الاجنحة كانت قد ابتلت بالماء ، فأى ظلام أطبق عندئذ على عينى الذبابة وهى تغوص فى الماء المثلوج ؟.

وكان فرانسوا واقفا يدخن سيجارة ، ويرقب كفاح الذبابة ، ويتساءل : هل تعرف أن ورقة البلوط فيها نجاتها ؟. انها على كل حال لا تكف عن تحريك ارجلها

الصغيرة ، وفكر فرانسوا ان يتناول عودا يدفع به ورقة الشجرة نحو الذبابة ولكنه فضل أن يرقب المعركة الى نهايتها من بعيد ، الا أنه نودى للعشاء فترك الذبابة لمصيرها .

وبيبى ؟ الم تحاول مائة مرة ، بل الف مرة ، أو ليس ما ظنه عدم اكتراث منها أو تحفظا انما هو فى الواقع كجمود الذبابة لاستجماع قواها أمام المصير اليائس ؟.

لقد رضيت بوضع مدام فلامان ... وكان واثقا انها فى كل ليلة عندما يقبلها بطريقة آلية فوق جبينها أو خدها ، كانت تتشممه وتحاول أن تعرف ان كان فى ذلك اليوم بالذات قد ...

وكان هو طول الوقت مرحا مسرورا جم النشـــــاط والحيوية ، لانه موفق فى عمله ، ومؤســــساته تزدهر بسرعة ، واســــم آل دونج ينتشر فى كل مكان ، ومئات العمال يتعيشون من العمل لدى آل دونج

وعندما كان يخبرها فى ابتهاج بصفقة جديدة ، أو نجاح جديد أحرزه أو عقد جديد للانتاج والتوريد ، كانت تبتسم ابتسامة مهذبة ، وكان يضايقه أنها لا تشاركه حماسته، فيسألها :

ـ ألا يسرك هذا ؟

فتقول بغير حماسة :

ـ طبعا طبعا .. هل ستخرج هذا المساء ؟

ـ يجب أن أقابل المحامى لكتابة عقد هام

ـ كنت أريد أن أريك الســـتائر التى اخترتها لحجرة الاستقبال الصغيرة

فيرد عليها باشارة غامضة من يده ، فهذا شأنها وشأنها

وحدها ، فليس مستعدا أن يشغل ذهنه بســـتائر حجرة الاستقبال أيضا ! والستائر القـديمة التي ترجع الى أيام والديه ، أليست فيها الكفاية ؟

ـ سوف أتأخر ·· فلا تسهري في انتظاري

وكان دائما يعود اليها وفي كسرات ثيابه ومسام جلده هواء العالم الخـــارجي التى كانت معزولة عنه تماما فى بيتها .

ـ هل أنت نائمة ؟

ولا تجيبه ، وكان يعلم انها ليست نائمة ، فيغيظه ذلك ، مع انها تتصنع النـــوم حتى لا يعلم انها ظلت ســاهرة تنتظره ، ترهف أذنيها لايسر الاصوات وهي وحيدة

ـ ولم يفهم شيئا من ذلك كله !

وانفتح الباب وابصر شبح جان تقول له مؤنبة :

ـ اسمع يا فرانسوا ، يجب ان تأخذ منــــوما ، فلك ساعة وانت تتقلب وتزفر فى فراشك ، سأعطيك عشرين نقطة هيا اشرب !

الفصل السابع عشر :

من أدراننا ؟ !

ــ اجلس ياسيد دونج

وعلى حسب خطة الاستاذ بونيفاس فى المحــاكم ترك الصمت يسود لحظة ، ليتناول قليلا من النشوق فى حركات غير مكترثة ، وهو يحملق فى فرانسوا مثلما يحملق المحقق فى وجه من يستجوبه ، وبعد قليل قال لفرانسوا :

ــ أظننا تقابلنا من قبل فى بيت شقيقة زوجتى

ــ لقد كان ذلك أخى فليكس

وكان الاستاذ بونيفاس قد تعود الامتناع عن التدخين فى المحاكم وفضل تعاطى النشوق ، وكان يفعل ذلك فى غير أناقة ، فتتناثر ذرات الطباق المســـحوق على لحيته البيضاء وقميصه ، وكان مشهورا بأن ثوب المحاماة الذى يرتديه هو أشد الاثواب لمعانا فى المحــكمة كلها بسبب قدمه ، أما أظافره فسوداء من القذارة ، وكان يكاد يباهى بقذارته ويعرضها على الناس فى تحد كعلامة خارجية على تكامله

وكانت الخادمة التى فتحت الباب لفرانســوا أقبح الخادمات فى المدينة ، ودخل بهوا واسعا طلى بلون العـاج

القديم ، وكانت للبيت كله رائحة أشبه بالماء الآسن فكأنه دار مهجورة

وكان الاستاذ بونيفـــاس مترملا اذ ماتت عنه زوجته وتركت له ابنة وحيدة ، وهذه الابنة الوحيدة كانت جدباء، فكان يميل للكآبة ، ولا شك انه خشي أن يبدو مكتبه مرحا بهيجا رغم دكنة لون أثاثه ، فحرص على أن يكون زجاج نوافذ حجرة المكتب ملونا بلون معتم

ـ غني عن البيان ياسيد فرانسوا انك لو كنت تقدمت بشكوى أو اتهام ضد زوجتـــك ، أو كانت النيـــابة قد استدعتك بين شهود الاثبات ، لما كنت طلبت اليك القدوم لمقابلتي في مكتبي

وشعر فرانسوا بالخجل والضياع ، كما شعر بهما في اول يوم ذهب فيه الى المدرسة ، فلم يستطع أن يجيب جوابا مناسبا ، وبأناة وهدوء فتح الاستاذ بونيفاس منديلا ضخما دفن فيه أنفه ثم نفخ أربع مرات أو خمســـا ، ثم نظر في النتيجة نظرة فاحصة وطوى المنديل بعناية وحرص !

ولم يسبق لفرانسوا ان ذهب لزيارة الاستاذ بونيفاس لا لاستشارة قانونية ، ولا ليمثله في قضية من قضـــاياه المدنية الكثيرة التي يضطر اليها بحـــكم عمله ، بل كان يستشير دائما محاميا شابا من الطـــراز الحديث الذي يحتقره الاستاذ بونيفاس ، لذا شعر فرانســـوا بالحرج والتأثم كمن ينبغي عليه أن يعتذر ، فتلك جريمة لا كفارة لها ، لان الاستاذ بونيفاس هو المحامي الوحيد في المدينة ، بمعنى انه المحامي الوحيد الجدير بهذا الاسم ، فهو محـــامي جميع العائلات ذات الشأن ، وكان يعرف أسرارها أكثر مما يعرفها كاهن الاعتراف

ـ حماتك من آل شارتييه فيما أعتقد ؟ ٠٠ والعجيب في الامر اني عرفتها معرفة سطحية عندما كنت شابا صغير السن ، فقد كان لها أخ اسمه فرناند ، كان ملازما في سلاح الفرسان في سومور ، في نفس الوقت الذى كان فيه ابن عم لى ضابطا هناك ، وابن عمي هذا ورث ضيعة صغيرة على بعد كيلو مترات قليلة من بيت آل شارتييه ، وكان شارتييه الكبير أمين خزانة المقاطعة ٠٠ واذكر جيدا انه كان يعاني من مرض النقرس ٠٠ أما ابنه فرناند شارتييه أخو حماتك فانزلق الى قضية قذرة تتعلق بالغش في لعب الورق في مونت كارلو ، ومات صغيرا في المستعمرات ٠٠٠ هل كنت تعلم هذه الامور ياسيد فرانسوا ؟

ـ بصورة غامضة

وكان فوق المكتب أمام الاستاذ بونيفاس ، تحت يده الكبيرة الغزيرة الشعر ملف سمني اللون مكتوب عليه بحروف مستديرة : « قضية دونج »

ـ أما دونفيل الذى تزوجته حماتك ، فكان ـ ما لم أكن مخطئا ـ من الشمال ، من مدينة ليل ٠٠ وهو مهندس ، التحق بعد زواجه مباشرة بوظيفة في تركيا ٠٠٠ وكانت اوجيني شارتييه في ذلك الوقت فتاة من أجمل فتيات المنطقة كلها ٠٠

وظل الاستاذ بونيفاس يفتح الملف ويغلقه طول الوقت ، وفرانسوا يتساءل : متي يدخل الاستاذ بونيفاس أخيرا في الموضوع ، وفجأة وبلا مقدمات :

ـ أنت ترى ياسيد دونج ان قضيتك يكتنفها سوء الحظ ، وأسوأ ما فيها هو نوع السلاح الذى اختارته

موكلتى ، فالمحلفون يغتفرون أحيانا طلقة مسدس أو طعنة سكين ، مع العلم بأن محلفي الاقاليم أقسى على العموم من المحلفين في باريس ، فالمحلفـــون في الارياف لا يظهرون اطلاقا أى تسامح نحو النساء السجينات ، وفي رأيي انهم في ذلك على حق ، فمن المستحيل تقريبا ان تدافع عن قضية قتل بالسم على اعتبارها جريمة عاطفية أملتهـــا الغيرة ، فتحت تأثير الانفعال العنيف قد يطلق الانســـان النار بالمسدس أو يتناول فأسا ويضرب بهـــا ضربة مفاجئة ، ولكن من الصعب أن تتصور انفعالا حادا كهذا يستمر مدة طويلة في عنفوانه ، ريثما يحصـــل على السم ، ويتربص الفرصة المواتية ، ويقـــوم بجميع ما يلزم من التفاصـــيل لاتمام فعلته

وتناول الاستاذ بونيفاس دفعة أخرى من النشوق ، من غير أن يحول عينيه الثاقبتين عن وجه فرانســوا الذى لم يشعر في حياته بالحرج وعدم الارتياح كما شـــعر بهما الآن ، ولا شك انهـــا كانت المرة الاولى التي يفقد فيهـــا فرانسوا دونج سيطرته على نفسه تماما وأحس بالضـــياع والحيرة ، فهو لا يعرف نفسه ، ولا يفهم المأساة ، ولا يبيبى دونج ، على الصورة التي بدت بها هذه الامور والاشخاص جميعا في الملف الذى تحت قبضة يد هذا المحامي الثقيلة

ــ وقد كانت موكلتي متسرعة حينما اعترفت في طيش بانها حصلت على السم قبل الجريمة بثلاثة أشهر ، فهـــل تعرف رئيس نيابتنا ؟ انى استطيع أن أتوقع سلفا الآثار التي سوف يستخرجها من هذا الاعتراف ، والآن هل لي أن أسالك ياسيد دونج عن الشروط الواردة في عقد زواجك ؟

فأجاب فرانسوا بصـــوت وديع خال من التعبير كأنه

تلميذ مهذب فى المدرسة يجيب عن سؤال وجهه اليه معلم الحساب :

ـ ليست هناك نصوص خاصة فى عقد زواجى

ـ آه ! معنى ذلك ان أملاككما تعتبر شركة بينكما على الشيوع ·· وهذا مما يزيد مهمتى صعوبة ·· بكم تقدر قيمة ممتلكاتك ؟

ـ من الصعب التكهن بقيمتها الحقيقية

ـ على وجه التقريب ؟

ـ اذا بيعت المدبغة بيعا جبريا قد لا تساوى شيئا كثيرا ولكن معمـــل الجبن والاراضى والابنية والمواد الاولية تساوى أكثر من مائتى ألف فرنك ، أما ··

فقاطعه الاستاذ بونيفاس قائلا :

ـ ما هو دخلك السنوى منها كلها اجمالا ؟

ـ نحو مليون فرنك مناصفة بينى وبين أخى سنويا

ـ اذن انت وشقيقك شريكان ·· فلنقدر حصتك فى راس المال بثلاثة ملايين على الاقل ·· وان كان رئيس النيابة سيقول انها تساوى أربعة ملايين أو خمسة

فقال فرانسوا على استحياء :

ـ لست أرى أدنى صلة بين ··

ولم يدعه الاستاذ بونيفاس يتم كلامه بل قاطعه قائلا :

ـ تعنى الصلة بين هذه الارقام وبين الفعل الذى أقدمت عليه موكلتى ؟ انك تجهل هذه الصلة ياسيد دونج لانك لا تعلم ان تسعة أعشار حوادث القتـــل بالسم ، أو ٩٥٪ منها تقترف طمعـــا فى الربح المادى ·· وفى الحوادث الخمسة الباقية تكون الفاعلة امرأة تريد التخلص من زوج بغيض كى تتزوج من عشـــيقها ·· وذلك ما يحدث فى

الغالب عندما تقع الجريمة فى ضيعة من الضياع ، فنجد الفلاحة تريد الزواج من الاجير الشاب ، فتدس سم الفيران لبعلها كى تترمل وتقدم ميراثها من زوجها المزارع بائنة للاجير الشاب

وانفتح المنديل الكبير مرة أخرى ، ثم دوى النفير جملة مرات ، وأطلق الاستاذ بونيفاس بعدها زفرة ارتياح وسكت قليلا وهو يحملق فى زائره :

ـ يهمنى أن أبادر فأقول لك اننى لا أعتقد اننا أمام جريمة من هذا النوع ، ولكن بما اننا لا نعرف على أى أساس ستقدم النيابة القضية ، لذا يجب أن نقدر سلفا كل شيء حتى نكون على استعداد ، وانى أذكر قضية مشهورة هى قضية مارتينو وكلت فيها المتهمة زميلا من ألمع الزملاء فى باريس ، فدرس ملف القضية بعناية فائقة محيطة بجميع التفاصيل ، ولكن ممثل النيابة قدم القضية فى الجلسة من زاوية مختلفة جدا

وأخذ فرانسوا يتصبب عرقا ، ولعلنا لو سألناه فجأة أين هو لوجد عناء شديدا فى الجواب ، فهو يشعر انه تائه ، ليس له موضع معين فى الزمان ولا فى المكان ، واستمر صوت المحامى الملتحى القذر يصل اليه واضحا قويا قاطعا لا يعرف الشفقة أو الرحمة

ـ ثلاثة ملايين ، هذا مبلغ لا يستهان به ياسيد دونج ، ولما كان المحلفون فى كل قضية جنائية يختارون بالقرعة ، فمن المستحيل التكهن بطينة هؤلاء المحلفين فى قضيتنا ، فمنهم قطعا تجار صغار يقلقهم تسديد فواتير ببضع مئات من الفرنكات ، ومنهم كتبة وموظفون أهليون يعيشون على دخل متواضع جدا ، ومتى سمع هؤلاء رقم الملايين الثلاثة

فى المحكمة سرى الطمع والحسد فى أوصالهم ٠٠ وهناك نقطة أخرى لعلها لم تخطر ببالك ٠٠ فأى دليل لدينا على ان ذلك الاحد العشرين من أغسطس هو أول يوم تناولت فيه الزرنيخ فى فنجان القهوة ؟

ــ ولكن

ــ دعنى أتم كلامى ! ان موكلتى قد اعترفت انها أخذت الزرنيخ من معملك الكيمساوى قبل يوم الحادث بثلاثة أشهر ٠٠٠ والآن ، ننتقل الى مسألة يعرفها جميع الناس ولو من قراءة ما ترويه الصحف عن أخبار الجنايات والمحاكم ، واعنى ان الموت بالزرنيخ يمكن أن يبدو طبيعيا اذا تعاطى المجنى عليه جرعات ضئيلة جدا فى البداية ، تأخذ فى التزايد تدريجيا ، فما دليلنا على انك لم تتناول مثل هذه الجرعات الضئيلة فى مدى الاشهر الثلاثة ، من غير أن تفطن الى ذلك ؟

وفتح فرانسوا فمه ، ولكن المحامى لم يمنحه فرصة للكلام ، بل أومأ اليه بأشارة من يده ذات الاظافر القذرة قطعت عليه الطريق :

ــ والآن هيا بنا نزن الوقائع بهدوء ، كما هو الواجب ، سوف ننسى الدوافع الحقيقية مؤقتا ، فما نعلمه أن هذه الدوافع أيا كان شأنها كانت موجودة لدى موكلتى منذ ثلاثة أشهر على وجه اليقين ، بدليل ان موكلتى فى ذلك الحين جازفت بأن تضبط وهى تأخذ قنينة الزرنيخ من معملك الكيماوى الخاص ، وخلال تلك الاشهر الثلاثة كنت تذهب بانتظام الى مزرعة البلوط مقرك الريفى حيث تقيم زوجتك باستمرار

ودوى اسم مزرعة البابوك على مسمعى فرانسوا وقد مرّ بين شفتى الاستاذ بونيفاسى وقعا غريبـــا ، فمن المستحيل الربط بين ذلك البيت الذى يعرفه بهيجا مشرقا مونقا أنيقا وبين الاسم الذى نطق به هذا الدب

ــ ... وكنت تنام هناك ، وكنت تأكل هناك ، وكنت تشرب القهوة هناك .. وفى كثير من المرات كنتم جميعـــا ، بما فيكم حماتك وأخوك وشـــقيقة زوجتـــك مجتمعين فى الحديقة حيث وقعت المأساة ... وبعبـارة أخرى انه فى خلال هذه الاشهر الثـــلاثة كانت نفس الظروف متوافرة . اذن ، ولنقل أنها هى الظروف المواتية للقيام بالعمل موضوع القضية ... مع توافر نفس الدوافع .. فما الذى يمـكن أن يدعو موكلتى الى الانتظـار طيلة تلك المدة ؟ دعنى أتم كلامى ياسيد دونج ! .. ان واجبى هو تقدير كل فرض ممكن ، وينبغى أن تصدقنى حين أؤكد لك ان السيد روى رئيس النيابة سوف لا يفوته أن يستغل هذه الناحية

وسكت المحامى لحظة ، ثم سأله :

ــ هل أتتك زوجتك ببائنة عندما تزوجتك ؟

ولو أن فرانسوا وجد نفســـــه فجأة عريانا فى مكتب الاستاذ بونيفاسى ، لما كان شعوره بالحرج أقسى من ذلك

ــ كلا ، ذلك انى رفضت ..

ــ وهل قدمت زوجة أخيك التى تزوجته فى يوم زواجك بأختها ، هل قدمت لاخيك بائنة ؟

ــ واخى أيضا كان موقفه كموقفى

ــ كلا ياسيد دونج ! .. آسف لاننى مضطر بحكم العمل أن أتدخل فى شئونك الخاصة ، ولكن العواطف لا يمـكن

أن يحسب لها حساب في مثل هذه الامور ٠٠ ان الآنستين دونيج لم يكن في وسع أية واحدة منهما أن تقدم اليك أو الى اخيك بائنة ، لسبب بسيط جدا هو أن أمهما ليست مفلسة فحسب ، بل وليس لها أي مورد للمعاش ٠٠٠ ولولا وقوع الانقلاب التركي واعلان الجمهورية لكانت لمدام دونفيل ايرادات أكثر من محترمة ٠٠٠ ولكن من سوء حظها أن احداثا سياسية كثيرة وقعت في تركيا بعد عودتها الى فرنسا ، قضت على معاشها وعلى أوجه الاستغلال المالي لما تركه لها زوجها هناك ٠٠ وبلغ بهـا الافلاس انها رهنت بيت أبويها في موفران

وفجأة تذكر فرانسوا تلك الذبابة التي كانت تكافح فوق وجه الماء ، بيد انه في هذه المرة لم يكن يفكر في بيبي ، بل كان يفكر في نفسه ، فهو يتصبب عرقا ، ويريد أن يطلب منه فتح النافذة كي يستنشق هواء حقيقيا ، ويرى أشخاصا عاديين يسيرون في الشارع ، ويسمع أصواتا اخرى الى جانب الصوت الاجش الذي ينطلق من حنجرة هذا المحامي

ـ وقصارى القول انك ظللت أنت وأخوك تعولان مدام دونفيل مدى هذه السنوات العشر !

ترى لماذا لم يستطع أن يصرخ في وجهه قائلا :
ـ الى الجحيم انت وثرثرتك وشائعاتك كلها ! كل هذا لا علاقة له ببيبي ، ولا علاقة له بنا ، ولا علاقة له بمزرعة البلوط

وأخذت يداه ترتجفـان ، وجفت حنجرته ، ولما رأى أصابع المحامي تدفع النشوق الى داخل خياشيمه وقد أطلت

منها شعرات داكنة ، أحس بأعراض الغثيان في معدته

ـ انك تدرك طبعا ياسيد دونج أن كل قضية ، صغرت أو كبرت ، يجب ان تدرس من جميع نواحيها

ـ ولكن زوجتي لم تكن مفتقرة الى المال

ـ انك كنت تعطيها كل ما تحتاج اليه ، أليس كذلك ؟

ـ بلى ، بلا حساب أو مناقشة

ـ ولكن هل انت واثق ان مجرد وجودك ، مجرد كونك على قيد الحياة لم يكن يمنعها من انفاق المال على النحو الذي تشاء ؟ هل انت واثق ان الحياة التي كانت تحياها معك هي الحياة التي كانت تتمناها ؟

وابتسم المحامي ابتسامة كالحة ، فهو لا يهتم بالناس ، ولا يرى الا الوقائع ونتائج تلك الوقائع

ـ أنا أعرف مدام دونفيل ، وأعلم أنها كانت على الدوام تحب غشيان المجتمعات الراقية .. وقد ربت بنتيها بتلك الروح ... ومن المشهور عنها انها كانت تشكو على الدوام من جو مدينتنا المغلق على حد قولها .. وكانت ثياب زوجتك تثير التعليقات بأناقتها المفـــرطة ، وكذلك عدم مبـالاتها بمجتمعنا الصغير .. وأنت رجل أعمال ياسيد دونج

ـ أستطيع أن أؤكد ..

ـ تش تش تش !

وذهل فرانسوا لخروج هذه الاصـــوات من ذلك الفم فسكت

ـ يجب أن تتعلم في هذه الامور الا تؤكد شيئا ، وكمـا ترى ، قد أثبت ان ارتكاب الجريمة بقصد المنفعة المادية أمر غير مستبعد عقلا .. وقد ناقشنا الارقام .. والآن هيا

بنا لنعود الى الوقــائع ، ولا شيء غير الوقائع ٠٠ في ذلك اليوم المعين لم يقع شيء غير عادي ٠٠ فلم تتلق زوجتـــك خطابات مجهولة ٠٠ وفي الليلة السابقة لم يحدث بينكما شجار ٠٠٠

ووجد فرانسوا الشجاعة على أن يعترض قائلا :

ـ ومن أين لك ان تعلم ذلك ؟

فربت المحامي على الملف بيده الضخمة القذرة ، وقال :

ـ كل شيء موجود هاهنا ، فلدينا الاعترافات القـــاطعة من موكلتي ٠٠٠ وبنفس الطريقة نعلم انها لم ترك في ذلك الصباح الاعند موعد الغداء ٠٠٠ ومن ذلك أستنتج انه لم يكن لديها سبب لقتلك بالسم في ذلك اليوم المعين ، أكثر من أي يوم آخر

ولم يستطع فرانسوا أن يحتمــــل أكثر من ذلك فقفز واقفا على قدميه ، ولكن الاستاذ بونيفاس أشار اليه اشارة آمرة ، فجلس

ـ سأسمع اعتراضاتك فيما بعد ٠٠ أما الآن فسأذهب الى أكثر مما ذهبت اليه ٠٠ سأقول ان في ذلك اليوم المعين كان هناك على الاقل ثلاثة شـــهود ٠٠٠ ومن بين هـــؤلاء الشهود الثلاثة الشاهد الذي كان ينبغي أن تخشاه زوجتك أشد الخشية ، وهو شقيقك الذي يعرف الناس جميعـــا مبلغ تعلقه بك

وتناول بونيفاس منديله ، وتابع حديثه :

ـ وزوجتك تعلم انك كيمائي ياســـيد دونبج ، وان لم يكن شقيقك حاملا لدبلوم الكيميـــاء مثلك ، فهو يعرف السموم بحكم اشتغاله معك يوميا في معملك الخاص وفي

المصنع ، ومن المستحيل وضع الزرنيخ بكمية قاتلة لشخص من غير أن يثير ذلك أعراضا يعرفهـــا الجميع ، فما بالك بالكيمائيين

ولم يبتسم وهو يحدق في محـــدثه راضيا عن نفســه يجذب شعر لحيته

ـ فلماذا قامت زوجتك الذكية بوضـــع هذه الجـرعة الكبيرة ، في ذلك اليوم ، وفي ذلك اليوم بالذات ؟ سأخبرك أنا بالسبب ... واذا شئت فاعتبر انى أتكلم بلســــان المدعي العام .. أن زوجتك في ذلك اليـــوم المعين ارتكبت خطأ .. ففي المرات السابقة كانت حريصـــة دائما على أن تضع جرعات صغيرة في القهوة ، تكفي فحسب لتـــدمير صحتك شيئا فشيئا ، تمهيـــدا للاذهان كي تتـــوقع نبا موتك .. ولكن شدة لمعان الشمس في الحديقة ، ووجود هذا العدد من الناس عن كثب منها ، جعل يدها ترتعد

ـ اقسم لك ان ذلك كله ..

ـ من فضلك ياسيد دونيج .. اننا ننظـــر في الوقائع ، وفي الوقائع فحسب، فليس الذنب ذنبي اذا كانت الفروض المنطقية المستخلصة من هذه الوقائع بهذا الشكل .. وهذه الفروض المنطقية سوف لا تعرض على أناس أذكياء ، بل على جماعة من صغار التجار والدهماء ، الذين لا يعرفون شيئا عنك أو عن موكلتي سوى ماسيسمعونه في قاعة الجلسة

وعندئذ فعل فرانسوا ما فعلته الذبابة التي سقطت في مجرى الماء المثلوج ، جمد في مكانه ولم يتحرك ، لانه شعر بافتقاره الى القوة

الكافية للكفاح في تلك المعركة ، فهل ترى ظل مصغيا ؟

ان كلمات الاستاذ بونيفاس كانت تصل اليه من بعيد جدا ، ولكن بوضوح تام ، وان كانت فجة :

ـ لقد تم التحقيق واقفل بالامس ، واليوم سيعاد الملف الى مكتب النيابة ، وللأسف الشديد ان زوجتك أدلت بأقوالها على مسئوليتها غير مستعينة بى وبمشورتى ولعلنا كنا مستطيعين أن ندفع بأنها جريمة عاطفية ، من غير أن نورط معنا طرفا ثالثا ... فسلوكك الشخصى يساعدنا على ذكر علاقات مشهورة يمكن الاشارة اليها مع التستر الكافى

وقد ذكر المحامى تلك العبارات الأخيرة بلهجة سريعة ، فهو رجل بحكم ظروفه كلها مناهض لأى خروج على الفضيلة والآداب المرعية

ـ وأما عن السيد جيفر قاضى التحقيق ، فهذه اول قضية هامة تقع منذ توليه منصبه فى مدينتنا ، وقد وجه التحقيق بكثير من الحذر والحصافة لا يسعنى الا التنويه بهما ... واذا سمحت لى فانى سأتلو عليك جانبا من أجابات موكلتى عن أسئلته

فهل حقا آن له أن يتمثل بيبى فى ذلك المكتب ، ولو بصورة مشوهة بتاثير قاضى التحقيق راكب الدراجة ، وذلك المحامى الفظيع !

هاهو ذا الملف يفتح اخيرا وتظهر منه اوراق مكتوبة على الآلة الكاتبة

س : قررت بالامس انك لم تكونى تشعرين بالغيرة على زوجك ، وانك بعد اشهر قلائل من زواجكما قد منحته الحرية الكاملة فيما يتعلق بالنساء

ج : بشرط الا يخفى شيئا من ذلك كله عنى ...

واغلق فرانسوا عينيه برهة ، وخيل اليه انه يرى بيبى وهى تجيب عن ذلك السؤال بصوت واضح ، وقد جلست منتصبة القامة جدا ، ورشقه الاستاذ بونيفاس بنظرة سريعة ثم استانف القراءة :

س : وهل ظل هذا الاتفاق مرعى الجانب منذ ذلك الحين ، ومن الطرفين ؟

ج : دائما

س : هل كنت تحبين زوجك ؟

ج : لا أدرى

س : سنضع السؤال فى صيغة اخرى اكثر وضوحا، هل كنت تعيشين معه معيشة الازواج ، أم ان ماذكرته آنفا جعل العلاقة بينكما علاقة صداقة خالية من المعاشرة الزوجية ؟

ج : بل فى حدود التعايش بين زوجين

ونظر الاستاذ بونيفاس فى هذه المرة نظرة تفيض بالدهشة الى فرانسوا الذى ظل جامدا فى مكانه تماما ، وبطبيعة الحال لم يستطع الاستاذ بونيفاس أن يفهم كيف يعيش اثنان على تلك الصورة

س : الا يبدو لك هذان المسلكان متعارضين تماما ؟

ج : لم أكن اراهما متعارضين

س : والآن ما رايك ؟

ج : لا ادرى

س : اتصرين على ان محاولتك القضاء على حيـــاة زوجك لم تكن نتيجة ثورة مفاجئة من ثورات الغيرة ؟

ج : أصر على ذلك

س : ساوجه اليك سؤالا ادق من سابقه .... ان

لم تكن الغيرة هي الدافع بك على ارتكاب جريمتك ، فهل لي ان استنتج أن الدافع هو الكراهية أو الحب ؟

ج : بل الكراهية

س : ولكنك قررت من قبل انك كنت تحبين زوجك ... فمنذ متى اذن بدأت الكراهية تحل لديك محل الحب ؟

ج : لا استطيع ان أخبرك بالضبط

س : منذ بضع سنوات ؟

ج : لا اظن ذلك

س : منذ سنة ؟

ج : لا أدري ....

س : منذ ستة اشهر ؟

ج : ربما أكثر من هذا

س : ولكن فكرة الاقدام على قتله لم تخطر ببالك الا عندما اخذت السم من معمله الكيماوى ؟

ج : لم تكن عندي وقتئذ اية نية فى قتله

س : اذن ماذا كان قصدك من أخذ السم وقتئذ ؟

ج : لا ادري ... الحقيقة ان الأمور لم يكن من الممكن أن تمضي على ذلك النحو ... كان لابد لأحدنا ان يذهب ، اما انا واما هو ... ولم تكن عندى الشجاعة الكافية لقتل نفسى ، ربما بسبب جاك ... فالطفل يحتاج الى امه أكثر من حاجته الى ابيه

س : اذن أنت ناقشت مسألة أيكما يستحسن ان يقتل ؟

ج : نعم

س : وهل ظلت هذه المداولة بينك وبين نفسك مدة طويلة ؟

ج : بضعة أشهر
س : واين كنت تحتفظين بالزرنيخ طول هذه الفترة؟
ج : فى درج مائدة زينتى ، فى قاع صندوق الدرور (البودرة)

س : وهل معنى ذلك انه كلما حضر زوجك الى البيت الريفى ، كنت تنظرين اليه وتأكلين معه ، وتنامين فى حجرة واحدة معه أيضا ، وأنت تعلمين مقدما انك فى يوم من الايام ستقدمين على قتله ؟
ج : لم أكن قد عقدت العزم بعد ، ولكنى كنت أناقش المسألة

س : هل تستطيعين تحديد أسباب حفيظتك عليه ؟
ج : كلا

س : هل رفض فى أى وقت أن يعطيك ما تحتاجين اليه من نقود ؟ هل كان صارما معك ؟ هل كان يكثر من تأنيبك ؟ هل كان يضربك ؟ هل كان غيورا شكاكا ؟
ج : لم يكن يشغل ذهنه بى على الاطلاق
س : هل شجعك اى انسان على تصرفك هذا ؟
ج : لا أحد

س : كيف كانت العلاقات بين والدتك وزوجك ؟
ج : العلاقات العادية بين حماة وزوج ابنتها فيما أعتقد ، لأن فرانسوا كان يتحملها بغير ضيق ويعطيها نقودا

س : وهل كنت تعطين امك اكثر مما كان يعطيها لو كان المال مالك الخاص ؟
ج : ربما
س : انت تقرين اذن انك اعتديت على حياة زوجك

لأنك تكرهينه ، ولكنك لا تستطيعين تفسير أســـباب تلك الكراهية

ج : كنت أتعذب عذابا فظيعا جدا

س : ان القانون الامريكي يعترف بمبرر الطـلاق لا تعترف به القوانين الفرنسية ... وهذا المبرر هـو القسوة العقلية ، فهل تتهمين زوجك بالقسوة العقلية ؟

ج : لا جواب

س : في يوم الاحد ٢٠ أغسطس أعددت بكل هدوء جريمة لقتل زوجك ، فقد كانت الورقة التي بها مسحوق الزرنيخ في يدك عندما نزلت من الطابق العلوي ... فهل تعرفين آثار السم بالزرنيخ ؟

ج : كنت أعلم انه يقتل

س : الم تفكري في نتائج ذلك العمل بالنسبة لك ؟

ج : كلا ، كل همي كان منحصرا في انهاء هذا الموقف

س : أي موقف ؟

ج : لا أدري ، هذا أمر يطول بيانه جدا

س : حاولي

ج : لا يمكن أن تفهم ما سأقول

س : هل كانت ورقة الزرنيخ في يدك عنـــدما كنت تضعين السكر في القهوة ؟

ج : كانت في يدي طول الوقت وأنا في الحديقة ، خبأتها في منديلي

س : الم تشعري بأدنى تردد ؟

ج : كلا

س : متى قررت بصفة نهائية التنفيذ ؟

ج : ذلك الصباح عندما استيقظت ، كان زوجي يمهد

ملعبيه التنس وهو مرتد البيجاما ، والخف
س : الم تشعري باي ندم عندما رايته يشرب القهوة المسمومة ؟
ج : كلا
س : ماذا كان شعورك وقتئذ ؟
ج : كنت اتساءل هل لاحظ فى طعمها شيئا ؟
س : الم يلاحظ شيئا ؟
ج : اظنه اعتقد ان البن ليس من صنف جيد ، ولكنه لم يتكلم ، لان فرانسوا ليس من الصنف المتذمر من الرجال

ونظر المحامى بدهشة وهو لا يدرى ماذا حرك مشاعر زائره فجاة ، وكان المسئول عن ذلك هو لفظ فرانسوا حين ورد بهذه الصورة الحميمة المالوفة فى مجرى كلاهما
س : وفيم كنت تفكرين بعدئذ ؟
ج : لم افكر فى شيء ، كنت اقول لنفسى فقط ان المهمة قد انتهت اخيرا

س : اى انك شعرت بالانعتاق والخلاص ؟
ج : لا أدرى
س : الم تشعرى بالتحرر من حياة ثقيلة ومعاشرة بغيضة ؟ الم تشعرى انك ستستطيعين اخيرا أن تعيشى كما يحلو لك ؟

ج : لم يكن ذلك شعورى على الاطلاق
س : وعندما رايته ينهض وقد استولت عليه الآلام الاولى لينطلق مترنحا نحو البيت ، ماذا كان شعورك ؟
ج : تمنيت أن تكون النهاية سريعة
س : الم تشعرى بالخوف من افتضاح جريمتك ؟

ج : لم افكر فى ذلك
س : ولو انه مات ماذا كنت ستفعلين ؟
ج : لا شيء ، كنت ساستانف الحياة مع ابنى
س : فى مزرعة البلوط ؟

ج : كلا ، لا اظن ذلك ، لا ادرى ... لم افكر فى تلك التفاصيل ... كل مافكرت فيه هو أن أحدنا يجب أن يمضى ... لأنى لم أعد أطيق تلك الحياة

ورفع الاستاذ بونيفاس نظره الى فرانسوا ، فأدهشه أن يجده ينظر اليه نظرة المنتصر ، أما فرانسوا فدهش لما بدا فى نظرة المحامى من قسوة وصرامة ، وصـــــاح به :

ـ ها انت قد رايت !

ـ ماذا رايت ؟ اننا فيما ارى أمام قضية لم أجد لها مثيلا فى مدة اشتغالى بالمحاماة ، وكنت أتمنى عند قراءة الملف أن أجد ما أتعلل به للدفع باختلال قوى المتهمـة العقلية ، ولكن الكشف الطبى الذى أجراه ثلاثة من الاطباء الشرعيين عليها جاء قاطعا بمسئوليتها الكاملة عن أفعالها

وشرد فرانسوا بأفكاره بعيدا عن ثرثرة ذلك المحامى الذى لا يفهم ولا يمكن أن يفهم بيبى دونج ، انه هوالمسئول عن يأس زوجته ، وعندما حدث ائتلاف نفسى بينها وبين ميمى لامبير ثار ضـــــدها وطردها ، لماذا ؟ انه لا يدرى بالضبط ، أو لم يكن يدرى وقتئذ ، أما الآن فهو يعلم السبب ... السبب انه أصر دائما على أن يكون السيد، فى حياته وفى بيته ، فيجب أن يكون وحده محور حياتها، حتى وان أهملها ونأى عنها بقلبه وعقله وجسمه !

ان جان نجت من ذلك المصير لأنها لم تحب فليكس

حبا تاما ، فشغلت حياتها باللجان والمؤسسات الخيرية والنشاط الاجتماعى ، مما حفظ عليها توازنها الوجدانى ، ولكن مصيبة بيبى انها لم تكن كجان !

أن بيبى أحبته ، وأحبته الى درجة اليأس القاتل ، ولكنه كان أعمى فلم يفطن ولم يبصر !

ونبهه صوت الاستاذ بونيفاس يقول له :

ـ مادمت قد صفحت عن زوجتك ياسيد دونج ، وترغب فى تبرئتها ، فسأبذل جهدي فى ذلك السبيل ، ولا أستطيع أن أخبرك الآن كيف سأوجه دفاعى ، فذلك يتوقف على تكوين المحلفين فى القضية ، وعلى تكـــوين النيابة لها ... ولكنى أصارحك أن مهمتى ثقيلة

ولا يذكر فرانسوا كيف أستطاع أخيرا أن يخرج من ذلك الفخ ، ولابد أن الاستاذ بونيفاس فتح له البـــاب ، فلما أبصر ضوء النهار فى الخارج ملأ صدره بالهواء الطلق واندفع ناجيا بنفسه ، ولعله نسى أن يلقى الى المحـــامى بتحية المجاملة المألوفة !

وفى الطريق جعلت كلمة « القسوة العقلية » ترن فى اذنه ... وركب سيارته واخذ يدير المحرك من غير أن يضع مفتاح الاتصال .. فقد قالت بيبى :

ـ كان ينبغى أن يموت أحدنا ... واعتقـــدت أن الطفل أحوج الى أمه منه الى ابيه

واندفع بالسيارة فى طريقه على غير هدى ، وقد نسى أن اليوم يوم السوق الاسبوعية ، فكان عليه أن يستخدم النفير بغير انقطاع ، ودخل فى شارع ممنوع على السيارات أن تمر فيه فى ذلك اليوم المزدحم ، ثم اضطر للرجوع الى الخلف

الفصل الثامن عشر:

المحاكمة

ـ سيدى ! ... سيدى ! ... انها الساعة الثامنة الآن

وجعلت انجين الخادم العجوز فى بيت شارع الدباغين تروح وتغدو فى الحجرة بنشاط واهتمام غير عاجلين

ـ اية بدلة اخرجها لك ؟ من المستحسن أن تدخل الحمام .... ما اشد تشعث هذا الفراش ! كل شىء فيه مقلوب راسا على عقب ... لابد انك ظللت تتقلب طول الليل

ـ كيف الجو اليوم ؟

ـ ممطر

ـ لا لزوم لهذه البدلة السوداء .... ارتداء السواد قد يبدو نوعا من المبالاة اليوم .... اخرجى بدلة رمادية

ثم انه لم يكن واثقا من ظهوره امـــــام المحكمـــة ، فالاستاذ قد رجاه أن يلزم البيت ولا يذهب الى المحكمة:

ـ ان النيابة لم تطلبك للشهادة ، والدفاع لم يطلبك شخصيا للادلاء بشهادته فانا افضل جدا أن أستخدم اقوالك فى التحقيق واقراراتك المكتوبة اذا اقتضت الحاجة اليها ، من غير أن تظهر بشخصك ... واذا اراد القاضى ان يستعمل حقه فى سماع شهادتك ، ففى استطاعتى أن أطلبك تليفونيا ، فامكث فى البيت ولا تبرحه

وكان اليوم شبيها الى حد كبير بأيام المآتم ، فالبيت يضج بحركة حزينة غير عادية ، والخادم العجوز تبكي وتنتحب وتكلمه كما لو كان قد أصيب بفقد عزيز لديه :

ـ يجب أن تأكل شيئا ... كي يقيم أودك

وهو من جانبه منح ذلك اليوم اجازة لجميع الموظفين في المكتب ، فكان الفراغ محسوسا فى المكاتب ، وافتقدت أذنه ضجة آلات الدباغة المألوفة فشعر لذلك باستيحاش.

ثم حضر فليكس فى سيارته مع جان ، وكان الانزعاج والجد باديين على فليكس ، وبعد أن رمق فرانسوا بنظرة قلقة ، قبله على وجنتيه ، ولاحظ فرانسوا انه ارتدى ثيابه بعناية أكثر من المعتاد ، وكذلك جان ، وقد حرصت على ارتداء السواد ، فكلاهما مدعو للشهادة ، وهما فى طريقهما الآن الى دار المحكمة

وقالت جان لفرانسوا :

ـ يجب أن تحتفظ بهدوئك كاملا يافرانسوا ... وانا واثقة ان كل شيء سينتهي على خير مايرام ... وبهذه المناسبة اذكر لك انى تلقيت برقية من أمي ... هاك هي

وقدمت اليه البرقية ، فقرأ فيها :

ـ نوبة عنيفة من الروماتيزم ، السفر مستحيل ، أرسلت الى بونيفاس شهادة مرضية وبعثت له باقوالى كتابة ، ابرقوا الى بالنتيجة

ونظرت جان وفليكس الى الساعة الكبيرة وكان عقرباها يشيران الى التاسعة الا عشر دقائق ، والمحاكمة لابد أن تبدأ فى التاسعة تماما

فقال فرانسوا :

ـ كلمنى تليفونيا بمجرد الانتهاء من شـــــهادتك يافليكس

وفى هذه اللحظة وصـــلت مارت قادمة من مزرعة البلوط بالاوتوبيس ، فقد دعيت هى أيضا للشــهادة ، اما جاك فبقى فى البيت الريفى مع الطباخة كلو .

ـ سنراك بعد قليل يافرانسوا

وحاول الجميع أن يبتسموا ، ولكن محاولتهم باءت بالفشل ، وكان الرذاذ يتساقط ، ولم تعد عالقة بفروع الاشجار الا بضع أوراق صفراء تقاوم الشتاء بلا جدوى ، وامام البيت مباشرة جلس صياد وقد أدلى بشصه فى الماء ، وتحدب ظهره وشبث عينيه فى الفلينة التى تنداح حولها الدوائر

وقالت له انجيل :

ـ ينبغى ان يشغل سيدى نفســـه باى شىء حتى لايبدو له الوقت أطول من حقيقته

وكان قد نام نوما نادرا ، وحلم احلاما كثيرة غامضة ، فاحس برأسه فارغا وبشفتيه محمومتين ، وظل يغــدو ويروح امام آلة التليفون ، على أمل أن يسمع رنينها ، ولو ليقولوا له كى يسرع بالتوجه الى دار المحكمة

وكان الاستاذ بونيفاس قد قال له :

ـ ستكفى جلستان على الاكثر لنظر القضية . لأن موكلتى اعترفت اعترافا كاملا ، مما حدا بالنيـــــابة الى الاستغناء عن شهادة معظم شهود الاثبات ، وأنا من جانبى وجدت ان شهادة معظم شهود النفى ستكون بلا جدوى

واقترح عليه فرانسوا الانتظار فى مقهى صغير بالقرب من دار المحكمة ، فقال له :

ـ ولكنك معروف جدا فى المدينة ، وسيعتبر هذا العمل غاضا من كرامتك حين يتناقله الناس

وكان الاستاذ بونيفاس قد جعله يكتب فى تقريره للمحكمة عبارات غريبة أعترض عليها ، بيد أن المحامى أصر عليها لأنها خليقة أن تؤثر فى قلوب المحلفين :

ـ انني أعلن بكل قلبى وروحى ، أمام الله والناس انى صفحت عن زوجتى وغفرت لها الأذى الذي ألحقته بى وجميع ما حاولت أن تنزله بشخصى من أضرار

ـ ولكنى ياأستاذ بونيفاس لا أجد محـــلا للمغفرة والصفح ، لأنى أعتقد فى قرارة نفسى أن الخطأ خطئى أنا

ـ اسمع ياسيد دونج ! هل تريد أن تساعد الدفاع عن زوجتك أو لا تريد ؟

ـ طبعا

ـ أكمل اذن . . . وانى واثق ان العزلة الموحشـــة التى تركت فيها شابة مرفهة صغيرة السن تعودت الحياة النشطة الحافلة بالتسلية والمسرات قد دفعت بها الى الضيق بتلك المعيشة

ورن جرس التليفون فانقض عليه فاذا به عميـــل يريد أن يطلب صفقة من الجلود ، فصرخ فيه :

ـ مستحيل ! المكتب اليوم مغلق ، اتصـــل بنـــا غدا

ونظر وهو لم يزل ممسكا بالسماع الى ساعة الحائط ، انها العاشرة الا ربعا ، ومعنى ذلك أن النيابة فرغت من قراءة عريضة الدعوى . . . وتصور ازدحـــــام القاعة بالسيدات ، وظهور بيبى شاحبة الوجه منتصبة القامة

فى شمم ووقار ، كانها ذاهبة الى الكنيسة . . . ولابد أيضا أن جميع الحاضرات ارتدين أفضل أثوابهن

ــ قلت لسيدى أن يشغل نفسه بشىء حتى لا يطول عليه الانتظار . . .

وتجاوزت الساعة منتصف الحادية عشرة ، فنزل الى مكتبه ثم صعد ، ونزل ثانية ففتح باب الشارع ، فظننته الخادم العجوز يفكر فى مغادرة البيت وأسرعت تصرخ فى أعقابه وهى تلهث :

ــ سيدى يعلم جيدا انه يجب الا يغادر البيت

ولكن المسكين لم يكن يطمع فى أكثر من استنشـــاق قليل من الهواء البارد على ضفة النهر ، وكان صـــياد السمك لم يزل جالسا فى موضعه

واخيرا ، فى الساعة الواحدة الا ربعا وقفت سيارة عند المنحنى ، وكانت سيارة فليكس الذى كان يقودها عارى الراس

ــ حسنا ؟

ــ لا شىء . . . مر كل شىء بهدوء . . . ويبدو أن المحلفين لا بأس بهم ، فيما عدا الصيدلى الشيوعى . . . وللأسف انه رئيس المحلفين

ــ وبيبى ؟

ــ بخير حال ، لم يتغير فيها شىء . . . بل يبدو أن وزنها زاد قليلا . . . وعندما دخلت قاعة المحكمة حبس الجميع انفاسهم

ــ وماذا كانت ترتدى ؟

ــ تاييرا كحلى اللون وقبعة صغيرة داكنة ، بدت فيهما كأنها تدخل صالوننا فى حفلة استقبال رسمية . . .

وجلست باتزان كامل ، ثم جالت في ارجاء القاعة بعينيها كأنها تبحث عن أحد

وجف حلق فليكس فنيكه

ـ وممثل النيابة ؟

ـ كان صارما ، ولكنه كان أقل تحاملا من المنتظر ... وكادت الاجراءات تكون روتينا محفوظا ، فلا النيابة ولا الدفاع وجها اسئلة ذات شأن الى الشهود ، حتى لقد بلغت خيبة الامل على كثيرين ممن طمعوا في التمتع بمفاجآت

وبعد قليل اقبلت جان في سيارة تاكسي

ـ كيف حالك الآن يافرانسوا ؟ لا أظن انه كان هناك ما يمنع من حضورك ، فكل شيء جرى ببساطة لايتصورها العقل ، وعندما جلست في مقعد الشهود أومأت الى بيبي بحركة صغيرة من يدها لم يتبينها أحد ، هكذا ... رفعت اصبعين فقط كما كنا نفعل ونحن صغيرتان على المائدة عندما نريد أن نتفاهم على سر فيما بيننا لا يعرفه والدانا ... وأقسم انها كانت تبتسم ... هيا بنا نأكل ياأولاد! فان فليكس ينبغي أن يعود الى دار المحكمة في منتصف الساعة الثانية حيث ستعود الجلسة للانعقاد

وكانت أصوات السكاكين والشوك ترن في الصمت المخيم ، كأنه طعام الحداد في يوم مأتم

ـ هل من المنتظر حقا أن يفرغوا من القضية اليوم ؟

ـ هذا يتوقف على ممثل النيابة ... فان الاستاذ بونيفاس يؤكد ان مرافعته سوف لا تستغرق اكثر من ساعة ، ولكنه وعد أن لا يتمسك بتحقيقه في معظم قضاياه، فاذا احتاج الأمر استغرق ساعتين أو ثلاثا على حسب استعداد المحلفين للاستماع اليه

وانصرف فليكس بعد الغداء ، وبقيت جان فقالت :

ـ خبرني يافرانسوا ... الوقت قد حان للنظر في بعض المسائل ..... فاذا شاء الله أن تبرىء المحكمة ساحتها ، سترغب طبعا في أن ترى جاك فورا ... الا ترى انه من المستحسن الا نذهب بها الى البيت الريفي، حتى لا تصدمها الذكريات الأليمة ؟ .. أتدري ماذا أفكر فيه ؟ نركب السيارة ونذهب الى مزرعة البلوط فنحضر جاك وكل ما يحتاج اليه لقضاء الليلة هنا ، ولا مانع من احضار كلو أيضا ، وفي مدى ساعة تكون قد عدنا الى هنا ، ولاشك في ان الاستاذ بونيفاس سوف لا يحتاج اليك قبل ذلك الوقت .

وكانت الساعة لم تبلغ الثالثة بعد ، فوافق فرانسوا على ذلك الاقتراح ، وتوجها توا الى البيت الريفي وتولت جان قيادة السيارة لأن أعصاب فرانسوا كانت مضطربة للغاية

واسرعت كلو الى البوابة البيضاء وقد خطر لها أن البشرى قد جاءت ، أو لعل السيدة نفسها حضرت الى بيتها ، وأمرتها جان أن تجهز ثياب جاك ، واقبل جاك يجرى ويسأل خالته :

ـ أين أمي ؟

ـ ستراها الليلة

ـ الم يحكموا عليها ؟ قيل لي انها لابد أن تسجن

واكفر وجه فرانسوا ، فقالت له جان :

ـ اشرب كأسا من الويسكي يافرانسوا

وبسرعة عادت الأسرة الى شارع الدباغين ، وعلى الاثر اقبلت مارت من المحكمة تقطر ثيابها ماء ، لأنها

نسيت مظلتها فى حجرة الشهود ، فقالت وهى ترتجف :
— ان الاستاذ بونيفاس يتكلم الآن ... وقد ابكى الكثيرين من الحاضرين ... وارسلنى السيد فليكس لاخبركم أن كل شىء يسير على ما يرام

وعندئذ لم يطق فرانسوا الانتظار ، فارتدى معطفه ولم يصغ لتوسلات جان ، وجعل يبحث عن قبعته فى حركات محمومة ، وكان الظلام قد أرخى سدوله ، فلما وصل بسيارته الى ميدان المحكمة وجد جمعا كبيرا أمام المبنى ، كالذى يكون أمام دار للسينما فى فترة الاستراحة ، فتوارى بسيارته عند المنعطف وبقى جالسا أمام عجلة القيادة ، لانه ادرك أن المحلفين خلوا للمداولة ، وميز بين الجموع فليكس عارى الرأس وبغير معطف خارجا من دكان السجائر ، وعرف فليكس السيارة فاقبل عليه بلهفة ، وقال له :

— لقد كلمتك بالتليفون فى البيت فلم أجدك ، ستعرف كل شىء بعد بضع دقائق ، والاستاذ بونيفاس متفائل ، فقد ترافع مرافعة رائعة مؤثرة ، ابق فى السيارة يافرانسوا ... أتريد أن أحضر لك شرابا ؟

— كلا ... وبيبى ما اخبارها ؟

— كما هى ، لا تكترث لشىء ، هل قالت لك مارت أن الاستاذ بونيفاس رسم صورة مفصلة لحياتها فى استنبول وحياة اسرتها ، فابكى جميع الحاضرات ؟

وتقلصت أصابع فرانسوا على ذراع فليكس ، لان الناس كانوا يتسابقون للعودة الى داخل المحكمة ، ورن صوت جرس اشبه باجراس المسارح عند انتهاء الاستراحة ، واقبلت جان فى سيارتها لان القلق استبد بها

أيضا فلم تستطع البقاء فى البيت ... وتحرك لاستبقائه، فقاده الى باب جانبى فى حارة مظلمة يستخدمه الموظفون، واخترق الدهاليز الى حيث كانت الضجة تنبعث من القاعة فاذا الناس مكدسون عند الباب ، وفجاة ساد الصمت وارتفع صوت قوى واضح

ـ اجمع المحلفون على أن المتهمة كانت تقصد قتل المجنى عليه ، وأنها اقترفت جريمتها مع سبق الاصرار ، ولا يرى المحلفون اخذها بالرأفة ...

وتحسست يد جان طريقها فى الظلام الى أصابع فرانسوا فضغطت عليها ، وقالت :

ـ تمالك نفسك يافرانسوا

ولكنها بدات تبكى بكاء مكتوما ... وارتفع صوت القاضى على الاثر :

ـ ... معاقبة المتهمة بالسجن لخمس سنوات مع الشغل ...

وارتفعت بين الجماهير همهمة عالية ولغط ، فأسرعت جان تجذب فرانسوا من يده قبل ان تراه أعين الفضوليين ثم فتحت باب حجرة ليس فيها شىء من الاثاث سوى مقعد طويل من الخشب ، أما الجدران فكانت من الصخر العارى ، وفتح باب مقابل لباب هذه الحجرة خرج منه القضاة ، وظهرت على الاثر بيبى يتبعها حارسان والاستاذ بونيفاس ... ودخلت بيبى الحجرة فى هدوء تام ، ولم تظهر عليها الدهشة عندما رأتهما بل سألت جان :

ـ هل كنت هناك ؟ ... واين جاك ؟

ـ فى البيت

أما هو فلم يستطع أن يتكلم ، لأن الالفاظ صارت

في حلقه الجاف كالحجارة ، وبسط يديه نحـــو يدي زوجته البيضاوين ، وقال لها أخيرا :

ــ سامحيني يابيبي

ولم تتحمل جان الموقف فالقت بنفسها على صدر بيبي وأخذت تبكي ، فقبلتها بيبي بهدوء ، وقالت :

ــ لا ينبغي أن تبكي ... قولي لمارت أن تاتي لزيارتي ... ولكنها بالتأكيد ستأتي من تلقاء نفسها غدا ... فقد استفسرت وعلمت اني سأبقى اسبوعا على الاقل قبل أن يرحلوني الى الليمان .

وكان فرانسوا يصغي لما تقول ، وهو كالمذهول ، ولم يبال بوجود الاستاذ بونيفاس او وجود الحارسين ، فالكبرياء لم يعد لها موضع في هذا المقام :

ــ سامحيني يابيبي ... لقد فهمت كل شيء اخيرا ... وكنت أتمنى أن يصدر الحكم بالبراءة لكي ...

وتطلع الى عينيها فاذا بهما هادئتان جادتان ، وهزت رأسها برزانة ، وقالت :

ــ كلا يافرانسوا ، وما كان ذلك ليغير من حقيقـــة الأمر شيئا ... لقد جاء فهمك متاخرا بعد أن انقطـــع الحبل ، ولم أدرك أنا شخصيا انه انقطع انقطاعا تاما الا عندما وجدت نفسي ارقبك ، وانت تشرب فنجـــان القهوة من غير أن يتحرك في أعماقي شيء ، وجدت انى ارقبك باستطلاع مجرد عن كل عاطفة ... فعلمت انه لم يبق لك وجود بالنسبة لي حتى قبل أن اضع حدا لوجودك

ــ انقطع الحبل الآن يابيبي ؟

ــ ربما كان لا ينبغي أن أخبرك حتى لا تتألم ، ولكن

هذا أفضل ، وكل ما أرجوه منك الآن أن تحتفظ بمارت فى خدمتك من أجل جـــاك ..... فهى تعلم ما يلزم له بالضبط ... وانت يا أستاذ بونيفاس أحب أن أتوجه اليك بالشكر ... لانك فعلت كل ما هو مستطاع ... وانا واثقة أننى لو كنت أخذت بنصحك منذ البداية ... ولكنى لم أكن أريد البراءة ... ومن الخير يا فرانسوا أن تطلب الطلاق ، وتبدأ حياتك من جديد ... فلا معنى للابقاء على صلة لم يعد لها وجود حقيقى ... وانت شديد الحيوية .

وأومأ الحارسان اليها فخرجت معهما بهدوء ، ولم تتجلد جان فارتمت على صدر فرانسوا تبكى .

ــ هذا مستحيل ! لا تدعها تذهب يا فرانسوا !. بيبى فى الليمان ؟. لماذا لا تقول شيئا ؟ لماذا تتركهم يأخذونها ؟.

واضطر فرانسوا أن يجرها الى الخارج جرا حيث كان فليكس ينتظر أمام السيارة وكان أول ما فكر فيــه فرانسوا :

ــ ما كان ينبغى أن نحضر جاك فلنعد الليلة الى البيت الريفى .

وصار الناس بعدها اذا تحدثوا عن فرانسوا دونج يقولون :

ــ انه لم يعد كما كان من قبل ، منذ سجنت زوجته ... انه لا يكترث بعمله ، ولا يصرف شئونه ، الافضل أن تتصل بالسيد فليكس ، فهو الآن كل شىء .

وصار لفرانسوا شاغل واحد ، هو جاك ، كيف يكسبه بعد أن نشأ غريبا عنه ، والاستاذ بونيفاس يقدر أن الافراج

قد يتم قبل مضى ثلاث سنوات ، اذا قدم فرانسوا عريضة الى رئيس الجمهورية للتخفيف عنها ، ولا سيما أن سلوكها فى السجن سيكون مثاليا .

ان فرانسوا يحصى الايام ، ويفكر أحيانا فى أن بيبى التى ستعود ستكون غير بيبى التى رحلت .

ـ ولكن لا بأس ... حسبه انها ستكون هنا .

لقد كانت أمينة كالعهد بها فبصرته بحقيقة شعورها ... ولكن من يدرى ؟.

ويدفن فرانسوا وساوسه وحسراته وندمه وآماله المتضاربة ومخاوفه فى كئوس الشراب وأحلام الشرود الكئيبة .

ـ انه لم يعد كما كان ... لقد اصبح رجلا آخر تماما ... ومن المستحسن أن يلجأ فى الامور الجدية الى شقيقه فليكس ... فهو الآن الرجل ... وهو كل شىء .

فهرس


الهلال
الهلال
مرآة العقل العربي

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية اثنا عشر جنيها ، وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا أو مايعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع . نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ، وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة عاليه عند الطلب .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد/ عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة - ص . ب رقم ٢١٨٣٣.

للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N

رقم الايداع : ٧٨٢٥/ ٨٩

الترقيم الدولى : ISBN ٩٧٧ - ١١٨ - ٤٥١ - ٢

هذا الكتاب

قبل شهرين مات جورج سيمنون .. أحد أهم كتاب الرواية البوليسية فى القرن العشرين .

وسيمنون ظاهرة خاصة فى عالم الأدب . فإلى جانب إبداعاته الغزيرة المتميزة ، فقد عاش حياة حافلة بالمغامرات والحكايات .

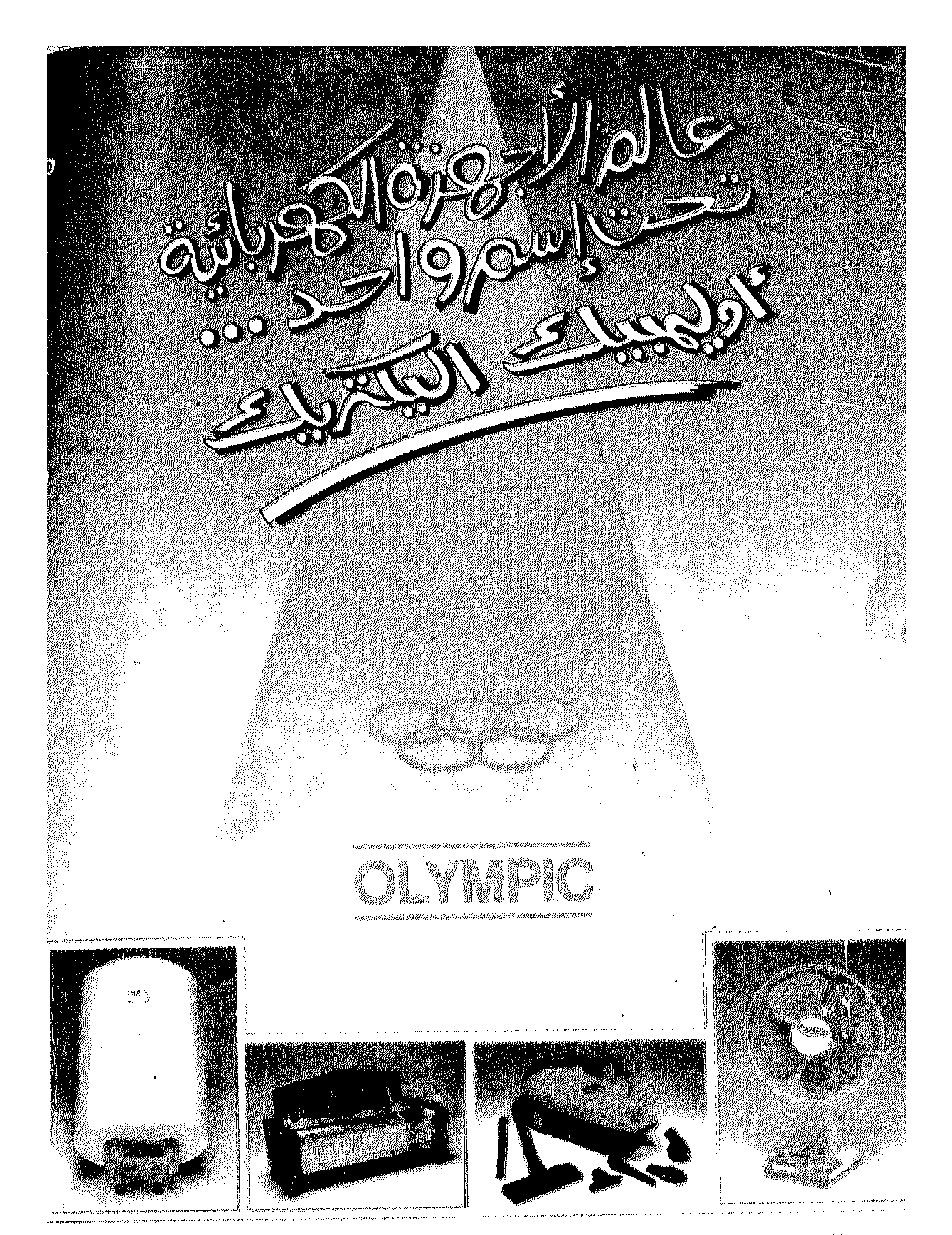
ولم يكن يمكن أن نفوت فرصة وفاة سيمنون دون أن نقدم للقارىء العربى إحدى رواياته الهامة .. مع مقدمة متميزة عن حياة الكاتب وإبداعه .. كتبها الدكتور الطاهر مكى ..

واخترنا رواية « هذه المرأة لى » .. وكتب لها المقدمة باحث جاد قدم العديد للمكتبة العربية ..

والآن .. أمامك ظاهرة ثقافية كاملة عن الرواية البوليسية ، وعن أبرز كتابها .. وأهم ملامحها .. ونموذجا حيا وجادا لهذا النوع من الأدب ..

هذه المرأة لى...

حدث فريد .. يواكب به كتاب الهلال ما يحدث فى العالم .. اليوم وغدا ..


عالم الأجهزة الكهربائية
تحت إسم واحد ...
أوليمبك اليكتريك
OLYMPIC